روايات الهلال

مصطفى نصر



ليالي غربال

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول: يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة ،
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الأردن ٣ دينارات الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي / أبو ظبي ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال المغرب ٥٠ درهما - فلسطين ٤ دولارات - سويسرا ٧ فرنكات

العدد ٦٣٥
نوفمبر ٢٠٠١ ● شعبان ١٤٢٢هـ
No - 635 - NOVE - 2001

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لإمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc . gov . eg

ليالى غربال

بقلم

مصطفى نصر

●

الغلاف للفنانة
سميحة حسنين

النجعاوية

سيد ابن توحيدة وحكايته مع أهل الحارة

انطلق الدجاج من بيت أم متولي . كان واضحا أن هناك من يدفعه خارج البيت .

أسرع الدجاج إلى الأرض الترابية اليابسة فى الحارة ، وأخذ ينبش . لكن امرأة كانت تجلس أمام بيتها، اسرعت وطاردته حتى لا يثير التراب حولها .

أسرع الدجاج هاربا إلى أسفل الحارة حيث يجلس سعد وسيد ابن توحيدة وحسن ابن عزيزة . كانوا واجمين .. تحدثوا طويلا حتى ملوا الحديث . لكن رغبة التدخين تداعب أنوفهم ، خاصة الولد سعد الذى لا يشترى سجائر قط . فمن أين سيأتى بثمنها ووالده لا يعطيه مصروفا ، فهو الآن فى إجازة المدارس الصيفية ، فما حاجته إلى المال ، مادام يأكل ويشرب فى البيت ؟!

سيد هو الوحيد بينهم الذى يستطيع الحصول على مال . فأمه توحيدة انصلح حالها هذه الأيام وجرى القرش فى يديها . كما أنها مهما غضبت على ابنها تعطيه ما يشاء .

– سيد . ابحث فى سترتك ، ستجد مالا !

– قلت لك أكثر من مرة إننى انفقت كل ما معى .

– أريد أن اشترى سجائر ، سيجارة واحدة .

حسن ابن عزيزة الخياطة شارد فى الدجاج . يعرف ألوانه ، يتابعه منذ أن طرده والده من ورشة النجارة التى يمتلكها ومن البيت . يعرف عدد دجاج كل امرأة فى هذه الناحية : فأم متولى تمتلك ستا وديكين . بينما موزة تمتلك أربعا وديكا واحدا .

بدأ اهتمام حسن هذا منذ أن رأى دجاجة تنزوى بعيدا ، قريبا من الأكواخ الصفيح المقامة أمام المسجد تنبش الأرض ، ثم تبيض . تركت البيضة ثم لحقت بباقى الدجاج . أسرع هو وقتها دون أن يلمحه أحد . انحنى ... تظاهر بالبحث عن شئ . وأمسك بها . قدمها لرفيقيه سيد وسعد . أعطاه يومها بخيت الحلوانى سيجارتين ثمنا لها .

لكن اليوم لم تستجب دجاجة واحدة له وباضت . قال سيد :

– سهرت ليلة أمس فى حفل . شربت بيرة حتى سكرت .

– ومن الذى دفع ثمن البيرة ؟

– أصحاب الحفل طبعا .

عاد حسن إلى متابعة الدجاج . كثيرا ما راودته فكرة سرقة واحدة منها وبيعها فى سوق الفراخ بالعطارين لكنه خاف الفضيحة . وخاف أكثر من غضبة والده . لقد ضربه برجل الكرسى شج رأسه وطرده من الورشة لأنه يعود متأخرا كلما أرسله لشراء لوازم الورشة . وأقسم بألا يعطيه مليما حتى ينصلح حاله ويتأدب .

لكن عزيزة زوجة أبيه تعطيه بعض القروش القليلة دون علم والده . وتلح عليه بأن يذهب إلى الورشة ويترك صديقيه سيد وسعد اللذين ليس وراءهما شئ .

رغم أن عزيزة ليست أمه إلا أن أهل الحارة كلهم يسمونه باسمها : حسن ابن عزيزة ، وينادونها بأم حسن ربما لأنها لم تنجب حتى الآن . وتعامله كابنها .

قال سعد :

– تشرب بيرة بالأمس حتى تسكر ولا تجد لنا مالا لشراء ثلاث سجائر ؟!

– أمى لا تريد أن تعطينى مليما إلا إذا عدت إلى الجيش .

– ومتى ستعود ؟

– يوم . أو يومين .

– والعقاب ؟

– تعودت عليه .

يعشق سيد بنتا سوداء ، تعمل لدى عباس الأعور تاجر الدشت . الذى اغتنى وبنى له بيتا كبيرا ظهره فى حارة بسطاوى وبابه فى حارة نعمان . فبدا البيت وكأنه قصر كبير بين بيوت الحارتين الصغيرة والواطئة . وجاء بالبنت لتساعد زوجته البدينة فى عمل البيت .

تنتظره البنت عند المغرب يوميا ، حيث ينشغل الرجل وأولاده بالشونة ، والمرأة

تنام . فقد أجهدتها السمنة . يجلسان فوق سلم البيت ، يتبادلان القبلات ، وتسمح له أحيانا بدخول الشقة ليأخذ راحته أكثر . فالمرأة نائمة فى سابع نومة ولا تحس بشئ ، وعباس الأعور وأولاده يعودون بعد منتصف الليل .

من أجل هذه البنت يؤجل سيد عودته إلى الجيش يوما بعد يوم . حتى كاد يتم أسبوعا من الغياب .

من يومين سارت أمه معه حتى محطة القطار . اشترت له نصف كيلو هريسة وعلبة سجائر ، وبكت عندما تحرك القطار فهو لن يعود إليها قبل شهر وربما أكثر .

تحرك القطار بالفعل وسيد داخله . فلوحت بيدها باكية . وعادت إلى البيت . حكت للنسوة عما حدث. والنسوة يخفين عنها ضحكاتهن . فقد عاد سيد قبلها . نزل فى محطة سيدى جابر واستقل تاكسيا إلى البيت . أعطى الهريسة للنسوة ليأكلنها .

فوجئت توحيدة بابنها يخرج من حجرته ، خالعا ملابس الجيش . ضحكت النسوة بصوت مرتفع ، فقد فشلن فى اخفاء الضحكات .

يومها ، صرخت توحيدة وأعلنت بأنها ستخسر دينها ، إن اعطته مليما واحدا قبل أن يعود إلى الجيش .

قال سعد :

– هذه البنت السوداء ستجلب لك الدمار .

وأكمل حسن فى أسى :

– ولنا أيضا . يكفى أننا لا نعرف الحصول على قرش واحد .

قال سعد :

– لقد كانت سبب طرد سيد من شركة الغزل التى كان يعمل بها .

صاح سيد غاضبا :

– لا . ليست هى . انما وردية الساعة الثالثة .

وردية الساعة الثالثة ، تعنى أن يحرم من النهار والليل معا . يصحو سيد من

نومه بعد الظهر ، يتناول طعامه ويرتدى ملابسه ويذهب إلى عمله . ولا يعود إلا بعد الحادية عشرة . فيكون الكل قد نام . أو على الأقل خرجوا للفسحة فى محطة الرمل والمنشية . ويبقى وحده . لا يستطيع الذهاب إلى السينما . فآخر حفلة تبدأ الساعة التاسعة .

كما أن وردية الساعة الثالثة تحرمه من فتاته . فكيف سيقابلها ، والمرأة زوجة عباس الأعورلا تنام قبل المغرب ولا يعقل أن يقابل فتاته بعد الحادية عشرة مساء ، فقد يعود عباس الأعور وأبناؤه من الشونة فجأة .

لقد طلب سيد من رئيسه فى شركة الغزل أن يبعده عن هذه الوردية اللعينة . فأنسب عمل له هو وردية الحادية عشرة مساء . حيث يقضى اليوم كله فى الشارع ، ويعمل فى اليوم كله ساعة أو ساعتين . ثم يبحث له عن مكمن بعيد لينام فيه . ففى الليل يندر المرور والتفتيش . لهذا تظاهر بعدم مقدرته على الوقوف أمام آلة الغزل ، ليظل كناسا فى العنابر ، فذلك يعطيه حرية الحركة . والتمكن من الهروب إلى النوم .

لكن الرئيس - سامحه الله - عارض هذا . فلابد للعامل أن يعمل الورديات الثلاث كاملة ، مثله مثل غيره . فاضطر سيد أن يتغيب عن وردية الساعة الثالثة حتى فصل .

تكسب أمه كثيرا من تجارة الدخان الذى تشتريه من الزبالين الموجودين بكثرة فى الحى . وكانت تعطى سيد بسخاء قبل أن يعرف البنت السوداء ، وقبل أن يفصل من عمله .

★ ★ ★

سمعوا صوت بائع الترمس آتيا من الحارة المجاورة . قال سعد :

- أسنظل هكذا دون نقود ؟

قال حسن :

- لم تبض دجاجة واحدة اليوم .

ضحك سعد قائلا :

- اكتشفت النسوة ضياع البيض ، فحبسن الدجاج إلى حين يبيض .

- والعمل ؟

- يذهب سيد إلى أمه .

قال سيد :

- لقد غلبت معها .

قال حسن :

- اذهب إلى حبيبتك السوداء التى كانت سببا فى غضب أمك عليك . فقد تعطيك شيئا مما تسرقه من زوجة عباس الأعور .

- لا أقدر . لقد ضبطنى عباس الأعور معها . وأقسم أن يسلمنى للبوليس . مدعيا أنه ضبطنى أسرق شقته . وتركنى عندما عرفنى .

قال سعد ضاحكا :

- خاف من أمك توحيدة .

- حذرنى بأنه سيخبر أمى إن رآنى معها ثانية .

قال سعد متوسلا :

- حاول مع أمك ثانية .

قام سيد متثاقلا :

- سأتصرف .

أمتار قليلة ويجد سيد بيت أمه ، النساء يعملن لديها بالأجر . يفصلن غلاف السجائر وفلترها . ثم تبيع هى الدخان بالكيلو فى «بلطيم» و «أبو المطامير» وغيرهما . ليبيعوه هناك للفلاحين الذين مازالوا يستعملون السجائر اللف .

عندما دخل سيد الحجرة التى تجلس فيها أمه وعاملاتها . تظاهر بالحزن . نظرن إليه فى دهشة .. كلهن جارات أمه ، ويعرفنه جيدا . قالت إحداهن :

- مالك يا سيد ؟

- رجل فقير مات ولا يجد أهله مالا لدفنه .

خشيت الأم أن تكون هذه واحدة من ألاعيب ابنها معها :

- من ؟

- لا تعرفينه . كان يعمل معى فى شركة الغزل .

مصمصت النسوة شفاههن حزنا . وأحست الأم بالاطمئنان ، وأيقنت بأن ابنها هذه المرة لا يكذب .

- الرجل ليس لديه ولد ، كل ذريته بنات .

وقفت توحيدة ، تغير وجهها ، وأحست بالرضا عن ابنها لأنه أثر فى عاملاتها . إحساسهن بالحزن شجعها أن تخرج المنديل من صدرها ، وتفتحه ، وتخرج عشرة جنيهات وتدفعها له :

- خذ .

لو لم تكن النساء موجودات ، لدفعت جنيها أو اثنين . لكنها تريد أن تظهر أمامهن فى صورة المحسنة.

أخرجت النسوة نقودا صغيرة وأعطتها له . قبل أن يخرج من الحجرة ، صاحت توحيدة :

- هذا المبلغ لا يكفى أعطنى إياه .

ود لو جرى بما معه إلى صديقيه . لكنه لم يستطع . كانت نظرات النسوة الأخريات تتابعه .

أمسكت توحيدة بالجنيهات العشرة ، والقروش القليلة التى دفعتها النسوة وقالت :

- سأطوف على البيوت . سأجمع لك مبلغا يكفى لهذا .

أحس بالخوف . لم يكن يريد مالا من أحد سوى أمه . هؤلاء النسوة أفسدن عليه ما كان سيفعله .

جلس سيد واجما . ماذا سيفعل ؟ من الممكن أن يكتشف أمره فى الحارة .

لو أخذ الجنيهات العشرة من أمه ، ثم اكتشف أمره ، فلن يلومه أحد . أمه وهو حر فيها . ومن حقه أن يأخذ منها ما يشاء . بل كان سيقول لها الحقيقة ؛ لكن بعد انفاق النقود كلها .

النسوة ينظرن إليه فى أسى . قالت إحداهن :

- واضح أن الفقيد عزيز عليك .

أومأ برأسه . قالت أخرى :

- الحزن باد عليك .

وسار سيد إلى الخارج . سيجلس مع صديقيه إلى أن تعود أمه .

★★★

جلس مكانه دون قول . قال سعد :

- رفضت امك أن تعطيك مالا ؟

كان بائع الترمس قد ترك الحارة وتلاشى صوته ..

- أمى تجمع نقودا من نساء الحارة .

- من أجلنا ؟

هكذا صاح حسن مندهشا .

- نعم .

قال سعد مبتسما :

- ماذا قلت لها ؟

- قلت إن رجلا مات . وأهله عاجزون عن دفنه .

أحس سعد بالفرحة . المبلغ الذى ستجمعه توحيدة من بيوت الحارة سيكون كبيرا ، سيكفيهم لأيام عديدة ، عفريت الولد سيد . لكن حسن قال :

- لم أكن أظن أن الأمر سيصل إلى هذا الحد .

صاح سعد فيهما :

- لا تتحدثا فى هذا الأمر الآن . من الممكن أن يكتشف الناس أمرنا .

صمتوا .....

سمعوا صوت بائع البطاطا الساخنة فى الحارة الخلفية . قال سعد ساخرا :

- إذهب إلى أمك وخذ منها شيئا على الحساب .

جاءت توحيدة بعد لحظات . ومعها عاملة من عاملاتها . قال سعد :

- تظاهرا بالحزن . إياكما والفضيحة .

قالت توحيدة :

- عباس الأعور يريد أن يعرف بيت الميت .

- لماذا ؟

صاح سيد هكذا دون تفكير .

- لأنه يريد أن يقوم وحده بالتكاليف .

- لكن ....

لما لم يجد سيد جوابا ، صاح سعد مسرعا لانقاذ زميله :

- أهل الميت لا يعرفون سوى سيد . وسيرفضون أى مساعدة من غيره .

قالت الأم وهى مازالت فى حزنها من أجل الميت الذى لم تره :

- عباس الأعور قادر على اقناعهم .

قال حسن فى صوت خافت :

- عباس الأعور لم يكن فى الحسبان .

صاح سيد وقد أحس بأن كل شئ سيضيع منه . هذا غير الفضيحة لو اكتشف عباس الأعور الخدعة :

- أعطنى المبلغ الذى جمعته ، وليس لك شأن بشئ آخر .

- عباس الأعور سيعفى أسرة الميت من كل شئ . وهذا أفضل لهم بكثير .

أراد حسن أن ينسل هاربا ، عائدا إلى بيته . فإذا ما اكتشفت الخدعة ، سيعلم والده ، وستكون ليلته سوداء . ضاق الرجل به من كثرة هروبه من ورشة النجارة . وحذره كثيرا من مجالسة ابن توحيدة وسعد .

عباس الأعور صار أغنى رجل فى الحى . يشترى البيوت من أصحابها برخص التراب . ويعيد بناءها من جديد . ويتظاهر بالكرم . فيسرع إذا ما مات فقير . يقوم بكل شئ ، والناس حوله يدعون له .

أخرجت توحيدة النقود من صدرها :

- الخمسون جنيها التى جمعتها لا تكفى لشئ .

قال سعد فرحا :

- بل تكفى وتزيد .

صاحت غاضبة :

- هو لعب عيال . عباس الأعور هو الحل . وسوف أرد النقود إلى أصحابها .

قال سعد متأثرا من ضياع النقود منه ؛ ومن صديقيه :

- حتى وإن قام عباس الأعور بكل شئ للميت . فستظل أسرته فى حاجة إلى مساعدة . وحرام أن تردى نقودا خرجت من أصحابها عن طيب خاطر .

قالت توحيدة :

- نعم . خذ النقود يا سيد . وأعطها لزوجة الفقيد .

وضعت المنديل بين ساقى ابنها الذى لم يمد يده لامساكه .

★★★

سارت المرأة بعد أن طلبت منهم البقاء فى أماكنهم حتى يأتى عباس الأعور ، ليتفاهم معهم .

صاح سيد غاضبا فى سعد :

- لماذا طلبت المال منها ؟!

- تريد أن تترك مبلغا مثل هذا ؟!

- لكن عباس الأعور سيكتشف اللعبة .

وقف حسن قائلا :

- لن أبقى معكما .

وقفوا جميعا . قال سعد :

- نعم . هيا بنا .

بعد أن خرجوا من الحارة . قال سعد لسيد :

- سأشترى سجائر من النقود .

أراد سيد أن يمنعه . لكن سعد أسرع إلى أقرب دكان واشترى منه .

جلسوا على قهوة فى شارع «حافظ قبطان» القريب من الحارة . قال سعد :

– إننا لا نجد مالا . ومبلغ مثل هذا . سيكفينا لأيام عديدة .

قال حسن :

– الحل هو أن تخبر أمك بأن أهل الميت رفضوا مساعدة من أحد .

قال سيد :

– نعم . سأعيد النقود إلى أمى .

لم يقتنع سعد بهذا . قال :

– سننفق الجنيهات العشرة التى دفعتها أمك ، والباقى ترده للناس .

عادوا ثانية إلى الحارة . والنقود التى جمعتها توحيدة من الناس فى المنديل . عندما بلغوا أعلى الجبل الذى يعلو الحارة ، وجدوا عباس الأعور وتوحيدة وبعض النسوة يسرعون إليهم ... هروبهم جعل توحيدة تحس بأن ولدها يريد أن يفضحها فى الحارة . قال سيد :

– عباس الأعور سيجدها فرصة للانتقام منى ، بسبب علاقتى بالبنت السوداء التى تعمل عنده ..

مد سيد النقود لأمه :

– خذى .

ابتسم عباس الأعور قائلا :

– ماذا حدث ؟

قال سعد :

– قريب للفقيد حضر من سفر ، وقام بكل شئ .

قالت توحيدة :

– والنقود ؟

– رفض أيضا أن تأخذ زوجة الفقيد شيئا من غريب .

عاد عباس الأعور دون قول . وأعادت توحيدة النقود إلى أصحابها . وعندما لم تجد الجنيهات العشرة التى دفعتها ، فهمت اللعبة ، فصمتت .

عزيزة الخياطة

ذكر أزياء الحى قبل حضور عزيزة

قبل أن تأتى عزيزة الخياطة إلى «غربال» ، كانت النسوة فى حارات : نعمان وبسطاوى والنجعاوى ، يتعاملن مع عدد من الخياطات لا يعرفن سوى حياكة الجلابيب الواسعة ذات السفرة على الصدر ، القريبة من جلابيب النسوة فى الصعيد .

ولم يكن ذلك يعنى الكثير لنساء الحارات الثلاث ، فمعظمهن يعتمدن على اخفاء جلابيبهن بملاءة سوداء تغطى الجسد كله . ولا يكشفن عما يلبسن سوى فى الحفلات التى تقام فى «المسارح» . حيث تضع كل امرأة ملاءتها على مقعدها، وتسير وسط المدعوات بجلبابها ، كاشفة عن ذراعيها العاريتين ، وعن شعرها العارى .

وكان للنجعاويات فى حارة النجعاوى والحوارى المجاورة زى خاص بهن، ويمكن أن يعرفن به ، ولو كن فى مكان بعيد عن غربال . وقد كان شباب الحى أو أصدقاؤهم الذين يترددون على الحى ، ويعرفون أهله وما يلبسون ، كانوا يكشفون النجعاويات الذاهبات إلى المسرح الذى يقام فيه الحفل ، أو عائدات منه . فكن يهتممن بالأقمشة الهفهافة ذات الألوان الصارخة التى تشبه قمصان النوم ، والمصنوعة من النايلون . ويرتدين تحتها جلابيب بلون قريب من لون القماش بلا أكمام . لتظهر أذرعهن من خلال القماش الهفهاف الشفيف .. وكانت هذه الأقمشة تجعلهن يتصببن عرقا خاصة فى فصل الصيف .

ورغم أن الخياطات اللائى جئن إلى الحارات الثلاث قبل عزيزة كن يحكن الملابس بطريقة قديمة وسيئة ، كن يتقاضين مبالغ كبيرة ، وكانت لهن مكانة وهيبة وسط سيدات الحى . فمعظم السيدات يطمعن فى أن تتعلم بناتهن الحياكة مثلهن. فكن يرسلن بناتهن إلى الخياطات . ويدفعن لهن مبلغا كل أسبوع نظير أن تجلس البنت أمام الخياطة لتتعلم منها . لكن الذى يحدث غير هذا . فقد استغلت الخياطة البنات الكثيرات فى شراء لوازم بيتها وبيوت أقاربها من البقالين والجزارين .. إلخ

واستغلتهن فى كنس البيت وتنظيفه ، وغسل الملابس إلى آخر الأعمال البيتية العادية .

والبنات الصغيرات يجلسن مقرفصات فى صمت . ويعقدن أذرعهن حول صدورهن حتى تتخدر أجسادهن ويصبحن غير قادرات على الحركة .

لم يكن الحى يعرف الملابس الجاهزة ، وعندما اشترت «كريمة» ابنة عباس الأعور ملابس العيد جاهزة من سوق المنشية . أصبحت أعجوبة وسط نساء وبنات الحى . وذهب الأقارب والمعارف ليشاهدن ملابسها الجاهزة ، ودهشن من ثمنها المرتفع . ورددن فى حسد :

– أبوها غنى ، ويستطيع أن يشترى لها ما تشاء .

وفى العيد ، انتظرت الفتيات مشاهدتها وهى مرتدية ملابسها الجاهزة فى شوق . وخرجت الفتاة ترتدى جونلة ضيقة قصيرة وبلوزة صفراء .

التفت البنات حولها . وحاولت أكثر من واحدة أن تصادقها ، وأن «تتصور» معها بملابسها الجديدة .

وحدث أن ضلت فتاتان الطريق ، كانتا ترتديان بنطلونين ضيقين ، ولما كان أطفال الحى وشبابه لم يروا فتاة تسير بالبنطلون فى غربال . فقد ساروا وراءهما كالمظاهرة . والأطفال يهتفون والشبان يتابعونهما فى دهشة . وامتدت أيدى الأطفال لتمسك بالبنطلونين .

واتضح بعد ذلك أنهما جاءتا من القاهرة مع أسرتيهما فى زيارة لصيدلى فى شارع راغب باشا .

ودهش الصيدلى عندما سمع جلبة خارج البيت . فرأى ضيفتيه وسط مجموعة كبيرة من الأطفال والشباب .

★★★

لكن حضور عزيزة الخياطة غير كل شئ فى الحى . فقد سكنت فى حجرتين لهما شرفة تطل على حارة نعمان فى بيت الحاج هلال . وشاع فى الحى أن الساكنة الجديدة التى تسير فى الحارة «تتراقص» بلا ملاءة ، تهز ردفيها

الواضحين . كاشفة شعرها ، شاع أنها تعمل خياطة .

أول ما خاطت ، كانت لرشيدة زوجة سمير الحلاق ، الذى جاء بها لتسكن الحارة .

ورغم أن رشيدة ليست من قرية (أ) كمعظم سكان الحى ، بل وليست من الصعيد بالمرة ، إلا أنها كانت مثلهن تكتفى بالملابس الريفية الواسعة ذات السفرة المطرزة على الصدر .

لكن ما خاطته عزيزة كان شبيها بجونلة كريمة ابنة عباس الأعور التى اشترتها جاهزة من أسواق المنشية بل زعمت بعض النسوة أن بلوزة رشيدة التى حاكتها عزيزة لها أحسن بكثير من البلوزة الجاهزة التى اشترتها ابنة عباس الأعور . لكن السيدات السامعات لهذا - رغم بساطتهن - أدركن مدى مبالغة المتحدثات ، فلو تستطيع عزيزة حقا أن تصنع ملابس أحسن من الجاهزة . فما الذى جاء بها إلى الحارة المتواضعة لتسكن فيها .

وأخذن يترقبن رشيدة زوجة سمير الحلاق فربما تخرج بهذه الملابس فجأة، فيتأكدن من الأقوال المزعومة .

لكن وقع حادث غير مجرى الأحداث تماما فى الحارات الثلاث . بل وفى جزء كبير من الشارع العمومى . فقد أقيم حفل زفاف فى مسرح اسكندرية بشارع السلطان حسين . والعروس ابنة الحاج هلال صاحب البيت الذى تسكنه رشيدة وعزيزة . وطبيعى ستكون رشيدة موجودة فى الحفل بالملابس التى حاكتها لها ، بل ستكون عزيزة معها .

تواعدت النسوة على الذهاب إلى الحفل . حتى لو كن غير مدعوات من الحاجة زوجة الحاج هلال . ليس مهما رؤية العروس أو العريس . المهم ما ستلبسه رشيدة زوجة سمير الحلاق .

يومها ، ضاقت الحاجة بما حدث ، وأرادت أن تصرخ وتطرد النسوة خارج المسرح . فلقد التففن حول رشيدة وكأنها هى العروس . الكل يلمسها ويرفع جونلتها ، ناظرا إلى «الثنية» ويمسكن بياقة البلوزة .

دهشت الحاجة زوجة الحاج هلال مما يحدث . فرشيدة ليست جميلة . فهى ناشفة وحالها عبر . فما الذى جعلهن يتركن ابنتها العروس ويهتممن بها .

ليلتها فاجأتهن عزيزة بما أدهشهن . فقد قالت «إن ملابسها التى تهتز بها وسط الحارة ..... وتكشف بها عن مفاتن جسدها ، هى أيضا من صنع يديها» .

ياه ..... تخيلت كل امرأة نفسها . وهى ترتدى ثوبا مثل أثواب عزيزة وتتحرك فى الحارة فى خيلاء . ياه الكل سيتحدث عنها وقتذاك .

وسألتها توحيدة :

– هل يمكن أن «تفصلى» لابنتى الزينة ثوبا مثل ثوب رشيدة زوجة سمير الحلاق ؟

قالت :

– من عينى .

انصرفت النسوة عن الخياطات التقليديات . وأسرعن بأخذ أقمشتهن من عندهن . وأرجعن بناتهن اليهن . فما الذى سيتعلمنه من امرأة لاتعرف أن تحيك الفساتين الموضة التى تعلق فى الفاترينات.. وعرضن على عزيزة بأن تأخذ مبلغا من المال لتعلم بناتهن . لكن عزيزة رفضت هذا بشدة . فزوجها حسين سيضايقه هذا . ويكفى أنه تحمل الزبائن وأقمشتهن .

وشهد بيت الحاج هلال زحاما لم يحدث من قبل . نسوة الحارات الثلاث يحملن لفائف الأقمشة ويصعدن إلى الدور الأول باحثات عن حجرتى عزيزة الخياطة . حتى كن يجلسن فى «الصالة» أو لدى رشيدة زوجة سمير الحلاق إلى أن يحين الوقت لمقابلة عزيزة .

عزيزة تحدث تأثيرا آخر فى الحى

لم تكن الخياطة الحديثة هى التأثير الوحيد الذى أحدثته عزيزة فى الحى . إنما هناك تأثير آخر أحدثته فى الشباب الجالس على قهوة أبو دومة . وفوق درجات المسجد الملساء ، أو فوق الجبل . فقوامها البديع ، وحركات ردفيها الرتيبة وقامتها المشدودة . جعلتهم يتأوهون تأثرا .

عندما تهبط فوق الجبل ، تخرج النسوة لرؤيتها ، ينظرن إلى فستانها الذى يكشف الساقين حتى الركبتين . وينظر الرجال إلى جسدها المهتز .

رغم هذا كله كانت عزيزة تخجل إذا ما تحدثت مع رجل أو امرأة فى الحارة . وتخفى وجهها خجلا عندما يحدثها سمير الحلاق عن استحمامها الدائم كل صباح ، وتلميحاته السخيفة .

لقد زارهم سمير كثيرا قبل الانتقال إلى غربال ، كما أنه بحكم القرابة يعرفها من قبل أن تتزوج . ولم يكن يتحدث معها بمثل هذه الجرأة . ولا كان يقدر على الخوض فى موضوعات مثل هذه . لكن تصرفاته معها تغيرت ، بعد أن جاءت إلى غربال . ربما تأثر من حديث الناس عنها .

لكن نسوة الحى كان لهن رأى آخر فيها . فكن يقلن دائما : «ليس بها شئ جميل سوى ما ترتديه من ثياب .. لبس البوصة تبقى عروسة» . وعبن عليها شعرها الأكرت الذى تطلقه دون غطاء وأن فى وجهها بثورا صغيرة تشبه حب الشباب الذى يظهر فى وجه الصبية فى فترة المراهقة .

لقد شكت عزيزة كثيرا من هذه البثور قبل الزواج . فقال لها الأطباء :

– سيزول هذا بعد الزواج .

وتزوجت والحبوب لم تختف .

لقد قبلت عزيزة الأقمشة من النسوة لأنها تعرف أن زوجها حسين فى حاجة إلى المال . ورشة النجارة لا تكفى لاحتياجات البيت . كما أن انتقالهما من مسكنهما القديم ، وشراء أثاث جديد كلفهما الكثير . وحسين عيبه

الوحيد – الذى تتمنى أن يتركه – هو تدخينه للحشيش مرات خلال الأسبوع الواحد .

★ ★ ★

حسين هو زوجها الثانى . فقد تزوجت قبله شابا اسمه أحمد . كان زبون أخيها فى صالون الحلاقة . لكنها لم ترتح له . كان «استورجى» ليس له مثيل . يطلى الموبيليا بأصابعه فتتحول إلى اللون البنى الذى تبغضه عزيزة الآن من أجله . فيلتصق الأستر بأظافره إلى أن يموت . يصبح جزءا منه ولأن الطلب عليه كثير من أصحاب ورش وصالات الموبيليا ، كان يتعاطى الأفيون ليستطيع تحمل التعب والسهر ، حتى أدمنه . وتحول النشاط بمرور الوقت إلى كسل دائم ، ورغبة ملحة فى النوم والشرود .

توقظه عزيزة ليذهب إلى عمله فى الصباح ، فيدعى المرض . ويظل محملقا فى السقف طوال الوقت ، سنوات قليلة بعد الزواج . تحول أحمد فيها إلى مومياء تتحرك بصعوبة .

شكت عزيزة لشقيقها كثيرا ، فكان يعطيها بعض المال . وينصحها بالصبر عليه . فقد يهديه الله ويكف عن تعاطى الأفيون . لكن هذا لم يحدث أبدا .

لم تنجب عزيزة منه . لم تذهب إلى الطبيب لتطمئن على نفسها . فقد ارتاحت لذلك . فلا تريد أن يكون بينهما رابط يجمعهما معا . وقررت أن تتخلص منه ، خاصة بعد أن أصبح شقيقها ينفق على بيتها بالكامل .

وعندما واجهه شقيقها برغبتها فى الطلاق ، لم يعارض . قال فى أسى :

– عندها حق .

وبكت عزيزة يومها أكثر من أى وقت آخر . كانت تظن – قبلها – أنها ستفرح. وأنه لابد من الهجوم عليه ليوافق .

تعرفت على حسين زوجها الحالى قبل طلاقها بمدة قصيرة . كان يأتى إلى البيت ليأخذ أحمد لطلى حجرة نوم أو سفرة بالاستر .

يأتى إلى البيت . ولا يخرج منه إلا وأحمد فى يده . ويحكى لها حسين عن أحمد قبل أن يضعف أمام الأفيون : أحسنها حجرة ينتهى منها فى يوم واحد . وكان وسيما و«لبيسا» . ليس هناك استورجى يلبس مثله ، وتبتسم عزيزة فى أسى. فهى تعرف كل هذا عنه من أيام الخطوبة . هو الآن كالأشباح . جلد على عظم . وظهر منحن . وإذا ما سعل ، تحس بأنه لن ينتهى من سعلته إلا بعد أن يموت .

يجئ حسين فى الصباح ومعه ابنه حسن . حاملا أكياس الفاكهة واللحم والأغذية . أحست عزيزة بأنه يعيش مع ولده دون زوجة ، لم تكن تعلم ان كانت قد ماتت أو طلقت . ولم تسأل حسين عن ذلك . تعاملت معه كعزب فى حاجة إلى أطعمة لا تستطيع صنعها سوى امرأة . فاذا ما أعدت المحشى - مثلا - تصر على أن يتناوله معها ومع أحمد وابنه حسن .

فى يوم شكت عزيزة لحسين من تصرفات أحمد . قال لها حديثا أفادها وأراحها :

- اعتبريه غير موجود . اخرجى من البيت مادام هو فيه . تعلمى أشياء تنفعك كالخياطة مثلا .

فى اليوم التالى ذهبت إلى أخيها فى صالون الحلاقة ، وطلبت منه مبلغا من المال ، لتشترك فى مشغل خياطة . وتعاملت مع أحمد على أنه ليس موجودا . ومادامت لم تنجب منه . فليس مهما أن تعتبره زوجا .

بعد أن تزوجت حسين . أحست بأن ابنه حسن هو ابنها . وأنها قد أتت به من أحشائها .. تردد النسوة فى الحارة أن عدم انجاب عزيزة جاء من حظ حسن، لأنها لو أنجبت فربما كانت ستسئ إليه .

تشترى له الملابس من ثمن الخياطة التى أجادتها وبرعت فيها . وتأخذه إلى سينما «ستار» فى محطة مصر أو «مصر» فى شارع النيل بكرموز . وتشترى له اللب والسودانى وسندوتشات المخ والطحال من رجل يقف على باب السينما .

فحسين يعود متأخرا . بعد أن يغلق ورشته ويسهر مع أصدقائه حول الشيشة والحشيش .

يقول لها حسين :

– لقد دللت الولد حتى أفسدته .

يصحو من نومه متظاهرا بالمرض . يربط منديلا حول رقبته . ويتحدث بصوت خافت . يدعى أن «اللوز» التهبت . وتبتسم هى ، تتوسل إلى حسين لأن يتركه اليوم : «الولد يتعب يا حسين ، وهو مريض كما ترى» بعد أن يذهب والده . يرمى حسين المنديل ويسرع إلى الشارع باحثا عن أصدقائه (سيد بن توحيدة والولد سعد وعوض بن حلمى) .

تسمع صوته من حجرتها وهو يلعب (ويكا يا ويكا) تبتسم .

لكن هذه المرة غضب والده عليه زاد عن الحد . لقد ضربه فى عنف . وأقسم بأن يطرده من الورشة ومن البيت :

– من البيت يا حسين . تريد أن يضيع الولد منا ؟!

كبر حسن الآن ، لم يعد صغيرا . لكن عاداته مازالت فيه : الهروب من الورشة وتصنع المرض . مرة بعد مرة فاض بحسين . قال عنه فى غيابه :

– إن لم أقومه من الآن ، سيضيع . سيصبح مثل أحمد زوجك السابق .

بكت عزيزة يومها وقالت :

– لا تقل عنه هذا .

أحست وقتها بالخوف من أن يضيع حسن مثلما ضاع أحمد . خاصمت زوجها اليوم كله . ولم تستجب له إلا بعد أن اعتذر لها .

حسين يطرد ابنه وعزيزة تتستر عليه

سيعود حسين متأخرا هذه الليلة . تعرف عزيزة هذا . فقد اتفق مع أصدقائه الصنايعية بأن يسهروا فى ورشة واحد منهم حول الشيشة والحشيش والبيرة .

يقف حسن فى الحارة مع أصدقائه . نادت عزيزة عليه . اقترب حسن من الشرفة . نظر إلى أعلى :

– اصعد والدك خرج .

أسرع إليها . أعدت له الطعام :

– ألن تنتهى من هذه الأعمال الصغيرة ؟!

– لم أفعل ما يضغب والدى كل هذا الغضب .

– إنه يريد أن تتصرف كالرجال .

– إنه يعاملنى بقسوة ، لا أدرى لها سببا .

– والدك يحبك . فأنت وحيده .

يلوك طعامه دون قول . تسأله :

– ماذا ستفعل ؟

– لا أدرى .

– تنام تحت السرير .

– ماذا ؟!

– سأفرش لك فراشا تحت السرير . ولا تحدث صوتا حتى لا يكتشف أمرك .

ابتسم حسن .

ذلك هو الحل ، فلو نام فى حجرته سيكتشف أمره وسيطرده . لكن تحت السرير ذى العمدان العالية ، يمكنه أن ينام براحته . قد يعانده النوم وهو يحس بجسد والده الضخم يجثم فوقه . سيشم رائحة سجائره التى يدخنها قبل النوم ، وبعد أن يصحو مباشرة ..

ينام حسن تحت السرير ، تحدثه عزيزة وهى تلم الأطباق :

– سأخرج لغسل الأطباق فى الحمام .

بعد أن تعود ، تجده قد نام . فهو لم يفرد جسده منذ الصباح الباكر إلا الآن. وسيره مع سيد وسعد وضحكهم وجريهم وراء بعض أنهكه وجعله غير قادر على مقاومة النوم .

ابتسمت عزيزة عندما حدثته ولم يجبها . نظرت إليه وتأكدت أنه يغطى جسده جيدا .

★★★

يعود حسين بعد منتصف الليل .

الرجل ذو جسد عملاق ، وعزيزة نحيفة . لكن جسدها مغر . خلق لمثل هذه الأشياء . والرجل «يحشش» من أجلها .

يردد بعض أصدقائه فى غيابه :

– من حقه أن يحشش ، فهو متزوج «وابور» .

ويصفر المتحدث تعبيرا عن مدى قوة هذا الوابور وجودته .

لكن حسين كان يحشش من قبل أن يتزوج عزيزة . كان يحشش وهو بلا زوجة .

الرجل مغر للنساء . وجهه كله رجولة . وجسده مصحح . والنسوة يتعاملن معه. بعضهن يرغبن فى الرجل القوى المتين . والتى بلا رجل منهن تريد أن تتخذه رجلها .

لكنه لم يضعف قط . لم يستجب لإغراء أى امرأة منهن . الشغل شغل . لكن الحشيش أمر آخر . انه سلواه مع أصدقائه الصنايعية . يتحدثون فيه على راحتهم . يضحكون أحيانا ، لا يحس بأى شئ غير عادى .. لكن يحلو له أن يتظاهر بالتغيير ، يضحك على أقل نكتة ، يريد أن يفعل هذه الأشياء التى لا تتناسب مع وضعه كمعلم . وكرجل طويل وعريض ، فيختفى وراء الحشيش ليفعلها براحته .

يسير حسين كاشفا صدره العريض رغم البرد ، وهج الفحم الأحمر جعله لايحس ببرد .

دق باب شقته . عزيزة قلقة فوق سريرها . فمادام زوجها أو حسن فى الخارج ، فلابد أن تنتظرهما لتفتح باب الشقة لهما . هكذا كان الاتفاق يوم أن جاء سمير الحلاق بها إلى هنا : كل امرأة تفتح باب الشقة لأسرتها . فعيب أن تفتح امرأة لرجل غريب . فقد تكون فى ملابس عارية . كما أن ذلك سيتم فى آخر الليل ووسط الظلام ، والأمر ما يستغناش .

أسرعت عزيزة إلى باب حجرتها . فهى تعرف دقة زوجها ، فتحته مسرعة . وقفزت فوق الصالة الكبيرة .

– من بالباب ؟

– أنا حسين يا عزيزة .

تعرف هى من صوته إن كان محششا أم لا . كما أنه فى أيامه التى لايحشش فيها ، يقول : «افتح يا حسن» فعيب أن يذكر اسمها بصوت مرتفع ، فيسمعه الجيران الذين مازالوا مستيقظين .

لم تكن ترتدى قميص نومها الشفاف . فالليلة الولد حسن ينام تحت السرير . وحسن ليس صغيرا . انه يفهم كل شئ الآن . ولو تزوج لأنجب .

أغلقت باب الشقة خلفه . باب حجرة سمير الحلاق مغلق عليه وعلى زوجته وأولاده . والحجرتان الأخريان لأم سمير وزوجها وأولادها الكثيرين ، والصالة مظلمة الآن .

وضع حسين يده العريضة فوق ظهرها . لم يجد لحما كما تعود . كانت المرأة ترتدى روبا يلفها لفا لم تستجب له . تركته يسير مترنحا . وقفزت قفزاتها المتعددة حتى وصلت إلى باب الحجرة . ففتحتها وتركت الباب مفتوحا ليدخل . قالت :

- أعد لك العشاء ؟

- لقد شبعت من أكل المزة .

وضع يده فوق كرشه البارز . قميصه خارج بنطلونه على غير العادة .

- اخلع ملابسك ، وسأحضر لك قفطانك .

ابتسم لها . مد ذراعه القوية نحوها . لكنها اخطأتها . فقد أسرعت عزيزة لتحضر قفطانه .

- ماذا بك يا امرأة . هل أنت مريضة ؟

- لا . لماذا ؟

- تنتظرينني دائما بقميص النوم .

نظرت أسفل السرير ، وعضت شفتها السفلى آسفة .

- ماذا بك ؟

- لا شئ . لقد تعبت . كان عندى خياطة كثيرة . ساعدتنى رشيدة زوجة سمير .

- قلت لك لا تقبلى خياطة كثيرة .

- لماذا يا حسين ، رزق ، نرفضه ؟!

- لكن ذلك الرزق يبعدك عنى .

مدت القفطان إليه :

- ألن ترضى عن حسن ابنك ؟

- لماذا تذكرينه الآن . هل حاول العودة ثانية ؟

- لا . لكن أخاف عليه .

- انه لا يتحمل المسئولية . وأريده قويا .

- بطردك له ؟!

- دعك من حسن الآن وهيا اخلعى عنك هذا الروب الثقيل .

- اننى متعبة يا حسين ، أرجوك .

عزيزة لا ترفض له طلبا ، فشلها مع زوجها السابق وإحساسها بأنها لا تنجب، يجعلانها طوع أمره فى كل شئ .

– إننى قلقة من أجل حسن .

– هذا وقت حسن . يا امرأة أنا عائد من لدى أصدقائى مبسوطا . ولا أريد أن تضيعى كل ما فعلته .

– أنت متعب يا حسين ، ارحم نفسك ، ونم الآن .

– اطمئنى من هذه الناحية . فأنا قادر .

امتدت يده فوق شعرها الأكرت . لم تمشطه له اليوم بالزيوت والفازولين حتى ينعم . لكنه لم يحس بالفرق . أمسك ياقة الروب الثقيل :

– كم أكره هذا الروب الذى يشبه البطانية .

– حسين . أرجوك .

شد رباط الروب ، كاد يمزقه . ظهر قميصها الأحمر المطرز والذى صنعته بمزاج .

رمى الروب وهو يصيح :

– أنت امرأة بلهاء .

– لماذا ؟

– كنت تخفضين صوتك خشية أن يسمعنا حسن وهو نائم فى الحجرة المجاورة . فما الذى يخيفك الآن وهو مطرود خارج البيت ؟!

– اخفض صوتك يا حسين أرجوك !

– بل سأصرخ وآخذ راحتى .

ذكر بعض ما حدث بين الزينة وأمها توحيدة

انكشف المستور ، وأصغت الآذان فى الحارة إلى الصوت الحاد المنطلق من بيت توحيدة . صوت ابنتها الزينة ، سمعه الأولاد الذين يلعبون بجوار البيت . بعضهم أدرك خطورة ما قالته . والبعض لم يفهم سوى أن الزينة تتشاجر مع أمها .

وسمع الجالسون على قهوة أبو دومة صوت الزينة . لكن لم يتبينوا ما قالته .

اقترب الشيخ صابر :

– أليس هذا صوت الزينة بنت توحيدة ؟

– نعم .

– مع من تتشاجر ؟

– مع أمها .

لم يصدق الشيخ صابر أول الأمر . فهو يعرف – والحارة كلها تعرف – ما فعلته توحيدة من أجل ابنتها ، كيف أنفقت الأموال الكثيرة من أجلها .

قال الشيخ صابر :

– هذه حال الدنيا . وتلك علامة من علامات الساعة : أن تقل البركة فى الأرض ، ويقل الحياء فى النساء ..

★★★

لكن بعض النسوة سمعن ما قالته الزينة بوضوح . حتى أن إحداهن خرجت من الشرفة ونظرت حولها لتتأكد إن كان غيرها قد سمع هذا أم لا .

★★★

جلست توحيدة فوق الكرسى «الفوتيه» الذى اشترته مع سائر الأثاث الثمين لابنتها الزينة .. وكان الحى كله يتحدث عن جودته وكثرته يوم زفافها . مع أن توحيدة مازالت تجلس مع ضيوفها على الكنب العربى بخشبه الأبيض غير المطلى .

تنظر توحيدة حولها حائرة :

- أجننت يا بنت ، حتى تقولى عن أملك ما قلته ؟!

البنت غاضبة ، لم تحس للآن بفداحة ما قالته . ولم تندم . يجب على توحيدة أن تعى هذا وتستعد له . فمادامت ابنتها هكذا . فقد تتمادى وتذكر ما هو أدهى وأمر .

- براحتك يا زينة .

ثم قامت لتعود إلى حجرة أخرى من حجرات شقتها ولم تحدث أمها .

بكت توحيدة وهى تهبط الدرج . تعلم أن صوت ابنتها كان حادا وعاليا ومتحديا . وأن العديد من نساء الحارة ، وربما فى الشارع العمومى أيضا . قد سمعنه بوضوح .

كادت توحيدة تقع على الدرج الذى صنعته من أجل الزينة . وبنت لها الشقة التى تعيش فيها الآن بعد أن عجز زوجها عوض عن دفع ايجار الشقة الواسعة ، والتى استأجرتها من أجلهما فى غيط العنب فور زواجهما .. دفعت توحيدة الإيجار لعدة أشهر . ثم راقت لها فكرة بناء شقة لهما فى الدور العلوى .

لكن البنت - مثل والدها - ناكرة للجميل . ولا ينفع معها المعروف ..

لتوحيدة عداوات أكثر من الهم على القلب . وهذه ليلتهن . سينقلن ما قالته الزينة عن أمها إلى أزواجهن .

وربما سيرتدين أقمصة نومهن الهفهافة . والتى لاتخرج من دواليبها إلا لمناسبة كهذه . سيحكين لأزواجهن : «البنت فضحت أمها . قالت إنها رأتها - وهى صغيرة - وأبو حسنى بائع الحلوى يقبلها» .

ألا تزال الحارة تذكر أبو حسنى هذا ؟!

لقد غاب عن الحى منذ أكثر من عشرين عاما . كما أن بقاءه فى الحى لم يزد عن شهور قليلة . وكأنه ما جاء إليه إلا ليفضحها .

كان هدف توحيدة مصلحة ابنتها ، أرادت أن تنتشلها وبيتها من الغرق .

– يا ابنتي زوجك عوض طيب . ويجب أن تحافظى على بيتك ، خاصة أنك ستنجبين منه خلال أيام قلائل .

أرادت الزينة أن تنفى عن نفسها تلك التهمة . لكن توحيدة واثقة مما تقول . لقد رأت سعد ينزل من شقتها ليلا ، بينما كان عوض فى ورديته المسائية بالشركة التى يعمل بها .

كلمة من الزينة ، وكلمة من أمها تطور الموضوع وثارت البنت وكشفت المستور لسنوات طويلة .

لقد دخلت البنت فجأة ، كانت تجرى حافية ومعفرة من الشارع العمومى ، والأطفال يتبعونها . أرادت أن تختبىء منهم فى الحجرة ، فإذا بالرجل أبو حسنى الذى دخل البيت لأخذ الماء ينحنى راغبا فى تقبيل توحيدة ، وهى تمانع ضاحكة متدللة .

جاء أبو حسنى إلى الحى فجأة . كان يرتدى قفطانا فوقه جاكيت كالح ومتآكل فوق الكوعين ، وطاقية من نفس نوع قماش القفطان .

وقف بعربته فى الشارع العمومى ، وابنه حسنى الصغير فوق العربة .

كان يصنع الحلوى من العسل والسكر . مسمار غليط معلق فى عمود ملتصق بأول العربة ، ووابور «يوش» فى باطنها ، لا يظهر منه سوى ناره المتوهجة . وإناء فوق النار وقطعة رخام ليصنع الحلوى فوقها .

والأطفال يتجمعون ، منتظرين الحلوى الطازجة . وقتها كان التفاح المصرى مازال فى دور التجارب ، حباته لا تزيد على حجم الليمون ، لا يستطيع الأطفال أكله لمرارته . لكن يمكن ذلك إذا علقت به حلوى السكر .

حضور أبو حسنى إلى الحى فجأة وتعلقه به ، أثار الجدل فى الحارة والحوارى المجاورة . فهو يأتى فى الصباح من بيت لا يعرفون مكانه ، ولا يعود إلا بعد أن تغرب الشمس ، ويذهب الأطفال إلى بيوتهم ولا يغير مكان عربته أبدا . يقف فى الشارع العمومى ، وجزء كبير من عربته موجه إلى حارة نعمان التى تسكنها توحيدة .

يقول البعض إنه قاهرى . فالقفطان وفوقه الجاكيت ، هو لبس ابناء القاهرة فى الأحياء الشعبية . وإنه ترك أهله وهرب بابنه إلى الاسكندرية بعدما فعل فعلته هناك . ويقول الآخرون إنه طلق زوجته – فى القاهرة – وترك لها البلد بحالها ، ونجا هو وابنه منها .

وتوحيدة وقتها كانت تعانى من شظف العيش . الرجل زوجها – سامحه الله – تركها دون قرش واحد . عانت الكثير . أخرجت ابنها سيد من مدرسته . واقترضت من الذى يسوى والذى لا يسوى . وأبو حسنى يأتى إلى البيت ليأخذ الماء ليشرب هو وابنه ، وليصنع حلواه . أو يأتى ليقضى حاجته فى البيت ، سألته :

– لماذا اخترت بيتنا ، مع أن هناك بيوتا أقرب إليك ؟

– «الرجل» تدب مطرح ما تحب .

وألح الرجل :

– يا بنت الناس . أنا بلا زوجة وأنت بلا زوج . تعالى لنجتمع معا على الخير .

كانت مرتبطة بزوجها وبابنها سيد وابنتها الزينة . كما أن الرجل لم يطلقها . تركها كالبيت الوقف . لا متزوجة ولا مطلقة .

تجرأت توحيدة مرة وسألت أبو حسنى قروشا سلفا . وأعطاها الرجل أكثر مما طلبت . ثم تكرر هذا منها . وتجرأ الرجل عليها . فبدأ بمد يده ، ثم حاول تقبيلها . لكن أبو سيد والزينة عاد بعد ذلك . ورحل أبو حسنى فجأة كما جاء . نسيته الحارة وأطفال الحارة . الذين كانوا يلتفون مع الذباب حول عربته ، صاروا شبابا الآن .

ونسيته توحيدة بعد ذلك . إلى أن جاءت ابنتها – ابنة صرتها ومصرانها – لتقول لها ما يفضحها فى الحارة كلها . بعد أن تغيرت توحيدة وأصبحت أكثر هدوءا ، وتكثر الجلوس فى المسجد وسماع وعظ الشيخ صابر قريبها .

لا تدرى توحيدة من الذى أخبر ابنها سيد بما حدث . فقد جاء إلى البيت ثائرا . صفع الزينة ، وقال لها أن تلتزم شقتها ، ولا تأتى إلى شقتهم أبدا .

سارت الزينة غاضبة ومتحدية.

البنت صارت عنيدة ، متجبرة ، لا تدرى توحيدة ما الذى غيرها هكذا . قالت لابنها :

– لماذا ضربت أختك وهى حامل وعلى وشك ولادة ؟

أمسك يدها :

– ما هى حكاية أبو حسنى معك ؟

– أجننت يا سيد ، تريد أن تفضحنى كما فعلت أختك ؟

جلس فوق السرير ، إنه مازال يذكر أبو حسنى . كان سيد يقف مع الأطفال حول عربته ، يشترون الحلوى والتفاح الأخضر ، لم يكن يدرك – وقتها – أن هذا الرجل ستكون له قصة مع أمه .

– أختك مجنونة يا سيد .

آه لو علم بالسبب الذى من أجله قالت الزينة ما قالته عن أمها . وأن صديقه سعد – المقرب إليه – يحاول أن يفسد حياة أخته مع زوجها ، وأن الزينة من شدة اقتناعها بسعد ، ترفض حتى مناقشة الموضوع .

لقد أثر فيها تأثيرا كبيرا . فما عادت تهتم بزوجها الذى يكد ويتعب من أجلها ، ولا يعلم سبب تغيرها المفاجىء ناحيته . وتواجه الآن أمها ، التى كانت ترتعد الزينة من حديثها ، ولا ترفض لها طلبا ، فتتحداها .

عندما قالت لها : «حافظى على زوجك من أجل مولودك الآتى» . قالت البنت فى عناد : «لولا أنه فى شهره الأخير لتخلصت منه» . حتى شقيقها سيد واجهته بعناد وتكبر .

– أين أجد أبو حسنى هذا ؟

– وماذا تريد منه ؟

- الحقيقة .

- يا ابنى ، ارحم نفسك . ما قالته الزينة كذب .

أشاح بيده وخرج إلى الحارة .

★★★

وجوه الجلوس فوق قهوة أبو دومة تتابعه . «أتراهم يعلمون بقصة أمه مع أبو حسنى هذا ؟!» .

اقترب من القهوة ، الزبالون يجلسون بملابسهم المتسخة ، يرتاحون من شقاء يوم عمل كامل ، يشربون الشاى ويدخنون المعسل ، ويقابلون عملاءهم : تجار أكواز الصفيح التى يجدونها بكثرة فى الزبالة ، تجمعها زوجاتهم فى بيوتهم ، ومن وقت لآخر يذهب ذلك التاجر مع عماله ويشترونها بالعدد : الطورة بكذا وتاجر الزجاج والعظم ، واسكندر تاجر الذهب والفضة بحقيبته الخشبية التى تشبه صندوقا صغيرا .. بمقبضها المعدنى ، يعطونه المعادن التى يجدونها فى الزبالة، فإن كانت صفراء ظنوها ذهبا ، وإن كانت بيضاء ظنوها فضة ، فيفحصها جيدا ، ويعيدها إليهم قائلا : فالصو .

من النادر عندما يجد قطعة ذهب أو فضة ، فيزنها بميزان دقيق يضعه فى حقيبته ويعطيهم الثمن .

يلتفون حوله كأنه حاو وهو يفحص المعادن ، ويمازحونه ، ينادونه «بالخواجة اسكندر» ، كعادتهم فى الحى بمناداة الأقباط بكلمة «خواجة» .

ويطوف اسكندر حوارى غربال مناديا :

- ذهب قديم للبيع ، فضة قديمة للبيع .

حتى الذهب والفضة فى غربال فيهما القديم والجديد .

★★★

دخل سيد القهوة دون أن يحيى أحدا . كان غاضبا ، لو لمسه أحدهم سيضربه على الفور .

يعرف مكان الشيخ صابر ، فى الأخدود الذى كان حجرة من حجرات البيت ،

فضمها أبو دومة لقهوته بعد أن عزل سكانها . فبدت الحجرة غير منسجمة أو متناسقة مع سائر القهوة .

جلس سيد فوق مقعده وحيدا ، فى المكان المخصص للمكتب الزينبى (١) الذى أسسه الشيخ صابر . اقترب أبو دومة منه ، سيد ليس من زبائنه ، ولا يأتى إلى قهوته قط . قال :

– أوامرك يا سيد .

– أريد الشيخ صابر .

– سيعود حتما إلى هنا ، فهو يدور يدور ويعود إلى مقره .

– سأنتظره .

★★★

مل سيد جلسته فى قهوة أبو دومة داخل الاخدود ، مقر المكتب الزينبى . كاد يخرج من القهوة غاضبا ، على أن يعود مرة أخرى للبحث عن الشيخ صابر . لكن صابر هل داخلا . يرتدى عباءته السوداء . ويلف رايته الخضراء فوق رأسه . وحوله أتباعه : شباب بلحى صغيرة ، أحدهم يمسك بسيف الشيخ داخل جرابه ، وآخر يمسكه من عصاه ذات المقبض الفضى .

قال أبو دومة :

– سيد بن توحيدة ينتظرك .

تركه الشاب الذى يمسك بالعصا . فسار هو الخطوات القليلة وحده ، وظل أتباعه فى انتظاره خارج مقر المكتب الزينبى ، وسط رواد القهوة الذين يلعبون الكوتشينة والطاولة .

– كيف حالك يا سيد ؟

– أراك تلبس «التشريفة» .

– كنا فى «ذكر» شربت شيئا ؟

– امتلأت .

---

(١) نسبة إلى السيدة زينب .

منذ أن أسس صابر مكتبه الزينبى وهو مرابط داخل قهوة أبو دومة ، مع أن شقيقه «أبو الترك» يمتلك قهوة على بعد أمتار من هنا ، وأقاربه النجعاوية يجلسون فيها ، لكن المكتب الزينبى لا يصلح إلا فى قهوة أبو دومة ، فهو كبير ، كما أن أكثر رواده من الزبالين الذين فى حاجة لحكمة الشيخ صابر ، وخدمات مكتبه الزينبى ، وذلك لصغر سنهم ولدأبهم على لعب الكوتشينة وسب الدين ، كما أنهم قريبون من الفتنة والمغريات التى تقابلهم فى عملهم : الخادمات المغريات ، والأشياء الكثيرة القابلة للسرقة التى يقابلونها دائما فى العمارات التى يدخلونها . فإن لم يعصمهم الدين ، سيضيعون .

حتى السيدات صاحبات الشقق ، والمتزوجات من رجال أغنياء وذوى نفوذ وجاه لا يخلون من فتنة لهؤلاء البؤساء . وما حدث لعبد النعيم ليس ببعيد .

العبرة بما حدث لعبد النعيم

فى الشهر الماضى دخل عبد النعيم العمارة الكبيرة التى تشبه الوكالة . فلها عدة منافذ ، وعدة مصاعد وسلالم .

يدخل عبد النعيم هذه العمارة منذ أن كان صبيا فى العاشرة أيام كان يعمل مع والده – رحمه الله – لكن هذه الأيام عقله (يودى ويجيب) ففيها امرأة شديدة الفتنة ، سبحان الخلاق . سكنت منذ شهور قليلة ترتدى دائماً الملابس العارية ، جننته .

عبد النعيم متزوج ولديه أطفال يحبهم ، ويشترى الحلوى لهم كلما عاد إلى بيته . لكن بعد أن رأى هذه المرأة زهد زوجته وأحس بمدى قبحها وبالمقلب الذى أخذه بزواجه منها .

فى اليوم الموعود ضغط عبد النعيم على جرس الباب كالعادة ، تمنى لو رآها ليتملى من رؤيتها فهى – أحيانا – تجعل خادمتها تعطيه صفيحة الزبالة .

خرجت المرأة بقميص عار .. هى تظن أن الزبالين ليسوا بشرا ، وأنهم لا يحسون ولا يتأثرون ، وأنهم لا يستحقون أن تخفى عنهم أنوثتها وفتنتها .

أخرجت صفيحة الزبالة ، وانحنت أمامه وهى تضعها فوق البلاط ، فكشف الانحناء عن ظهر ساقيها وعن تقاسيم جسدها الرائع ، فما كان من عبد النعيم إلا أن التصق بها من الخلف ، قبل أن تعتدل . نعم ، هى بملابسها وهو بملابسه .

صرخت المرأة وخرج زوجها وباقى الجيران ، فأوسعوه ضرباً . وسلموه إلى قسم الشرطة ، غير مكتفين بالضرب ودخل عبد النعيم السجن على شىء لا ينفع ولا يشفع . تقدر تقول لى ، ما الذى استفاده من التصاقه بها هكذا ؟!

★★★

قال سيد للشيخ صابر :

– أبحث عنك .

– ما الذى حدث ؟

دار سيد حوله حائرا . الزبالون – رواد القهوة – يجلسون فى الخارج والشيخ صابر يجلس وحده فى مقر المكتب الزينبى .

اتباعه الذين جاءوا من الذكر معه ، جلسوا فى الخارج تاركين له ولقريبه الحديث :

– اجلس .

– إننى قلق .

ابتسم الشيخ ورفع وجهه النحيل بلحيته المختلط بها السواد بالبياض :

– أطلب لك شايا ؟

– لا . أريد أن أعرف حكاية أبو حسنى .

– من أبو حسنى هذا ؟

– بائع الحلوى .

– لا أعرف بائع حلوى بهذا الاسم .

– الذى كان يقف قريبا من هذه القهوة بعربته .

شرد الشيخ قليلا ثم صاح :

– آه . القاهرى ؟!

– ومن أدراك أنه قاهرى ؟

– هكذا قالوا عندما جاء .

شرد سيد للحظات . وسأله صابر :

– وماذا تريد منه وقد غادر الحى منذ زمن بعيد . هل تذكرت أنك لم تأخذ منه الباقى منذ أن كنت طفلا ؟!

– أتمزح ؟

– تسألنى عن رجل غادر الحى منذ أكثر من عشرين عاما ؟

جاء أبو دومة بالشاى ، ثم عاد إلى النصبة . وصار صابر وسيد وحدهما :

– شاهدت الزينة أختى بائع الحلوى وهو يقبل أمى .

– منذ أكثر من عشرين عاما ؟!

– نعم .

– تفضحها هي بوقاحتها . وتردد أنت قولها بغباء .

– أريد القصاص من ذلك الرجل .

– وماذا تريد منى ؟

– المعونة للوصول إلى ذلك .

– بمكتبى الزينبى ؟

– لا . بقوتك التى صرعت بها العبد الأسود .

لعنة الله عليك وعلى توحيدة أمك ، وعلى أختك التى أزاحت الغطاء عن ذلك المستنقع القذر .. مالى أنا ومال هذه السيرة اللعينة ؟!

إننى برىء منها منذ أن هدانى الله إلى الطريق المستقيم . وأسست مكتبى هذا . تلك أيام جاهليتى وطيشى ، والذى يذكرنى بها هو عدوى .

– لقد حذرتك من الخوض فى موضوع كهذا .

– لماذا ؟ والحى كله مازال يذكره لك .

– اشرب شايك وانصرف . ودعك من فضح أمك بغبائك .

العبد الأسود

يريد الشيخ صابر أن ينسى ذلك العبد الأسود ، سوءته فى هذه الدنيا . تفاحة آدم التى أكلها فعصى بها ربه . وقتها لم يكن متدينا ، لم يكن قد صلى ركعة واحدة لله . كان يخلط الزيت بالجاز ويضعه فى إناء ، وبعصا رفيعة طويلة فى آخرها فرشاة ، يطلى بها مجارى الأبواب الصاج التى كثرت فى هذه الأيام ، نظير قرش أو نصف قرش .

رغم أنه لم يكن قد أسس مكتبه الزينبى وقتذاك إلا أنه كان يأتى أشياء غريبة. كانت مقدمة لتحوله ذلك التحول الكبير . فكان يشرد فى المساء . ويردد كلمات لا يدرى من أى مكان تأتيه . فهو لم يسمعها من قبل . ولم يقرأها ، لكن هاتفا يأتيه بها فيرددها .

عندما أنشأ مكتبه الزينبى . وسمع كلمات الوعاظ فى المساجد . وجد فيها تلك الكلمات التى كانت تأتيه مساء فيرددها أمام إخوته (أبو الحمد وأبو الترك وزغلول) فكانوا يضحكون وتخفى فريدة - زوجة أبى الحمد - وجهها بوشاحها الأسود . حتى لا يكتشف صابر ضحكها منه فيغضب منها .

قبل أن يؤسس مكتبه الزينبى كان البعض ينادونه «بالشيخ صابر» . وتحوله إلى شيخ طريقة وصاحب مكتب أمر منطقى وطبيعى بالنسبة لأحوال عائلته عائلة النجعاوى .

فأبو الحمد - الأخ الأكبر - يعمل فى البلدية . أنجبت له فريدة البنات الكثيرات . ليس فيهن ولد واحد .. فقنع الرجل بنصيبه . وجرى على لقمتهن . ما له هو والشجار الدائم الذى يدور فى الحار أو الحوارى المجاورة .

بعد انتهاء الشجار يقوم بدور المصلح بين المتشاجرين .

أما أبو الترك فقد استأجر الدكان الصغير فى الشارع العمومى المواجه للحارة وحوله إلى قهوة .

فالنجعاوية - أقاربه - كثروا فى الحى . لم يكتفوا بحارة النجعاوى . بل انتشروا فى الشارع العمومى وحارات غربال . وتشتتوا فى المقاهى . بعضهم

يجلس على قهوة رمضان . وبعضهم يجلس على قهوة أبو دومة . جمعهم أبو الترك في مكان واحد .

الدكان الذى يتخذه أبو الترك قهوة صغير لا يتسع للقليل . فجلسوا متراصين متلاصقين أمام الدكان وحوله . ومقاعد خوص ودكك . الواحدة تتسع لخمسة مرة واحدة . وأبو الترك – مثل أبو الحمد – ليس له حظ فى الشجار . وهذا ليس عن حكمة أو اقتناع . إنما لأن جسده لا يساعده على ذلك . فالأفيون هده ومصه .. فلا تفارقه الافيونة حتى وهو يحمل صينية الشاى ويسير بها . فيضعها تحت لسانه ويمصها بفمه .

الأفيون رخيص . كما أنه ليس ببعيد . فزغلول – الأخ الأصغر – يتاجر فيه . بل يرجع إليه الفضل فى نشر هذه التجارة فى حارة النجعاوى وفى المنطقة المجاورة لها . وليس من المعقول أن يشترى أبو الترك من أخيه الاصغر . ولو باع له أحد صبيان أخيه . فسيعملون خاطرا لمعلمهم ويبيعون لشقيقه بسعر أقل .

أما زغلول فغنى عن التعريف والبيان .. وسامة وشباب وأناقة وعقل . يتحدث بعد ترو وتفكير . يمتلك محلا فى الشارع العمومى . يبيع فيه الحلوى والخردوات والمشروبات العادية ، فالخمور لا تدخل دكانه . ولا يطيق سيرتها فهى حرام .

كل تجار المخدرات فى غربال يشهدون له «بالمعلمة» ويدينون له بالفضل . ويقفون له عندما يهل عليهم بقفطانه الأبيض . وبشرته السمراء وشعر رأسه الأسود العارى والشارب المصفوف بعناية .

فهو لم يضبط متلبسا ببيع المخدرات مرة واحدة . رغم طوال ممارسته لذلك . فى كل مرة يداهمون فيها بيته أو دكانه . لا يجدون شيئا . حقيقة هم يضربونه بوحشية فى مكتب مكافحة المخدرات . لكنه يعود – دائما – بعد ساعات ، أو بالكثير فى اليوم التالى .

كما أن زغلول يختص بخاصية لا يشاركه فيها أحد من تجار المخدرات - على مستوى غربال كلها - وهى أن البوليس لم يضربه أمام أهله قط . يأخذونه بكل احترام داخل البوكس فورد . وهناك يقومون باللازم . فزغلول له معجبوه من الرجال الكبار والشباب والنساء . ولو فعل الضابط معه مثلما يفعل مع باقى تجار المخدرات ، لن يخرج سالما من غربال .

يمثل أبو الحمد وأبو الترك وزغلول نوعيات مختلفة من الرجال . لكل واحد منهم شخصيته المستقلة .

فكان لابد أن يكون صابر نوعا آخر غيرهم . وربما أرسل الله ذلك العبد الأسود ، لكى يظهر دور صابر ويتبلور وتتحدد هويته . وتصبح مكانته فوق زغلول وأبو الترك . وربما فوق أبو الحمد نفسه ، مؤسس أسرة النجعاوى فى الاسكندرية .

كيف تكونت غربال ؟

السكان كانوا قلة . أراض زراعية مهملة ، وبواقي سواقي كانت تدور وتملأ الأرض بمائها . ورجل غني يمتلك الأرض ، أراد أن يحولها إلى أراض سكنية . فباعها مقسمة .

الأرض رخيصة . المتر بأربعة صاغ . ويصبر على المشترين في السداد . والصعايدة تضيق بهم الأرض في بلادهم خاصة في قرية (أ) التي خرج منها شيخ الإسلام وابنه الوزير . فإذا ما غضب الحاكم أو الملك على واحد منهما ، اتخذ موقفا من القرية وأهلها : يعاندونهم في كل شيء . يشحنون شبابهم إلى الجيش ، بصرف النظر عن السن أو اللياقة البدنية . حتى موتاهم يتركونهم باليوم والاثنين عرضة للتعفن دون أمر دفن .. فهرب الناس منها إلى المدن ، يحلمون بلبس القميص والبنطلون ، والاتجار في كل شيء .

استقبلتهم غربال بأرضها الرخيصة . بجنيهات قليلة يمتلكون الأرض . والبناء سهل . وإذا ما تعذر البناء ، يقيمون فوق الأرض أكواخا من صفيح .

لكن بعد مسافة ليست بالقصيرة توجد منطقة قريبة من شارع محسن باشا والاسكندراني . بيوتها بيوت حقيقية عالية ، يصل بعضها لخامس دور ، وسادس دور . من هذه المنطقة ، ومن شارع شجرة الدر بالذات ، جاء ذلك العبد الأسود حاملا سيفه . ومرتديا قماشته الخضراء حول وسطه ، وحوله العديد من الشبان السود الذين يحملون المطاوي والخناجر والشوم .

قبل أن يجيء بقليل نهقت حمير الزبالين المربوطة في عربات الزبالة أمام بيوتهم . وحاولت الافلات من الحبال ، واستطاع بعضها - بالفعل - أن يقطع الحبل ويهرب . ثم دارت حول الحارة حائرة ، غير قادرة على الخروج إلى الشارع العمومي الذي يسير فيه العبد الاسود . ونبحت كلاب الحي جميعا . مما جعل كل الناس يدهشون لما حدث .

لاحظوا أن هذه الحالة تنتاب الحمير والكلاب دائما قبل هجوم ذلك العبد الأسود على غربال .

دخل العبد الأسود وسط غربال وخلفه أتباعه . كانوا أقل حجما منه بكثير . منظره مروع ، جسد عملاق .. تصل قامته لحافة النوافذ والشرفات ، وصلعته كبيرة تشبه القبة . بها ندوب غائرة لآثار جروح قديمة .. وشفتان كبيرتان ، وعينان تطقان شررا .

الكل خاف منه ، خاصة أنهم قد وفدوا حديثا من قرية (أ) بالصعيد المليئة بالعفاريت .

رمى العبد الأسود عربات الخضار والفاكهة . وضرب رجاله الحمير التى لم تستطع الافلات من حبالها ودفعوا الأبواب المغلقة فى استخفاف . والعبد الاسود – العملاق – يسير مترنحا من أثر البوظة التى يعبها قبل كل مرة يأتى فيها . وأخذ نقودا كثيرة من الباعة ، حتى لا يقلب عرباتهم . وسار بموكبه الرهيب حتى آخر الجبل . ومن هناك عرج إلى شارع راغب باشا . وعاد إلى مكانه من شارع شجرة الدر عن طريق المحمودية .

يا للعار ، قطع غربال من أولها إلى آخرها دون أن يجرؤ مخلوق واحد على اعتراضه .

أخفت النسوة أولادهن فى البيوت مرددات :

– (بسم الله الرحمن الرحيم)

فلا يستطيع الهجوم على غربال بهذا الشكل سوى (بسم الله الرحمن الرحيم) .

فى اليوم التالى كان الحديث منصبا على العبد الاسود الذى يحرق البيوت من حدة النار التى تطق من عينيه كالشرار ، والذى حمل ذكور الحمير فوق إناثها راغبا فى أن تتم المضاجعة أمامه ، وأن بعضها قد استجاب له وامتثل خوفا منه ورهبة . وكان هو وأتباعه يشاهدون هذا ضاحكين ، مقهقهين حتى أن ضحكاتهم هزت بيوت غربال الواهنة الضعيفة ، وبسيفه البتار كاد يقتل كل من فى غربال .

بعض العمال الزبالين – الذين يبدأ عملهم عند الفجر – خافوا من السير فى الظلام ، فتخلفوا عن الذهاب إلى عملهم .

وحكى الأطفال حكايات غريبة عن ذلك المخلوق الغريب الذى ظهر فى صورة إنسان أسود كعملاق عيناه حمراوان .

واهتم صابر – مثل غيره – بذلك العبد . وخاف من سيرته واستعاذ بالله عدة مرات من لقائه . داعيا الله بألا يعثر به ، حتى لا يقلب زيته وجازه فوق رأسه . أو يضربه بعصاه الرفيعة الطويلة التى يطلى بها مجارى الأبواب الصاج .

لقد شاهد صابر العفاريت كثيرا فى قريته ، قبل أن ينتقل إلى الاسكندرية . شاهد النخل الذى يسير نحوه ، وقت أن كان يحرس الأرض هناك . وكان ينام على بطنه ليسهل قيامه إذا ما هاجمه اللصوص فالنوم على الظهر يجعل القيام صعبا . لكن العفاريت لا يهمها النوم على الظهر أو البطن .

كان يشعل النار ويهاجم النخل المتحرك ، فيتباعد .

قال زغلول شقيقه بهدوئه القاتل :

– أنا لا أصدق ما تقولونه ، إننا نعيش فى عمار . وليس للعفاريت مكان فى الاسكندرية . وذلك العبد الأسود ما هو سوى إنسان استخف بكم ، واستغل سذاجتكم .

كان زغلول مدفوعا بما يقرؤه فى الجريدة التى يشتريها كل صباح ، ويجلس أمام دكانه واضعا ساقا فوق ساق ليقرأها .

ناقشه البعض :

– لو كان إنسانا حقا ، فكيف تصل قامته لحافة النوافذ والشرفات ، وكيف تخرج النار من عينيه . ؟

أصر زغلول على رأيه . وأصر الباقون على رأيهم . إلى أن حدث ما حدث من قبل . فقد نهقت الحمير معلنة العصيان ، مادام أصحابها لم يحموها من ذلك العبد الأسود فى المرة السابقة .

ونبحت الكلاب ايذانا بوقوع المصيبة . وأسرعت بعض النسوة فى لم أولادهن

من الحوارى وحبسهم . ونادت الأخريات فى هلع :

- اطلع يا ولد . العبد الأسود زمانه جاى .

ويدخل العبد من ناحية شارع «المهدى العباسى» يلوح بسيفه الذى بيده . ورايته الخضراء فوق جسده ، ورجاله تحته ، بعضهم عرايا ، أجسادهم تلمع وتنز عرقا ، يلوحون بعصيهم وخناجرهم .

وصلوا إلى وسط الشارع أمام الحارة التى تسكنها توحيدة الآن ، وأمام قهوة أبو دومة فى الشارع العمومى رفع العبد الأسود سيفه ليخيف الجالسين فوق القهوة . ثم رطن بلغة لم يكن الشيخ صابر يعرفها وقتذاك ، لكنه الآن بعد أن من الله عليه بعلمه يعرف كل شىء ، حتى المستور والذى يخفى عن الناس . أسرع البعض هاربا إلى مدخل القهوة والبعض الآخر لم يمنعه من التحرك سوى كبريائه وخشيته من أن يتهم بالجبن فى الحى .

أبو دومة - نفسه - ندب حظه داخل قهوته ، لأن عقله الزنخ لم يلهمه بغلق القهوة قبل وصول ذلك العبد الأسود . وقد أحس بقدومه حتى قبل أن يصل إلى أول الشارع العمومى .

صاح العبد الأسود بلغته غير المفهومة لهم . لكنهم أدركوا مقصده . بأن يقوموا من أماكنهم .

اقترب الشيخ صابر منه ، تفحصه جيدا . شاهد أغوار عينيه عن قرب . هما حقيقة مليئتان بالتحدى ، ولونهما أكثر احمرارا ، لكن معظم السود لهم عيون حمراء مثله .

قبل أن يصل الشيخ صابر إليه . نغزه العبد بالسيف فى كتفه . وحاول رجل من أتباعه أن يبعد صابر عنه .. فعل هذا باستخفاف ، مما أغاظ صابر . وجعله يدفعه بعيدا عنه . لم يكن صابر يريد أن يشاجره ، ولا أن يعاتبه لما فعله بغربال وأهله . كل ما كان يفكر فيه وقتها أن يتفحصه جيدا .

حاول العبد أن يهوى بسيفه فوق جسد صابر . لكنه كان أسرع . فهوى السيف فوق مائدة من موائد أبو دومة فحطمها . وأمسك صابر بمقعد ليجمى

نفسه به . فالتف مساعدو العبد الأسود حوله . لكن العبد أشار إليهم بأن يبتعدوا . فلابد أن يقتله بنفسه .

التف أهالي غربال حولهما . ومساعدو العبد الاسود يتراجعون . وقفوا أمام أهل الحي .

وامسك صابر بمقعد محاولا ضرب العبد . بينما لوح العبد بسيفه .

العبد كان ثقيلا . كما أن البوظة التي عب منها كثيرا هذه الليلة ، لم تجعله متزنا . لهذا ، طاشت ضربات سيفه . بينما ضربات الشيخ صابر أصابته في جانبه .

تقدم الأهالي قليلا . وتداخل مساعدو العبد الأسود وسط الناس فهم أول مرة يرون إنسانا يتحدى معلمهم وينازله .

اتسعت الدائرة ، فالكل يتباعد خشية أن يصيبه سيف العبد الأسود القوى والطائش . أو مقاعد صابر المتناثرة وانطلقت الصرخات والعويل من النساء . فالشيخ صابر ميت لا محالة . ما لهم ومال غربال وعفاريتها ، كانوا في قرية (أ) بعيدين عن هذا كله . حتى عفاريتهم هناك كانت أقل قسوة ، كل ما تفعله أن تخيف امرأة أو رجلا يسير بمفرده ، كانت العفاريت تمازحهم دون أن تؤذيهم .

صابر هده الجرى والهروب من هجمات العبد الأسود المتلاحقة وخارت هواه .

يداه لم تقدرا على حمل المقاعد . لو سألوه وقتها لأقسم بأن ذلك ليس إنسانا . بل هو عبد بن عبد ، ومن جنس آخر غير البنى آدمين . وكل ما يقوله زغلول شقيقه هراء وادعاء ، ومحاولة منه لأن يظهر في صورة المثقف الواعي .

تعثر صابر فوقع قريبا من الناس المتجمهرين . والعبد برقت عيناه . فمه الواسع كشف عن كهف عميق وأسنان تشبه أسنان الحمير من كبرها . لكنها تبدو أكثر بياضا . ربما من تأثير اللون الأسود حولها .

وصرخت النساء وتباعد الرجال . فربما يستطيع صابر أن يهرب منه ويدخل وسط الجموع . حينذاك سيصعب على العبد قتله . لكن يد العبد كانت قوية فهوى بها بسيفه . والشيخ صابر أيقن بأنه ميت لا محالة .

قفز من مكانه ، لا يدرى كيف استطاع أن يقفز وجسده كله قد مات من الخوف والذعر . والسيف رشق فى الأرض الترابية اليابسة .

قبل أن يشد العبد الأسود سيفه ، كان الشيخ صابر قد غزه بخنجره .

لا يدرى صابر حقيقة ما حدث هل قصد القلب حقا . أم أن الخنجر قد عرف طريق القلب فنفذ إليه لينقذه من ذلك العملاق العجيب .

لو أخطأ الخنجر مكان القلب لكان صابر ميتا الآن . فالعبد الأسود كان سيطيح بكل شىء . فليس أشد من حيوان جريح . فربما يهد البيوت جميعا .

زأر العبد أو زمجر ، أو ارتعد . المهم أنه هوى كجبل يتفجر . أخذ يخور والناس حوله مندهشة . الخنجر مازال مرشوقا فوق صدره العالى . وعيناه تفحان نارا . وشفتاه العظيمتان انفرجتا حتى كشفتا عن بئر عميقة واسعة .

الشيخ صابر مازال مذهولا . لم يهرب . والناس أفاقت من سباتها بعد وقت ليس بالقصير . فوجدوا أتباع العبد الأسود وسطهم يرتعدون خوفا . ويحاولون الهروب . فانهالوا عليهم ضربا ، حتى دفعوهم وسط الساحة (مكان منازلة العبد الأسود وصابر) .

الأتباع يحاولون الهرب . والناس تمنعهم ، يضربونهم فى وحشية ، عذاب الأيام الماضية كله مثل أمام أعينهم الآن . يريدون أن يستخلصوه منهم . بعضهم كان يقفز ويعض آذان الاتباع .

أفاق الشيخ صابر . كأن ما مر أمامه بعد موت العبد الأسود لم يره أو يحسه . أسرع إلى الأتباع وصاح :

– أتركوهم . أتركوهم .

الناس لا تريد . مما اضطره لأن ينام فوق بعضهم صائحا :

– اضربونى أنا لو أرتدتم .

ابتعد الناس عنهم وهم يلهثون . لولاه لقتلوا جميها مع معلمهم .

دفع صابر الأتباع . والدم ينزف من وجوههم وأجسادهم . أسرعوا إلى الطريق يعدون . لم يتوقفوا عن العدو إلا فى شارع شجرة الدر شارعهم .

جاء زغلول الأخ الأصغر لصابر . هو أدرى منه بمعاملة الشرطة . قال :

– اهرب يا صابر . البوليس سيأتى بعد لحظات .

لكن صابر خلع عن العبد رايته الخضراء المثقوبة بخنجره ، والملطخة بالدماء ، ولفها حول رأسه . وانحنى وأمسك بالسيف المرشوق فى الأرض الترابية اليابسة . ودار به كأنه جن .

مازالت الراية معه ، وكذلك السيف . يشهره إذا ما خرج إلى اتباعه ، أو فى الاحتفالات الدينية التى يقيمها المكتب الزينبى .

★★★

عندما جاءت الشرطة قبضت على العديد من رجال الحى ، منهم صابر وزغلول .

اعترف صابر بأنه القاتل . لكن الضابط صفعه فى عنف ، وصاح فيه غاضبا :

– تريد أن تنقذ أخوك زغلول .

– كل الحى يشهد بذلك .

– أنت الأبله الضعيف ، تقتل عبدا بهذه القوة ؟!

ولبس زغلول التهمة ، ودخل السجن من أجلها ..

يقولون إن الحكومة – بعد أن ضاقت بزغلول فى فشلها فى القبض عليه متلبسا بتجارة المخدرات – وجدت فى قتل العبد الأسود فرصتها للتخلص منه وايذائه .

ويقول البعض إن تصرف صابر الذى يشبه الجنون والبله أمام الضابط ، هو الذى جعله يكذب قتله لذلك العبد العملاق ، كما أن صابر كان ضامرا ضعيفا .

وسجن زغلول رغم محاولة صابر لأن يسجن بدلا منه ، فزغلول لديه زوجة وينفق على بيوت كثيرة فى غربال .. بينما صابر تتساوى معه المعيشة فى السجن، أو خارجه ، كلها لقمة والسلام .

سيد يجد حلا

يتحرك الدجاج أمام عينى حسن بن عزيزة . لكنه لا يهتم به . فقد اغتنى هو ورفيقاه سيد وسعد .

توحيدة منذ أن أشاعت ابنتها الزينة عن رؤيتها لأبو حسنى وهو يقبلها ، وهى تعطى لابنها المال دون حساب ودون أن يطلبه . وتلح عليه فى ذلك وهو يتثاقل . ووصل بها الأمر أن وضعت النقود فى ملابسه دون أن يراها . فيفاجأ بها فى سترته وهو سائر مع صديقيه فى محطة الرمل أو أى مكان آخر .

لكن سيد يشرد الآن كثيرا . لم يعد يطلق ضحكاته العالية . وكلما حاول صديقاه أن يخرجاه عما هو فيه ، يفشلان .

لقد بدأت الدراسة . وعاد والد سعد يعطيه مصروفه . وحسين تعطيه عزيزة المال دون علم والده .

حكى حسن لهما عما حدث وقت أن كان نائما تحت السرير ، وحسن والده يرغب فى عزيزة .

ضحك سعد حتى دمعت عيناه . وسيد ابتسم فى تثاقل . ثم عاد لحزنه . قال حسن لهما :

– سألتنى عزيزة فى الصباح . «ولد يا حسن . أحسست بوالدك عندما عاد مساء» . قلت لها :

– لم أحس به . من شدة تعبى نمت حتى الصباح .

يعطى سيد لسعد كل ما معه من نقود . ليتولى الإنفاق . فسيد زاهد فى المال. ولولا حاجة سعد وحسن إليه ما أخذ مليما من أمه .

قال سعد :

– تعاليا نلعب كوتشينة فى قهوة الملك .

لم يبد سيد اعتراضا . فهو يريد أن يبتعد عن غربال فى هذه الأيام . لكن تغيبه عن الجيش زاد عن حده .

وبدأ يخشى العقوبة . فهو علاقته بزملاء الجيش جيدة . ويدارون عليه ، لكن

تغيبه الطويل هذا سيضطرهم لأن يبلغوا عنه .

ساروا إلى الجبل ، فى طريقهم إلى قهوة «الملك» .

★★★

أمسك سيد بالكوتشينة ، وأراد أن «يفنطها» كما كان يفعل . لكنه لم يستطع. أخذها سعد منه . حسن أمامهما يتابع اللعب . ويذيب السكر فى أكواب الشاى بالملعقة .

يرمى سيد الورق بتباطؤ ، وفى كسل شديد .

قال سيد :

– مللت الجلوس

أجابه سعد :

– سرعان ما تمل الأشياء الآن . ماذا بك ؟

قال حسن :

– يجب أن تنسى ما حدث ، وتعامل أمك وأختك وكأن شيئا لم يحدث .

– كيف ؟

أمسك سيد الكوتشينة بأصابعه ، ضغط عليها بقوة :

– تغيبت عن الجيش من أجل البنت السوداء ، والآن لا أعمل شيئا سوى التفكير .

قال سعد مندفعا :

– تغيبك الآن من أجل أمر جاد ، فالبحث عن الحقيقة ليس سهلا .

صاح حسن :

– أية حقيقة . الأمر كله هراء .

قال سعد :

– لابد أن يحس بك قادتك . فليس من المعقول أن تحاسب على شىء ليس لك يد فيه .

تحمس سيد للفكرة .

– نعم لو علموا بما حدث لى فسيعذروننى .

قال سعد :

– ولماذا لا تخبرهم ؟!

قال حسن فى ضيق :

– يخبرهم فى الجيش بما حدث ، تريد أن توسع الفضيحة ؟

قال سعد :

– أية فضيحة . من فى الجيش يعرف أمه أو أهله ؟

فقال سيد وكأنه لم يسمع كلمة من حسن :

– ماذا سأقول لهم ؟

– أكتب إليهم رسالة . أذكر فيها ما حدث . وقل إنك تقوم بعمل مقدس . نعم . أليس الدفاع عن العرض مقدسا ؟

قال حسن :

– لو كتب أن ما حدث كان منذ أكثر من عشرين عاما ، سيحولونه إلى مستشفى المجانين .

قال سعد :

– يقول إن أخته رأتها منذ أيام .

– لكن أمه عجوز الآن . كما أن أبو حسنى بائع الحلوى لا يعرف مكانه أحد .

قال سعد :

– الولد حسن محق هذه المرة فى قوله .

رمى سيد ورق الكوتشينة فوق المائدة . فقد أحس أن الأمر تعقد ولن يجد حلا لتبرير تغيبه عن الجيش . لكن سعد صاح فرحا :

– ماذا لو كتبت إليهم ، مدعيا أنك تدافع عن شرف أختك . فهى مناسبة الآن .

صاح حسن :

– لا شك أنك جننت . المفروض أن يلم الموضوع . لا أن يوسعه .

لكن سيد ترك ورق اللعب ، وقد عاوده الأمل من جديد :

– نعم ، هذا هو الحل .

– تكتب اليهم أن تغيبك من أول يوم كان بسبب انحراف أختك ، وأنك لن تعود إلا بعد أن تسوى الموضوع .

– وهل هم من السذاجة حتى يصدقوا كذبة كهذه ؟

قال سعد وهو يدفع حسن في صدره .

– إنك لا تعرف مثل هذه الأشياء . مازلت صغيرا . القادة في الجيش لا يعنيهم الأمر في شيء . جندي يدعى أن تغيبه من أجل مشكلة أخته ، فيؤشرون على الورق «يحتسب الغياب إجازة» .

قال سيد :

– لكن كلمة «لن أعود قبل تسوية الموضوع» ، ليست كافية . لابد أن أكتب «لن أعود قبل أن أغسل عاري» مارأيك ؟ ، كلمة رنانة ستؤثر حتما على القادة هناك .

صاح سعد مؤيدا :

– لا شك . خذ يا حسن . اشتر لنا ورقة وظرف جواب .

★★★

يذهب الزبالون إلى عملهم بعد الفجر بقليل . فتضطر نساؤهم إلى الاستيقاظ معهم لإعداد الافطار .. ولمساعدتهم في انزال عدة الشغل (من قفف وأجولة .. الخ) من الشقق إلى عربات الزبالة . وبعد أن تنطلق العربات . تنام النسوة ثانية إلى ما قبل الظهر بقليل .

لكن في ذلك اليوم هبت الحارة حوالى السابعة صباحا وكأن القيامة قامت .

بدأت الحملة بعربة بوكس فورد ، ترددت قليلا أمام حارة «نعمان» . ثم دخلت بثقة . وقفت فى أول الحارة وانحرفت يسارا لتسمح لعربات بوكس فورد أخرى بالدخول .

أحاطوا ببيت توحيدة . وقفز الجنود برشاشاتهم وأسرع المخبرون إلى داخل البيت . . ثم دخلت عربة ملاكى أنيقة يقودها شاب يرتدى بذلة سوداء ، وهبط منها ثلاثة رجال يتحركون فى بطء شديد ، ويلبسون نظارات شمس ، رغم أن الشمس لم تحم بعد .

نظر أحدهم إلى الحارة فى تأفف . وأمسك سيجارا وشد نفسا منه فى عصبية. أما الآخران فتحدثا وأشارا إلى بيت توحيدة .

خرج المخبرون من البيت . حيوا الرجال الثلاثة فى احترام شديد . وقال رئيسهم :

– لم نجده بالداخل .

قالت امرأة فى النافذة المطلة على بيت توحيدة .

– إنهم يبحثون عن سيد . فهو متغيب عن الجيش .

أهل الحارة يعلمون أنهم لا يأتون للمتغيبين عن الجيش بكل هذه القوة . بل الحملة لا تزيد عادة عن ثلاثة أو أربعة بالكثير (ضابط وجنديين أو ثلاثة) .

أول الأمر ظن الزبالون الموجودون فى الحارة وقتذاك ، أنهم جاءوا لمطاردتهم فى أماكن سكنهم . لم يكتفوا بمطاردتهم بطوربيلهم فى أماكن عملهم . حيث يأخذون القفف والأجولة وباقى المتعلقات . لذلك أسرع الزبالون بالاختباء داخل القهوة المواجهة للحارة . وتباحثوا داخلها . فذلك تكتيك جديد لم يعتدوه منهم . فهم يهاجمونهم فى مقر سكنهم (غربال) لأول مرة .

وأفتى أحدهم . بأن الحكومة تنوى أى تعيدهم إلى قريتهم بالصعيد . بعد أن ملت مطاردتهم بطوربيلها وبعد أن ضاقت بزبالتهم التى يرمونها فى الشوارع ، وحميرهم التى تملأ شوارع الاسكندرية بالروث ، وعمالهم الذين يجمعون أعقاب السجائر ، ويسرقون الأشياء من العمارات التى يدخلونها .

قال الرجل ذو السيجار الغليظ (ويبدو أنه رئيسهم) .

- أين أمه ، أو والده ؟

أسرع ضابط شاب يرتدى الملابس الرسمية داخل البيت ، وخلفه جنديان بالرشاشات ، وعادوا وتوحيدة تسير أمامهم مشدودة القامة . قال الرجل ذو السيجار الغليظ :

- أين ابنك سيد ؟

- لم ينم ليلة أمس فى البيت .

تحدث مع زميليه فى صوت خافت . لم تسمع توحيدة منه شيئاً . ثم ساروا بعيداً . اقتربوا من البيت المواجه لبيت توحيدة . ثم عادوا ثانية . قال أحدهم :

- أين ابنتك ؟

- أيهما ، لدى ابنتان (نانا والزينة) .

ضحك ثالثهم :

- نرى نانا .

تجمع الأطفال من الحارات الثلاث ومن الشارع العمومى .

جاءت توحيدة ومعها نانا : فتاة سمراء ، نحيفة فى حوالى الخامسة عشرة ، ترتدى ملابس متسخة . وجسدها كله متسخ . خاصة قدميها اللتين لا تتعاملان مع الحذاء إلا فى الأعياد ، أو عندما تذهب إلى حفل . بكت البنت عندما رأت الجنود والضباط والعربات الأربع . قال الرجل ذو السيجار الغليظ بلغة آمرة :

- تعالى يابنت .

ارتعدت نانا وأسرعت إلى الحارة ، جرت باكية ، ومخبر يجرى خلفها دون أن يأمره أحد بذلك.

قال أحد الثلاثة ، وهو دائم الابتسام منذ أن دخل الحارة :

- لكن هذه البنت لا تصلح لشىء .

- نعم . ليس من المعقول أن تكون هى المعنية .

أمسك المخبر بالبنت المنهارة ، وتوحيدة متماسكة . فلابد أن تظهر فى هذه

الصورة أمام أهل الحى. قال الرجل ذو السيجار الغليظ :

– لماذا تجرين هكذا ، ما اسمك ؟

– نانا يا بك .

قال الرجل الآخر :

– اذهبى يا نانا إلى البيت ولا تخافى من شىء .

بدا واضحا تأفف الثلاثة منها .

أما رواد قهوة أبو دومة فقد وقفوا بجوار النصبة حتى يروا ما يحدث دون أن يلمحهم أحد من رجال الشرطة ، قال أحدهم :

– الولد سيد سرق بنك . فهم لا يأتون بهذه الكثرة إلا لسرقة بنك .

قال الرجل ذو السيجار الغليظ لتوحيدة .

– أين ابنتك الثانية ؟

– لماذا يا بك ؟

صاح أحدهم غاضباً :

– أجيبى على حضرة الباشا كما سألك .

ارتعدت توحيدة ، وزاحمتها الدموع فى عينيها ، لكنها احتبستها فى قسوة :

– الأخرى ولدت بالأمس .

– فى المستشفى ؟

– لا . فى شقتها ؟

وأشارت إلى النافذة فى شقة الزينة .

– أريد مقابلتها .

سارت توحيدة حزينة . ساقاها تعجزان عن حملها . لكنها سارت أمام الرجال الثلاثة، والضابط الشاب والمخبرون خلفهم. وبقى الجنود برشاشاتهم فى الشارع .

ازدادت الحارة ازدحاما . دخول الرجال الثلاثة الكبار لبيت توحيدة ، شجع أهل غربال لأن يتقدموا بلا خوف ، حتى صاروا حول الجنود الذين يشهرون الرشاشات .

وأسرع الرجال من داخل قهوة أبو دومة إلى مقاعدهم التى تركوها فى الخارج، وجلسوا عليها مطمئنين ..

★★★

كانت الزينة تنام فوق سريرها الخشبى . وعوض زوجها فى الحجرة الأخرى بكامل ثيابه استعدادا للذهاب إلى عمله .

عندما أحس بالمخبرين الذين يبحثون عن سيد ، قال للزينة :

– لقد جاءوا للقبض على أخيك .

لم تجبه الزينة . فهى تعامله منذ شهور قليلة بجفاء . تجيبه بكلمات مختصرة .

عندما طال البحث وسمعا أصوات الرجال فى الخارج ، أحس عوض بالخوف، وفضل البقاء فى شقته بعيدا عن المشاكل . لكنه فوجىء بالأحذية الكثيرة تحتك بدرجات السلم .

دق الباب فى عنف .، أسرع عوض إليه . فحالة الزينة لا تسمح لها بالتحرك .

عندما فتح الباب كان المخبر يبتعد ، ليفسح الطريق للرجل ذى السيجار الغليظ لكى يدخل أولا :

– أظنك زوج (نظر فى ورقة معه) الزينة . أليس كذلك ؟

– نعم .

دخل الجميع حتى امتلأت الشقة الصغيرة .

الزينة نائمة على ظهرها كما أوصتها الداية . وتحرك رقبتها بصعوبة ، ظننتهم سيبحثون عن سيد فى شقتها ، ظنا منهم أنه مختبىء فيها . وعندما لا يجدونه سيهبطون . لكنهم دقوا حجرتها دقات خفيفة .

ماذا ؟ أيظنونه فى حجرة نومها ؟!

دخل الرجال الثلاثة والضابط الشاب والمخبرون وقفوا على باب الحجرة – فى الخارج – قال أحدهم :

– كيف حالك الآن ؟

ارتعدت من الخوف ، لم يفهموا ما تقوله . قال كبيرهم (ذو السيجار الغليظ) :

- هل تعرض سيد لك بسوء ؟
- سيد أخى ؟ . لا .
ثم بكت من المنظر . اقترب أحدهم منها وقال مبتسما :
- لقد جئنا من أجلك . سيد يهدد بقتلك .
- قتلى أنا ؟
- نعم .
- لماذا ؟
- يقول .... إن هناك خلافا بينكما ..

★★★

عاد الرجال الثلاثة والضابط الشاب والجنود . لكن المخبرين لم يذهبوا جميعا .. فقد أمرهم الضابط الكبير بأن يبقى اثنان منهم لحراسة الزينة . وآخران يحلان محلهما . وهكذا .. إلى أن تصدر إليهم أوامر أخرى .

جلس المخبران فوق الكنبة المواجهة للسرير . واضطرت الزينة بألا تعبأ بتعليمات الداية لها ... فجلست فوق السرير رافعة نصفها الأعلى . والمخبران يدخنان ويتحدثان عن أمور تحدث في عملها . والزينة تبتسم لهما رغما عنها من وقت لآخر .

اضطر عوض أن ينزل إلى عمله ، وهو لا يدرى ما علاقة تغيب سيد عن الجيش بحراسة أخته الزينة هكذا ؟ أما توحيدة . فقد صعدت إلى المخبرين، قدمت لكل منهما علبة سجائر وخمسة جنيهات . وربتت فوق ظهريهما قائلة :

- البنت ولدت بالأمس فقط . فاتركاها فى حجرتها وعودا عند انتهاء ورديتكما . لكنهما قالا فى صوت خافت وفي نبرة حزينة :

- نحن نجلس هنا وكلنا أسى وحزن . لكن الأوامر هذه المرة صادرة من جهات عليا جدا . ابنك لو سكتنا عليه سيتحول إلى سفاح .

أعدت توحيدة كوبى مغات للمخبرين مع ابنتها . وعندما قدمت الطعام لها ،

أقسمت وألحت أن يأكلا معـا دجـاجة وطبقي أرز . واضطـرت أن تفعل هذا مع الاثنين الآخرين . ولقد كانا أكثر طيبة من الأولين .. فقد وافقا على الجلوس في الصالون ، خاصة بعد أن رأيا الزينة تنام وهي جالسة من أثر التعب والألم .

وفي اليوم التالي جاء الضابط الشاب في البوكس فورد . ومعه الجنود الثلاثة . لم يخرج من السيارة . فأسرع المخبران إليه . تحدث معهما . ثم سار . وهما صعدا ثانية إلى شقة الزينة .

بعد عدة أيام ، أحس المخبران بالاختناق من الشقة ، فطلبا من الضابط الشاب أن يأذن لهما بالجلوس خارج البيت . فوافق الضابط . فجلسا فوق مقعدين من قهوة أبو دومة . وأمرت توحيدة أبو دومة أن يلبي طلباتهما ، وستدفع هي الثمن .

عندما وقفت السيارات الثلاث أمام بيت توحيدة ، كان سيد مستيقظا في حجرته . منتظرا أن يأتوا في أي ليلة للقبض عليه لتغيبه عن الجيش .

أسرع قبل أن يدخلوا البيت . قفز فوق الحجرات . ومنها إلى الحارة الخلفية . حارة النجعاوي. ذهب إلى بيت خالته فريدة – زوجة أبو الحمد – التي أخفته عندها . لكن وجوده لم يكن يريح تجار المخدرات في الحارة . فذلك سيجعل للشرطة «رجل» في الحارة . وسيكشفون طرقهم في الاتجار واخفاء البضاعة . فقد سمع سيد زغلول يتحدث مع رجاله بذلك . وتحدث مع زوجة أخيه – فريدة – قائلاً :

– ابعد عن الشر وغني له . وابن اختك سيعرضنا جميعا للخطر .

اعترضت فريدة على حديثه . لكن سيد أحس بأن وجوده في حارة النجعاوي خطر . فقد يضطرون للإبلاغ عنه للتخلص منه .

جاءه متولى الفص المسئول عن تخزين بضاعة زغلول ، وابن صديقة توحيدة - أمه - قال لسيد :

- لا تهتم ، يمكنك أن تذهب إلى بيتنا وتختبىء فيه .

★★★

خرج سيد من الحارة ليلا . بيت أم متولى يقع فى حارة نعمان ، التى بها بيت توحيدة . لكن بيت أم متولى تحت الجبل مباشرة .

الباب مفتوح ليل نهار . يعرف سيد حجرة أم متولى ، فكثيراً ما دخل بيتها مع أمه وهو صغير ، كما أن البيت قريب جداً من درجات المسجد التى يجلس فوقها مع أصحابه دائما .

دق الباب ، استقبلته أم متولى مرحبة :

- قلبى معك ياولد ياسيد . أمك أعز الحبايب .

وفتحت ابنتها «موزة» حجرتها التى تطل على الشارع :

- ادخل ياسيد .

الشقة ليس بها رجل واحد . فمتولى الفص لأهمية عمله مع زغلول لا يستطيع النوم فى بيته مساء . وزوج موزة يعمل فى البحر ويغيب عن زوجته وبيته بالشهر والاثنين والثلاثة أحيانا .

أعدت موزة الشاى له . يعرفها سيد منذ زمن بعيد ، متزوجة من «الزناتى» منذ سنوات طويلة . وقتها كان سيد طفلاً .

يتابعها سيد وهو جالس مع أصحابه فوق درجات المسجد . لكنها لم تهتم به ولا برفيقيه (سعد وحسن بن عزيزة) .

الآن هى التى تريد أن تطيل الحديث معه :

- ماذا فعلت يا سيد ؟

صاحت أمها غاضبة :

- الوقت غير مناسب . الولد فى حاجة إلى الراحة .

قالت :

– الذين يتغيبون عن الجيش لا يفعلون معهم ما فعلوه .

تابع سيد الشاى فى كوبه الساخن وشرد فيما حدث ، لم يكن يظن أن الأمر سيصل به إلى هذا الحد .

– سيد ، يقولون إنك هاجمت الحكومة . هل حدث ذلك حقا ؟

لاحظ سيد أن موزة لا تبعد عينيها عنه . وفى كل مرة تصطدم عيناها بعينيه ، يجدها تبتسم له ، وفى عينيها رغبة له .

النجعاوية

أحنت الأيام ظهر توحيدة ، كانت الأشياء تسير كما تهوى ، لكن البنت الزينة هى التى بدأت بإطلاق شائعاتها ، فجعلت الولد سيد يفعل فعلته المشينة . ومادام هذا قد حدث ، فلابد أن تتحدث توحيدة ، ولو إلى نفسها . تعلن أمـام حواسها جميعا ، وأمام جسدها كله ، من شعرها لأظافر قدميها ، بأنها لم تحب عبد الحميد زوجها يوما . وما تزوجته إلا من أجل أخيه حسان .

كم كـانت بلهاء (هى تحكم - الآن - بمقياس امرأة عجوز أدمتها الأيام) .

كانت توحيدة ، تعيش مع أمها وأبيها فى قرية (أ) بالصعيد . فريدة أختها تزوجت من أبو الحمد النجعاوى كأمها ، وسافر بها إلى الاسكندرية .

تتابع توحيدة حسان من النافذة الصغيرة فى بيتهم - وسط النخل - يراها فيقترب منها . فهو قريب لوالدها :

- كيف حالك يا توحيدة ؟

- تفضل يا حسان .

هو لا يستطيع الاقتراب أكثر من هذا . فأبوه لو علم بدخوله بيت النجعاوية سيضربه ، كما أن أمها لن تسمح له بالدخول ، فهى لا تريد مشاكل مع والده أبو الغيظ .

يطلق أبو الغيط لحيته . وعلامة الصلاة تتوسط جبهته ، لا تفوته صلاة فى المسجد . لم يكن راضيا عن زواج أبيها حسنين بأمها سعيدة النجعاوية. فرأيه أن النجعاويات يتدللن، ويصعب على الرجال قيادهن لكن والدها لم يهتم . أحب أمها سعيدة وأصر على الزواج بها .

أبو الغيط كبير أهل الدرب وأقواهم . يقف وسط النخل يحكى عن جده المملوك الذى هرب من جيش الفرنساوية ، وتزوج واحدة سوهاجية . أنجبت له العديد حتى تكون ذلك الدرب .

بينما أهل النجع (أهل أمها) أصلهم عبيد سود ، كان يمتلكهم جده واسكنهم ذلك النجع . فتناسلوا وكثروا . وبسبب ذلك جاءوا جميعا سود الوجوه .

لأبو الغيط ولد آخر غير حسان هو عبد الحميد . قصير القامة ، نحيف الجسم، عيناه حمراوان دائما منذ أن وضع فيهما «الشطة» ليفسدهما حتى لايقبلوه فى الجيش .

يسير عبد الحميد خلف والده كظله ، لا يعارضه فى شىء ، بينما حسان يهرب إلى القاهرة أو الاسكندرية يركب الاتوبيسات ويقفز منها بمهارة . يبيع الامشاط والفلايات والنعناع فى الأتوبيسات . ويعود وحده فيقسو والده عليه حتى يهرب ثانية .

حسان طويل مثل أمه ، شعره طويل ناعم ، الطاقية لا تخفى سوى بعضه . وتوحيدة تحب أن تراه وأن تحدثه .

– ستسافر ثانية إلى الاسكندرية ؟

– آه . لقد اشتقت إليها ياتوحيدة ، وإلى الاتوبيسات الكبيرة هناك .

– احك لى عنها .

يحكى لها حتى تسمع صوت أمها :

– يا بنت لا نريد مشاكل مع أبو الغيط . لسنا فى قدره .

ويذهب حسان بعيدا .

كان بيتهم وسط النخل ، صغيراً ، فوق قطعة أرض كانت آخر ما يمتلكه حسنين والدها . يمر أهل الدرب فى النخل لمتابعة نخلهم ، أو للوصول إلى السكة الحديد القريبة منها ، إذا ما أرادوا السفر .

لا تذكر توحيدة الآن السبب الذى من أجله غضب أبو الغيط على ابنه حسان بهذا الشكل . ربما لتكرار هروبه إلى الاسكندرية أو القاهرة (حتى اشتهر على مستوى المركز كله بهذا) . أو ربما لتحرشه بامرأة أو فتاة ، فاشتكت لأبيه (فهو كثيرا ما يفعل ذلك) .

كل ما تذكره توحيدة منظر حسان وهو عار إلا من سرواله القصير ، وجسده النحيل يرتعش ، والرجل الجبار يقبض على يده ، وأمها تشدها غاضبة :

– ادخلى يابنت . ليس لنا شأن بما يحدث فى الدرب .

تسمع توحيدة ما يقال . بعض الرجال يحاولون مع والده لكى يعفو عنه ، وأبو الغيط يصيح :

– من يتدخل بينى وبين ابنى فهو عدوى .

وتسمع توحيدة الهمهمات ، وبعض الكلمات الأخيرة :

– مالنا ومال ابنه .. ابنه ولن يهون عليه .

وصوت امرأة من بعيد :

– سيقتله .

والرجل قلبه كالحجر . لم يستجب لأحد، وتوحيدة تنظر من النافذة الصغيرة إذا ما غابت أمها عن الحجرة فيواجهها جسد حسان النحيل ، ولون بشرته البيضاء ، والحبل الملفوف حول صدره وبطنه وساقيه ... والرجل كالأسد الثائر يحمل سوطاً .

قال عبد الحميد له :

– أخى سيموت ياأبى .

فيدفعه بعيدا حتى يقع ، والأم فى بيتها تولول ، لقد أقسم الرجل أنها ستكون طالقا إن خرجت من البيت .

جاءت سعيدة غاضبة ، شدت توحيدة فى عنف وأغلقت النافذة :

– مالك أنت وما يحدث ؟

– سيقتله يا أمى .

– ربنا ما يحرسه .

– حرام يا أمى .

أرادت أن تضربها . فابتعدت توحيدة باكية .

تبتعد سعيدة عن الحجرة وتوحيدة لا تستطيع أن تفتح النافذة ستسمع أمها صوت فتحها ، وستأتى غاضبة . ولن تتركها إلا بعد أن تضربها فى عنف .

تصيح توحيدة ، تسمع صوت التأوه والصراخ ، وكلمات بعض الرجال :

– يا رجل ارحم ، الولد سيموت .

– موته خير من الفضيحة .

تعرف توحيدة أن أبـو الغيط – رغم شدة تدينه – من السهل أن يقتل أعز ما لديه ، إذا كان سببا في إهانته أو المساس بقدره وكرامتـــه في البلدة .

صرخت توحيدة عندما خفت الأنين :

– لقد قتله يا أمي .

صفعتها أمها على وجهها هذه المرة :

– اصمتي ، مالنا وماله . ابتعدي عن النافذة .

ابتعدت توحيدة ، لكن صوت أبو الغيط جاء عاليا :

– فليكن معلومـــا للجميع ، أن من سيفك ابني هو عدوى . ولن أسامحه.

– مالنا وماله .

تباعد الرجال ، لم يجرؤ واحد منهم على الاقتراب من جسد الولد الشقي. كلهم يخافون أبو الغيط وبأسه «الرحمة يا ناس . هي الرحمة زالت عن الأرض ؟!» .

★★★

صمت النخل ، فلم تعد توحيدة تسمع حفيف جريده ، لا تدرى ما الذى حدث للجسد النحيل .

هل مات . أو حن قلب الرجل عليه ففكه ، وأخذه إلى البيت معه ، حتى أصوات المارة الذاهبين إلى البلدان المجاورة ، أو السكة الحديد . لم تعد توحيدة تسمعها .

وتسلل الظلام إلى الحجرة من خلال فتحات النافذة المغلقة .

حسنين والدها ينام وهو جالس يحيك الأجولة الفارغة . يستيقظ أحيانا على شكة الإبرة الكبيـرة في يده . ولا يستطيع صبرا على النوم ، فينام بعد صلاة العشاء .

وسعيدة أمها تشقى في البيت طوال النهار ، كما أن الجسد لم يعد قويا كما كان . فتنام قبل أن يعود حسنين من المسجد .

وتوحيدة وحدها ، تجلس تحت النافذة العالية ، فربما تسمع أصوات الذين يأتون لفكه وتخليصه .. لو فتحت النافذة ستصحو سعيدة ، وستضربها هذه المرة

فى عنف . فقد أحست بمدى حبها لحسان من تصرفاتها وجزعها عليه .

★ ★ ★

عندما دخل أبو الغيط البيت ، صرخت زوجته فيه :

– قتلت الولد وارتحت .

ثم بصقت فى وجه ابنها عبد الحميد :

– لو كنت رجلا حقا ، ما كان أبوك فعل ما فعله .

صاح أبو الغيط :

– كفى ياامرأة .

وخلع ملابسه على مهل استعدادا للوضوء ، والمرأة تولول . قال فى نفسه «دعها ، فهى أم» .

تحرك فى هدوء وكأنه لم يفعل شيئاً ، والمرأة تصيح من وقت لآخر :

– مات حسان يا أبو الغيط ، أخوك مات يا عبد الحميد .

دخل أبو الغيط ليصلى فى الحجرة البعيدة . فشدت المرأة قامتها وصاحت :

– سأخرج لابنى ويحدث ما يحدث .

لكن عبد الحميد أسرع إليها :

– لا ياأمى . لا تفضحينا فى الدرب .

بكت المرأة ، وهن جسدها حتي استرخى . ولولا الحائط الملتصق بها لوقعت على الأرض .

نام أبو الغيط كعادته ، وظل عبد الحميد بجوار أمه يواسيها .

قام أبو الغيط قبل الفجر ، وجد المرأة وقد هدها الصراخ والنواح . فتكومت ملتصقة بالحائط . لا يتضح إن كانت نائمة أو مستيقظة . وابنها عبد الحميد بجوارها . لم يغفل لحظة واحدة .

صاح أبو الغيط فيه :

– هيا لنتوضأ .

قـام دون أن يرد بشيء . والمرأة تنظر نحـوه . لم يصـدر عنهـا سـوى الأنين الواهن . وكأنها هـى التى جلدت بالسوط .

خرج الرجل وولده كعادته ، بعد أن ابتعد عن البيت ، قال :

- تذهب بعد صـلاة الفـجر إلى النخل لتـخلص أخـاك مما هو فـيـه . وتحـمله بمساعدة آخر إلى البيت . ثم تـأتى بسعفان الحلاق ليداوى جروحه ، وسأسير أنا إلى «طهطا» ولن أعود إلا مساء .

«تمنى عبد الحميد أن يسرع إلى النخل لانقاذ أخيه . لكن الرجل لن يسمح له بترك الصلاة» .

★ ★ ★

ملت توحيدة جلوسها هكذا بجوار النافذة . فلا يأتيها من خـلال النافذة المغلقة سوى نباح الكلاب وعواء الذئاب من بعيد .

شدت توحيدة شالها ، رمته فوق رأسـها . ثم سـارت حذرة ، بحثت عن إناء اللبن ، حملته ، ووضعت قدميها فى الشبشب .

فتحت باب البيت حذرة . آه لو ضبطتها أمها سعيدة ، ستقتلها تحت قدميها لا محالة .

سـارت نحو النخل القريب من البيت ، المكان مظلم تماما ، والكلاب زادت فى نباحها . آلاف القصص تحكى عن شياطين النخل الذين يتصارعون ويلهون بين نخلة وأخرى . يرمون البلح من أعالى النخل .. يضربون به بعضهم بعضا .

كان حســـان يحنى رقبته فوق صدره . لقد أدركه التعب حتى فقد وعيه.

- حسان . حسان .

أجابها بأنينه الخافت :

- آه .. آه .

- حسان ، أنا توحيدة :

بللت أصابعها باللبن ومسحت شفتيه . صاح هلعا :

- آه . آه .

- خذ اشرب ياحسان . أنا توحيدة .

وضعت إناء اللبن بجوار فمه فشرب . كان جسده مبللا بالعرق من شعر رأسه حتى جسده العارى ، وفكت وثاقه . آه . آه .

- انتصب يا حسان . لقد وقعت . استند على كتفى .

- آه . آه .

رمت الحبل الليفى بعيدا . ورفعت ذراعه فوق كتفيها :

- سر معى .

سار خطوات قليلة . وسألها :

- إلى أين ؟

لم تدر بماذا تجيب . هل تذهب به إلى بيتهم ، حتى تصيح أمها ، وربما ترميه
- هو الآخر - خارج البيت .

فهى لا تطيق أبو الغيط ولا أهلـــه ، من كثرة الأسية التى وجدتـهـا منه.

كما أن توحيدة لا تستطيع أن تسير فى الدرب . وإلا كانت فضيحتها على كل لسان . قال حسان :

- توحيدة . توحيدة .

- مر يا حسان .

- أريدك أن تكملى جميلك ، وتذهبى بى إلى محطة السكة الحديد .

- ستسافر ثانية ؟

- نعم .

كان ذلك هو الحل الوحيد ، فربما يؤذيه أبوه ثانية .

سارت توحيدة به وهى تبكى . إنها لا تريده أن يرحل أبداً .

أسرعت به وجسده كله ملقى على جسدها . ذراعه تحوط رقبتها ، وتستند على ظهرها . ويدها تحمله من تحت أبطه .

لابد أن تسرع قبل أن يخرج الرجال لصلاة الفجر . فقد يرونها . آه لو حدث هذا . لن يكون لها عيش فى هذه البلدة ثانية .

وصلت محطة السكة الحديد المظلمة ، والتى ليس بها انسان ، والكلاب تعدو وتنبح بين قضبانها ..

أجلسته فوق المقعد الوحيد هناك . قال :

- عودى يا توحيدة قبل أن يراك أحد .

- تستطيع ركوب القطار وحدك ؟

- نعم . اذهبى أنت الآن .

عادت فى طريقها إلى بيتها ، رأت الشياطين التى تتبعها ، وتشد شالها وقدميها ، تكاد توقعها وهى تجرى لاهثة.

قد تكتشف أمها غيابها . فتوقظ أباها وتكون ليلتها ليلة لا يعلم بها إلا الله سبحانه .

لكنها دفعت الباب ، وأسرعت إلى فراشها بشالها .

كانت الحجرة مظلمة . إلا من بصيص ضوء يأتى من الطرقة بين حجرتها وحجرة أمها سعيدة . شدت الغطاء على جسدها وشردت فيما حدث لها ، كأنها تحلم .

★ ★ ★

خرج أبو الغيط من المسجد . لم ينتظر ولده - كعادته - ليعودا معا إلى البيت .

تلكأ فى سيره . لم ينظر خلفه . سيترك الفرصة للولد للاهتمام بأخيه . لقد قسا على حسان وهو يضربه . أراد أن يكف عن ضربه . لكن أفعال الولد أهانته فى البلدة وهو المهاب الذى يخشاه الجميع . ود لو تدخل أهل الدرب وأبعدوه عنه ورموا السوط من يده . وخلصوا المسكين . لكنهم خافوه جميعا . حتى الذين جرؤوا وتحدثوا . كانوا يتحدثون من بعيد . وبدون حماس . كان يود لو دخل أحدهم وشد السوط منه .. وفك الولد عنوة .

أسرع عبد الحميد وبعض الرجال ، كانوا معه فى المسجد ، قاصدين النخل .

عبد الحميد كان أسرعهم . عندما وصلوا إلى أرض النخل ، كانت

الشمس قد بدأت فى الاشراق . فبدا ضوؤها واضحا بين جريد النخل الكثير المتناثر .

يعرف عبد الحميد مكان النخلة المربوط فيها أخوه . نعم . هى وسط نخلهم . بين النخلة التى وقع منها وهو صغير ، والنخلة التى كفت عن الاثمار منذ سنوات .

عندما وصلوا إليها لم يجد شيئاً . نظر حوله . فقد يكون أخوه مربوطا فى أخرى مجاورة . وذاكرته خانته ..

عندما وصل آخر رجل ممن كانوا معه ، بحثوا عن حسان لم يجدوه ، قال عبد الحميد مندهشا :

– من حل وثاقه ؟

عندما اعتادت أعينهم الرؤية فى الظلام . استطاعوا أن يروا الحبل اللوفى الملقى بجوار النخلة . أمسكه أحدهم وهو يلوح . وعاد عبد الحميد والحيرة تشمله .

★ ★ ★

تساءل الناس فى الدرب عن ذلك الذى أنقذ حسان.

قالوا إن الشياطين التى تموج بين النخل هى التى أخذته .

سار عبد الحميد وباقى الرجال خلفه ، كأنهم عائدون من جنازة .

كانت الأم تعد البيت لاستقبال حسان . الولد فى حاجة إلى طعام مغذ ليعوضه عما فقده . وما عاناه من تعب . لهذا اختارت أكبر بطة عندها وذبحتها ، وستسويها عندما يأتى الصباح .

دخل عبد الحميد البيت . عيناه ازدادتا احمرارا . قالت الأم :

– أين حسان ؟

ظنته قادما إليها مع الرجال الآخرين . بكى عبد الحميد :

– لقد أخذته الشياطين .

صرخت الأم :

- ولدى .

حتى اجتمع الناس حولها.

ذهب أبو الغيط لزيارة أقاربه فى «طهطا» لم يحك لهم عن سبب قدومه إليهم . كان شاردا طوال الوقت ، يدعو الله أن تمر الأزمة بسلام ، وأن يكون الولد حسان بخير .

عندما يعود ابو الغيط مساء . سيكون الولد قد أكل وشبع وارتاح .لن يعاتبه. ولن يعتذر إليه عما فعله به، نعم ، سيتظاهر بالغضب منه .

عندما عاد وجد جمعا من أهل الدرب ، وبعض النجوع المجاورة يقفون أمام بيته . والنساء فى الداخل والخارج يصرخن ويولولن . ظن الرجل أن زوجته ماتت حزنا على ولدها ، فهو لم يسمع صوتها المميز بين أصوات النساء .

دخل الدار مهرولا . عندما رأته الأم أسرعت إليه . كانت كالمجنونة . شدت ثوبه بيديها . لم تتركه إلا بعد أن شقته حتى الذيل . قال :

- أنت بخير ؟ الحمد لله .

- لا . لست بخير . ولدى حسان مات . أنت قتلته .

انهار الرجل . وقع على الأرض. لقد قتل ولده بالسياط . ياله من جبار . يقتله بالسياط ؟

قالوا إن الشياطين كانت تلهو به طوال الليل بين النخل . وقد حلته من مكانه ، وأخذته معها .

قالت امرأة :

- نعم . حسان كان وسيما . وقد عشقته واحدة من بنات الجان .

★ ★ ★

استعدت سعيدة للذهاب إلى بيت أبو الغيط للتعزية . قالت توحيدة .

- يا أمى ، حسان لم يمت .

دفعتها أمها بعيدا :

- من أدراك ، لقد أخذته الشياطين لكى يسليها فى الليل .

– هذه أوهام . إننا نعيش وسط النخل منذ زمن بعيد . ولم يحدث لنا شيء .

– حدث يا توحيدة أكثر من مرة . لكنني أخفيت هذا عنك وعن أختك فريدة ، حتى لا أخيفكما .

ماذا تفعل توحيدة الآن . أتقول لها عما حدث ؟ ولو قالت ماذا سيكون مصيرها . لا من أمها فحسب فلو كان على أمها لهانت . فالأم مهما فعلت ستخفى الخبر عن الدرب كله . خوفا على سمعة ابنتها . واتقاء لشر أبو الغيط . لكن الخوف كله من أهل الدرب الذين سيصمونها بالعار . وستؤثر هذه الفعلة على علاقتهم بأمها وأبيها .

لا . لن تحكى عما حدث مهما جرى وكان . فسوف يأتى حسان من غربته ليتزوجها ، وحينذاك سيعرف الجميع أنه أنقذ من بنى الانسان ، وليس من الشياطين أو الجان كما يدعون .

★ ★ ★

طال انتظارها لحســـان وهو لا حس ولا خبر . حتى كادت تصدق أنه مات . وانتقل إلى عالم الجان عن طريق شياطين النخل التى تمرح طوال الليل.

وهدأت توحيدة واستكانت . ما حدث ليلتها كان حلما . أملا تمنته ، ثم رأته فى منامها من شدة ولعها به . وهل تستطيع – هى المسكينة – أن تخرج فى الليل، وتتحدى الناس فى الدرب . والشياطين فى النخل وتسعى متحدية جبروت أبو الغيط . لا . ذلك حلم لا شك فيه . لكن كان متكاملا كأنه حقيقة . وعميقا فى نفسها من شدة حبها لحسان ، وخوفها عليه ، وحزنها لما حدث له ليلتها .

لكن ما حدث لحسان أثر على أبو الغيط ، هده. الجسد القوى المتين انهار فجأة .

كان الرجل رغم ضخامته يحس ببرودة تزحف فى أوصاله ، وارتعاشة فى جسده كله . قالوا فى الدرب إن ذلك لتجرئه وتحديه لشياطين النخل ، فقد أخذت ابنه وضربته هو فى صحته . أو أن الجنية التى اختارت حسان ليكون خليلها قد انتقمت من أبو الغيط عندما رأت آثار السياط فوق جسد حبيبها .

المهم أن الرجل كانوا يسندونه ليصلى فى المسجد . ونظرة التحدى التى كانت فى عينيه انطفأت .

كان يبكى أحيانا دون سبب . وحاول أكثر من مرة أن يخرج ليلا فى نفس الوقت الذى خرجت فيه توحيدة لإنقاذ حسان . يسير مستندا على الحيطان والنخيل . محاولا الوصول لمكان ابنه . ثم مات فى إحدى هذه المحاولات دون أن يعرف لابنه أثرا .

عادوا به جثة هامدة . ارتاحت من عناء البحث عن روح ولدها .

★ ★ ★

لكن أخبارا تسربت من الذين يأتون من الاسكندرية ، تفيد بأنهم قد رأوا حسان . بل إن بعضهم حدثه ولمسه بيده . وهو الآخر حدثهم وسألهم عن والده . وبكى تأثرا عندما علم بأنه مات . وسأل عن أمه وأخيه عبد الحميد .

ما يرويه الذين جاءوا من الاسكندرية حقيقة لا تقبل شكا .

هذه الحكاية كانت حديث الناس فى قهوة زايد . وفى جلساتهم على المصاطب فى المساء . بل وهم منحنون يعملون فى الأرض :

– لو كان حسان حياً . فما حكاية الشياطين الذين أخذوه ؟!

– هل من الممكن أن تحمله «الجنية» التى عشقته ، لترميه «صاغا سليما» فى الاسكندرية ؟!

تمنى من لم يره – من أهالى البلدة – أن يراه . ليتحقق من هذا كله . فلا شك أن مشاهدته معجزة تستحق الاهتمام والروية والتأمل .

قالت توحيدة لأمها :

– لماذا لا نذهب إلى الإسكندرية ؟

– وماذا نفعل بها ؟

– النجعاوية – أقاربك – يقيمون فيها . كما أن أختى فريدة متزوجة هناك .

نظرت المرأة إلى ابنتها كأنها تنظر إلى مجنونة . أحست بأن خير رد عليها هو الصمت .

لكن توحيدة لم تنته عن هذا . ألحت . وحدثت أباها فى ذلك . قال الرجل:

– أى مكان يا ابنتى خير من بلدتنا هذه . هناك أجولة الدقيق كثيرة . والمطاحن فى كل مكان . والرزق أوسع .

فى ذلك الوقت جاء عبد الحميد وبعض أصدقائه وأقاربه طالبين يد توحيدة . لكنها بكت وهددت بحرق نفسها لو أجبروها على ذلك . فعبد الحميد يشبه العفاريت بعينيه الحمراوين دوما . كما أن شقيقه حسان لن ينسى جميلها . فقد أنقذته من سوط والده . ومن شياطين النخل .

لكنه نسى كل شىء : جميل توحيدة . وأسرته وبلده ، وتزوج من ابنة صاحب محل ملابس داخلية بالاسكندرية . هكذا جاءت الأخبار المؤكدة . والتى لا تقبل الشك . بل أرسل حسان هدايا لأمه وأخيه عبد الحميد وأقاربه . ودعا العديد من أهل البلدة إلى الدكان الذى أصبح – الآن – تحت أمره .

لم تجد توحيدة سببا واحداً يجعلها تنتظره . بكت حتى آدمت عينيها وشردت الساعات الطوال .

ليس أمامها الآن سوى أن تقبل النصيب وتتزوج عبد الحميد الذى تخاف الأطفال من عينيه . وتتندر البنات على من ستقبل الزواج منه وهو بهاتين العينين الحمراوين . قالت له :

– لى شرط واحد يا عبد الحميد .

– أؤمرى .

– أن تذهب إلى الاسكندرية .

اللقـــــــــاء

عندما وصلت توحيدة وزوجها عبد الحميد إلى الاسكندرية ، لم يجدا حسان شقيق زوجها فى انتظارهما رغم أنهما قد أرسلا إليه بذلك . لكن أبو الحمد ، زوج فريدة أختها ، وصابر أخاه كانا ينتظران وينظران إلى الخارجين من القطار ، يبحثان عنهما .

يعرف أبو الحمد عبد الحميد . يذكره بعينيه الحمراوين اللتين تميزانه . لكن صابر لا يذكر شيئاً . فقد ترك بلده صغيرا .

قالت توحيدة :

– حسان سيبحث عنا ، لعله لا يعرف مكان القطار .

قال ابو الحمد :

– هيا بنا . حسان لن يأتى ، فهو مشغول بتجارته .

يعرف أبو الحمد حسان ، يتابعه من بعيد . لكن ليست هناك علاقة بينهما .

دخلت توحيدة أرض غربال لأول مرة . التفت الأسرة حولها . فريدة سعيدة بها . وبناتها يطفن البيت .. يتابعن خالتهن التى يرونها لأول مرة وزغلول يتحدث فى تثاقل .

تتحدث توحيدة عن حسان الذى لم ينتظرهما على محطة القطار ، وعبد الحميد يتابعهما فى ابتسامة بلهاء ولا ينطق بشىء .

مادام عبد الحميد قد جاء إلى الاسكندرية ليعيش فيها ، فلابد أن يبحث عن سكن دائم له . فمهما استقبلته فريدة فى بيتها ، فلابد أن يفارقها يوما . هكذا قال زغلول . وقال أيضا :

– إن حجرة قد خلت فى بيت أم يونس بحارة نعمان . وأنه يمكن أن يحدث ابنها يونس فى هذا .

★★★

عندما جاءت توحيدة إلى غربال . لم يكن الشيخ صابر قد قتل العبد الأسود . ولم يكن قد نال الحظوة لدى أهالى غربال . ولم يكن قد أسس مكتبه الزينبى . بل

كان مثار السخرية والاستهزاء من الكثيرين والاستخفاف من اخوته (أبو الحمد وأبو الترك وزغلول) لكنه كان مهتما بتوحيدة حانيا عليها . قال لها :

– لا تتسرعى فى البحث عن سكن ، البيت واسع .

وأخذ زوجها عبد الحميد فى اليوم التالى ليريه دكان شقيقه حسان بشارع ابن الخطاب (أول شارع يقابلك بعد محطة مصر ، فى طريقك إلى غربال) .

تردد عبد الحميد قليلا قبل التحدث مع أخيه . فقد تغير كثيراً .، وامتلأ جسده وطالت عمته . وبدا وكأنه شخص آخر .

كان يقف خلف «البنك» يطوى الفانلات بعناية ، والنساء بالملاءات يكشفن عن أكتافهن العارية . تحت الملاءة . لم يبد حسان ترحيبا بالشيخ صابر . بل لم يدعه للجلوس خارج الدكان ، كما فعل مع أخيه عبد الحميد . واستأذن الشيخ صابر لأنه لديه عملا فى المساء .

طلت عينا عبد الحميد الحمراوان إلى كل شىء فى الدكان . الفوط الملونة المعلقة ، والكوفيات . وملابس النساء التى كان يجب أن يتحشم شقيقه ويخفيها داخل الدكان ؛ لا أن يعرضها هكذا فى وجه المارة دون حياء. خرج حسان من حبسته خلف البنك . وأخرج مقعدا وجلس بجوار شقيقه :

– أين تقيم الآن ؟

– لدى أبو الحمد ، زوج أخت زوجتى .

– أعرفه . وماذا ستفعل ؟

– سأبحث عن سكن وعمل .

– العمل موجود .

– أين ؟

– لدى . سأعطيك الفانلات والجواب لتطوف بها على المحلات والمقاهى لتبيعها .

من يومها وهو يعمل مع أخيه . يطوف شوارع الاسكندرية كلها سيرا على القدمين . يمسك الفانلات من وسطها ويسير . تتدلى الأكمام والصدور. وتقع –

أحيانا – فانلة أو فانلتان . أخوه حسان لا يهتم بحسابه يعطيه ما يريد دون أن يقيد عليه شيئاً – كما يفعل مع باقي العملاء – فطلباته دائما يسيرة : دستة فانلات رجالي وأخرى أولاد . وعلبة جوارب . يحملها في يده .

عندما عاد عبد الحميد إلى البيت ألحت توحيدة في السؤال عما رأى :

– لماذا لم يأت حسان لمقابلتنا ؟!

لم يبد الشيخ صابر غضبا .. أو اعتراضا لمقابلة حسان له بلا اهتمام . بل تحدث وكأن شيئاً لم يكن . لكن توحيدة ألحت فى أن تزور حسان فى بيته . قالت فريدة :

– كان يجب أن يأتى هو لمقابلتك .

– هو مشغول . أصبح تاجراً كبيراً .

وأكد عبد الحميد على قولها . ماذا يفعل . أيبدو أمام أهل زوجته وشقيقه الأصغر لا يهتم به .

★ ★ ★

ارتدت توحيدة أحسن ما عندها : الفستان الذى يكشف الصدر الاسمر المغرى ، ودعكت الخدين وكحلت العينين .. وشدت «مدورتها» حتى لامست الحاجبين . كانت جميلة . شهدت لها فريدة بهذا . وأبدى الرجال الموجودون فى البيت دهشتهم لرؤيتها هكذا . لكن لم يجرؤ رجل واحد منهم على ابداء رأيه وسارت مع زوجها والشيخ صابر . سترى تلك التى تزوجها حسان وتركها من أجلها .

قال الشيخ صابر :

– معذرة . لن استطيع أن أدخل البيت معكما . سأشير إليه من بعيد .

سارت توحيدة فى أماكن لم ترها من قبل . وكذلك عبد الحميد لكن الشيخ صابر يحفظها عن ظهر قلب . قال :

– ذلك الحى يسمى بغربال الشرقى . البيت قريب من ترعة المحمودية على مقربة من قصر البرنسيسة .

لم يفهما قوله : ولم تهتم هى سوى بأن ترى حسان وزوجته الفلاحة .

يحس عبد الحميد بأن الزيارة ليست لها لزمة . فقد قابله شقيقه فى الدكان فى فتور . فما باله سيفعل فى بيته وأمام اصهاره الذين يمتلكون البيت والدكان .

لكن عبد الحميد لا يستطيع أن يرفض لتوحيدة طلبا .

أشار الشيخ صابر إلى البيت من بعيد . مبنى بالطوب الأحمر وبابه مغلق . تتدلى منه سقاطة على شكل يد تمسك كرة . دقت توحيدة السقاطة . وتابعت عبد الحميد الذى ينظر إليها بابتسامة بلهاء . ورقبته منحنية إلى صدرها الذى يظهر جزء منه من خلال الفستان العارى .

فتحت الباب امرأة تميل للامتلاء :

– من ؟

تقدم عبد الحميد قائلا :

– أنا عبد الحميد شقيق حسان .

ابتعدت المرأة عن الباب قليلا لتكمل فتحه :

– تفضلا .

تابعتها توحيدة لكن الظلام لم يساعدها على الرؤية الجيدة .

فى الداخل رأتها على حقيقتها : وجه ممتلىء ، شديد البياض ، شديد القبح .

لعنة تلعنك ياحسان ، أمن أجل هذه تبيع توحيدة ؟!

خرج هو من الحجرة الداخلية بقفطانه الابيض ، كان أكثر جمالا من أى وقت رأته فيه توحيدة . الشارب ينير الوجه المستدير ، والعينان السوداوان تشعان نوراً :

– أهلا يا توحيدة تفضلى .

وقالت زوجة حسان لعبد الحميد :

– تفضل .

انشغل حسان تمـامـا بتوحـيدة ! . لم يكن يظنهـا تجـسـر وتأتى إلـيه فى بيته.

تابعته هى باهتمام شديد . حتى خشى أن تلاحظ زوجته هـذا . «هـل يمكن أن يكون قـد حكى لزوجـتـه عـمـا فـعلت مـعـه يوم أن قـيـده أبوه فى النخل، ومسـاعدتها له حتى سافر وهرب ؟ .. لقد كافـأها على فعلتها تلك وتزوج هذه الفلاحة.

- جئتك ياحسان . مادمت لم تأت أنت .

- مشغول ياتوحيدة .

قالت زوجته :

- إنه يعود من الدكان فى وقت متأخر من الليل .

أحست توحيدة بالكره لها . وسعدت لأنها وجدتها دميمة.

جاء بعد ذلك والد زوجة حسان. قصير، يرتدى قفطانا وفوق رأسه طاقية. كان قريب الشبه بابنته. لكن عينيه كانتا أكثر جحوظا . عرفت بعد ذلك أن اسمه «أحمد بلالة». وأنه يسكن مع زوجـتـه بالشـقـة العليـا . وأن الرجل ترك دكـانه لزوج ابنتـه الوحيدة، وافتتح محلا آخر فى «شارع الميدان».

أبدت الزوجة ترحيبها واهتمامها بشقيق زوجها وزوجته مما جعل عبدالحميد يثنى عليها فى العودة. فصاحت توحيدة غاضبة :

- إنها دميمة .

- لكنها تحب زوجها وتهتم بأهله. لقد رحبت بنا أكثر منه .

- ألم تلحظ الحفر فى وجهها ؟!

- لم ألحظ .

أشاحت توحـيدة بيدها غاضـبة. وسارت بعيدا عنه. مما جعله يسـرع إليها ويبتسم قائلا :

- لاحظت . لاحظت .

★ ★ ★

عندمـا قتل العبد الأسـود أمام قـهـوة أبو دومة، بـخنجر الشـيخ صـابر كـانت توحيـدة تسكن بيت أم يونس فى حارة نعمان ؛ حجـرة مظلمة على الداخل. وأم يونس تسكن باقى حجرات الشقة .

الحارة كلها علمت أن توحيدة السـاكنة الجديدة من النجعاوية الذين يتمركزون فى حـارة النجـعـاوى .. فـخـافـهـا الناس فى الحـارة. وعـملوا لهـا ألف حـسـاب. فالنجعاوية أصبحوا – الآن – قوة، خاصة بعد قتلهم للعبد الأسود.

تخـرج توحـيـدة من ظلام حـجـرتـهـا. تجلس مع أم يونس على عـتـبـة البـاب الرخـامـيـة تكشـف عن ذراعيـهـا السـمـراوين ويأتيـهـا عبد الحـمـيـد عند المغرب – تقـريبـا – ممسكا بفـانلاته من وسطهـا ، تتدلى أطرافـهـا. يجـر سـاقـيـه من طول السير.

تقـوم هى متكاسلة. تشـعل لمبـتـهـا الجـاز نمرة (٥) . وتشـعل الوابور لتسـخن طعامه. مازال – هو – بعينيه الحمراوين، وابتسامته البلهاء .

الرجل مبهور بهـا، كأنه غير مصدق أنه قد فاز بهـا. وهـى تردد فى أسـى «تركت بلدى وأبى وأمى دون طائل» قنع حسـان بزوجته الدميمة. الدكان والبيت أعمـيـاه عن رؤية وجـهـهـا. لا يهتم الآن إلا بالمال الذي يكثر فى جيوبه . المال جعله يهتم بنفسه أكثر. جلابيب غالية الثمن ولاسـات حريرية كبـيـرة يلفـهـا حـول رأسـه . فى زهو يسير يتبختر بعصاه .

زارته توحيدة فى دكانه كثيرا . يرحب بها :

– أهلا توحيدة تريدين شيئا ؟

تتابعه دون قول . ماذا تريدين منه وقد تزوج، وأنت أيضاً تزوجت؟!

– تريدين شيئاً ياتوحيدة؟!

– لا . كنت فى محطة مصر. قلت أمر عليك فى طريقى .

يتركـهـا ويعـود لعـملائه، يحـاسـبـهم ، يدفـعـون له جنيـهـات كـثـيرة. تلهـيه عن توحيدة . لتعـود – هى – كسيرة حزينة . تزداد كرهـا لعبدالحميد . لا يستطيع

أن يفعـل شيئا من أجلها. يعمل لدى حسان . يأتمر بأمره . يحمـــل فانلاته. ويدفع له القليل. يشترى لها ما تشاء بهذه النقود.

هى لا تريد هذا . تريده أن يكون ندا له . صاحب محل مثله. هى ليست أقل من زوجته القصيرة، الممتلئة، ذات الوجه الممتلىء بالحفر .

الملل يكاد يقتلها وسط الحارة، كل الأشياء تجعلها تندم على اليوم الذى تركت فيه بلدتها من أجل زوج خائب، وأمل لن يتحقق أبدا.

زيارة توحيدة للحمام العمومى

دعتها أم يونس للذهاب إلى الحمام العمومى مع بعض نساء الحارة . عارضت أول الأمر. فالفكرة لم ترق لها . لكن الملل يجعلها تفعل أى شىء.

الحمام على ترعة المحمودية من ناحية شارع راغب باشا. بجوار مستشفى الجمهورية. أول مستشفى فى الاسكندرية يقام بعد إعلان الجمهورية.

المستشفى والحمام يخدمان منطقة كبيرة: غيط العنب وكرموز وغربال.

تدخل النسوة الحمام بعد كتابة اسمائهن لدى موظفة جالسة خلف مائدة فى المدخل. يعطون لكل امرأة قطعة صابون، ويأخذون ما معها من ملابس ليغسلوها لها . وتدخل كل امرأة حماما مستقلا ..

الماء ساخن . والحمامات بلا أبواب. تستطيع توحيدة أن تتابع النسوة حولها عاريات، ويتابعنها . فكل العاملات فى الداخل من النساء.

يعدن بعد ذلك وقد اغتسلن ، وغسلن ملابسهن ومعهن ما تبقى من الصابونة.

كان ذلك الحمام أحد آثار الثورة المصرية الوليدة. فى ذلك الوقت أنجبت توحيدة ابنتها الزينة. لم تفرح توحيدة بمقدمها. بل حاولت أن تجهضها . فعلت الكثير دون طائل. ثم جاء سيد بعد ذلك أيضا فى بيت أم يونس جاء وهى تحس بأنها لا تعيش .

يتحمل عبدالحميد ثورتها وسبابها بابتسامته البلهاء. وبإعجابه الشديد بجمالها .

– أنت لا تحس .

– لماذا ياتوحيدة ؟!

– أين أنت من أخيك ؟

– كل واحد ونصيبه .

– هذه حجة الخائب.

– اهدئى ياتوحيدة إننا أحسن من غيرنا بكثير.

– لكن حسان أحسن منا . بيته وبيت زوجته أصبح عمارة كبيرة. واشترى أرضاً جديدة يبنيها الآن.

– ربنا يزيده .

– ولماذا لا يزيدنا نحن ؟!

– أتكفرين ؟!

يومها صرخت فيه وبكت. حاولت أم يونس تهدئتها. لكنها ازدادت بكاء.

البنت الزينة كبرت. تعرف ما يحدث أمامها . تمسك ملابس أمها وتبكى خوفا .

لم تجد أم يونس سوى أن تصل إلى دكان حسان لتخبره. ضاق الرجل بها . ولعنها فى سره هى وأخاه وتوحيدة .

إنه ليس لديه الوقت لهذا الدلع. تجارته كبرت. وعملاؤه كثيرون. يطوفون المقاهى ويسافرون للأسواق فى البلدان المجاورة للإسكندرية. يبيعون بضاعته: «السوق غول لا يرحم. ولابد أن ينتبه له».

دخل حسان البيت وهو يزفر. رحبت توحيدة به. ابتسمت رغما عنها. لقد زال الحزن :

– أهلا بك .

– لا أهلا ولا سهلا . ما الذى حدث ؟

ابتسم عبدالحميد عندما رأى زوجته تبتسم. فمادامت هى سعيدة الآن ، انتهت المشكلة، ولا داعى للحديث عن شىء حدث وزال.

حاولت توحيدة أن تعد لحسان طعام العشاء. لكنه اكتفى بكوب شاى، وعاد إلى بيته بعد أن أغلق دكانه قبل موعده.

★ ★ ★

صارت العلاقة بين توحيدة وعبدالحميد لا تطاق. كل يوم مشاكل جديدة. وأم يونس تتدخل ، يصيح الرجل فى ضعف.

– سامعة يا أم يونس. هل حدث منى ما يغضبها ؟

– لا يا ابنى .

وتزداد توحيدة ضيقا. البنت الزينة كبرت، وسيد بيكبر. وحسان تجارته تزداد نموا. وزوجها كل ما يفعله هو حمل الفانلات من وسطها، فتتهدل من أطرافها، ويقع بعضها، وتتسخ. يعود إليها آخر اليوم خائبا. الكمية التى يتسلمها من أخيه تظل معه لأيام عديدة دون بيع والمشاكل بينهما كما هى.

مرات قليلة يأتى حسان ليصالحهما. المرأة - أم يونس - تستدعيه دون أن يطلب منها أحد ذلك، تريد أن توطد علاقتها به. حتى إذا ما اشترت منه بعض الأشياء لها ولأولادها يختار لها خير ما عنده وبأقل الأسعار.

لكن توحيدة بعد أن فاض بها لم تستطع الاحتمال:

- أريد أن أعود إلى الصعيد.

- فى القريب سأذهب معك لزيارة أمك وأبيك.

- أريد أن أذهب لأعيش هناك. إننى أختنق فى الاسكندرية.

لديها إحساس بأن هروبها من البلدة التى يعيش فيها حسان سيريحها، وسيجعلها تقبل زوجها. ولا تحس بهذا الاحساس معه.

- كيف يا توحيدة، وقد عشنا هنا ؟

- هذه ليست عيشة.

- يا توحيدة أنت التى طلبت هذا، بل كان شرطك للزواج.

- كنت أظن أننى سأسعد.

طال الحوار حتى صرخت توحيدة:

- أكرهك، لا أطيقك.

لا شك أن عفريتا يحركها بهذه الطريقة. فهى تتصرف هكذا دون سبب. سكنها وسط النخل فى الصعيد بين الشياطين حتما جعلها تفعل ما تفعله الآن.

تسمع المرأة أم يونس كل شىء. تقترب من الباب لتدقه. الرجل من الممكن أن يحتمل توحيدة، لكن إحساسه بأن أم يونس تسمع إهانته يجعله يجن.

- كفى يا توحيدة لقد تحملتك أكثر من اللازم.

تستيقظ البنت الزينة، والولد سيد الذى يعى الاشياء الآن. وتنادى أم يونس من الخارج :

- ياناس ، اخزوا الشيطان .

- إن لم تعد معى إلى الصعيد، سأعود وحدى.

- يا امرأة كفى عن الشجار يوما واحداً .

- أنت لست رجلا .

- أنا لست برجل ؟!

بكى عبدالحميد، وهى أصابتها لوثة أشد من كل مرة. كان لابد أن تسرع أم يونس إلى دكان حسان لتأتى به وقتها لم يستطع حسان أن يكتم غيظه. صاح:

- لعنة تلعن أخى وأهله أجمعين.

- يا ابنى. انهما يتشاجران دون سبب.

ترك دكانه. دخل البيت لاعنا . كان عبدالحميد يبكى فوق الكنبة. وتوحيدة تنظر إليه فى تحد، والزينة وسيد يبكيان فوق سريرهما.

- ماذا بك ياعبدالحميد ؟

- لا شىء. تفضل ياحسان .

- تبكى من أجل امرأة ؟!

- قالت لى «أنت لست رجلا».

خلع حسان حذاءه واندفع نحو توحيدة. ضربها فوق رأسها وجسدها كله.

- أخى ليس برجل ياابنة النجعاوية ؟

لم تجبه. لا تدرى كيف تحملت ضربه هكذا. لو كان عبدالحميد - زوجها - ما احتملت ضربة واحدة. قال حسان لاخيه:

- اجمع ملابسك ودعها مادامت لا تعدك رجلا .

أراد عبدالحميد أن يتراجع. لكن حسان صاح فيه:

– أسرع ، ستبقى فى بيتى إلى أن تحس أنك رجلها .

لم تبك توحيدة، ولم تجب بشىء.

★ ★ ★

البيت ليس فيه سوى قروش قليلة. عبدالحميد لم يكن يدخر شيئا. وتوحيدة تنفق كل ما يعطيه لها. والبنت الزينة كبرت الآن. ومصاريفها كثيرة، والولد سيد يسأل عن أبيه كل صباح.

كان لابد أن تنتقل توحيدة إلى حارة النجعاوى. النجعاوية أقارب أمها، وهم أولى بها، من سيتحملها غيرهم ؟!

زغلول خرج من السجن بتهمة قتل العبد الاسود. ويقف الآن فى دكانه بالشارع العمومى والشيخ صابر يلازم قهوة أبو دومة بعد أن أنشأ مكتبه الزينبى وأبو الترك انشغل بقهوته .

أبو الحمد هو الوحيد – بينهم – الذى لا يفارق بيته بعد عودته من عمله إلا نادرا. رحب بتوحيدة قائلا:

– البيت نور يابنتى.

كان مفهوما أنها لن تستطيع دفع ايجار حجرتها لأم يونس صاحبة البيت . لذا جمعت أشياءها القليلة وخزنتها فى «منور» لدى أختها فريدة .

الحارة مسدودة من آخرها . تجلس نساؤها وفتياتها داخلها على راحتهن، حفاة أحيانا، يغنين ويرقصن فلن يجرؤ غريب على السير فيها دون داع.

ولأن الحارة مليئة بتجار المخدرات فالغريب الذى يمر فيها إما أن يكون مرشداً للبوليس أو جاء لمعاكسة البنات أو السيدات، ويأويله فى كلتا الحالتين.

يلعب سيد فى الحارة. يدفع أكواز المعلبات الفارغة بساقه. يتخذها كالكرة. فعل هذا مرة بعلبة موضوعة بجوار بالوعة فى منتصف الشارع العمومى. أمام قهوة أبو الترك. لكن متولى الفص، الجالس على القهوة نهره من مكانه وسبه، ولما أصر الولد على لعبه ولم يبتعد، جرى متولى خلف قائلا:

- لو فى حجر أمك سأخرجك منه.

صرخ الولد، سمعت توحيدة صراخه من مكانها بالداخل. فأسرعت إلى الباب. رأت متولى الفص يمسك به. صاحت فزعة :

- ماذا تريد منه يامتولى يافص ؟

متولى مخزن المخدرات لزغلول. أمه تسكن حارة نعمان قريبة من بيت أم يونس الذى سكنته توحيدة. وكثيرا ما رأى توحيدة لدى أمه تزورها. تذهبان إلى الحمام العمومى. كان يتابعها بإعجاب شديد. وفى كل مرة يعود فيها إلى البيت يتمنى أن يجدها هناك، تزور أمه.

لم يكن متولى يعرف ان سيد ابنها . وانشغاله بتخزين بضاعة زغلول جعله بعيدا عن هذه الاشياء. قال:

- لم أكن أعرف أنه ابنك.

★★★

مرت الشهور ولم يسأل عبدالحميد. من يصدق هذا . لقد كان ينظر إليها بإعجاب كأنه يتعبد فى جمالها . فما الذى غيره. لقد قسًا حسان قلبه عليها.

والنقود التى كانت معها انتهت لآخر مليم. وباتت تعيش عالة على أختها فريدة وزوجها الذى يعمل فى البلدية بمرتب ضئيل. لا يكفى أسرته الكبيرة .

ذهب أبو الحمد إلى حسان فى دكانه. قال له :

- من أجل الولد والبنت أفعل شيئا.

- لقد قالت له «أنت لست رجلا».

عاد أبو الحمد خائبا. حكى لزوجته فريدة عما حدث. قال متولى الفص، وكان حاضرا وقتها :

- مادام لا يريد أن يرجعها إليها، يأمره بأن يطلقها.

صاح الشيخ صابر فيه :

ما دخلك أنت فى شىء مثل هذا ؟!

اقترب متولى الفص من توحيدة. أجرته من زغلول كبيرة جدا. تفتح بيتا

واثنين. يستطيع أن يشترى الهدايا لها ولابنتها وابنها سيد.

كان يمسك يد سيد. وبيده الأخرى يمسك حقيبة المدرسة. يذهب إلى مدرسة الأهرام فى آخر الشارع العمومى من ناحية شارع محسن باشا.

الغريب أن الأسرة لم تمنع متولى الفص من تدخله فى حياة توحيدة. كلهم كانوا يرون أن ذلك هو الحل أن تطلق من عبدالحميد، مادام لا ينفق عليها ويتزوجها متولى. وتنتهى المشكلة. لكن الشيخ صابر عارض هذا . قال لها:

زواجك من متولى الفص كارثة لك ولابنتك وابنك . فهو مهما طال به المدى، مصيره السجن.

لكن الحاجة ملحة. ولابد أن تنقذ نفسها. فلتعش مع متولى الفص إلى أن يحين أمر الله.

سارت الأمور فى طريقها. وكادت توحيدة تتزوج متولى. لولا حادثة وقعت فى الحارة . غيرت كل شىء فى حياة توحيدة. فقد كانت هناك امرأة نجعاوية تسكن آخر الحارة. متزوجة من رجل غريب يعمل عاملا فى مصنع نسيج، ليس له أى صلة بالمخدرات . ولا أى من أسرته.

هجم مكتب مكافحة المخدرات على شقته. فوجدوا المخدرات فى ملابس زوجته الداخلية. وأن المكتب كان يعلم بهذا عن طريق مرشد، يراقب المرأة منذ وقت طويل.

رأت توحيدة المخبرين وهم يشدون المرأة من شعرها وهى تزحف بيديها وساقيها لتحمى شعرها. وأطفالها يبكون حولها.

تلك الحادثة جعلتها ترفض الزواج من متولى الفص. وتصر على ترك حارة النجعاوى تماما.. وتبحث لها عن حل آخر .

سارق النار

قامة متولى الفص قصيرة، تميل للامتلاء، لكنه يستطيع حمل حجر كبير فوق ظهره ويسير به حتى أعلى الجبل، ويعود به ثانية وسط دهشة الجميع. ذلك الحجر موضوع للآن بجوار دكان ياسين الحلوانى، حافته ملساء ، يجلس فوقه الأطفال، يحكون عن قدرة متولى الفص العجيبة على حمله، ويتساءل بعضهم فى براءة :

– يستطيع أبوك أن يحمله ؟!

ويحلمون بأن يستطيعوا ذلك عندما يكبرون.

لكن الأرزاق لا توزع بقدر القوة. فمتولى الفص لا يجد معه الآن نقودا ليأكل أو يدخن أو يشارك شباب الحى جلساتهم فوق درجات المسجد المساء. أمه لا تعطيه مالا .

عمل متولى الفص أعمالا كثيرة متفرقة، مرة حاويا مع عثمان الحاوى. ينام فوق المسامير بظهره العريض.. وعثمان يقفز فوقه، أو يشرب الجاز ويدفع به النار وسط الحارة. لكن عثمان الحاوى سرقه. لم يعطه نصف ما يجمعان من نقود كما اتفقا ، مما اضطر متولى لأن يشد على ظهره حتى كاد يكسره، لولا أن استحلفه الناس الموجودون ما كان تركه.

ونام عثمان فى بيته لشهور عديدة يعانى من شدة ضغط متولى الفص على ظهره .

لو لم يكن عثمان فعل فعلته معه لكان متولى تركه أيضا، فقد مل ذلك العمل وأحس بأنه لا يناسبه، وذلك عندما رأى توحيدة تبتسم له فى استخفاف وهى تنظر إليه بينما كان ينام على المسامير، ولولا هذا لكان احتمل سرقة عثمان الحاوى له، وما كان ضغط على ظهره هكذا .

كان متولى الفص سعيدا قبل أن يرى توحيدة. كان يضحك بصوت مرتفع ويمازح النساء، بل شرب البيرة يوما وسط الحارة متحديا الشيخ صابر واتباعه (أعضاء المكتب الزينبى). لكن منذ أن جاءت توحيدة وهو حزين شارد يفكر فى حاله. لم يقبل العمل زبالا مثل العديد من شباب الحارة. ولم ينتظم فى عمل

مثل الآخرين ، كالعمل فى مصنع إخوان سلوم بأبى الدرداء أو مصنع الغزل بكرموز.

مر وقت طويل قضاه متولى فى ملل، نائما بجوار بيت أمه، واضعا يديه تحت رأسه، يتابع توحيدة، فقد تخرج فجأة لتسأل عن ولدها أو ابنتها. أو ربما تضع (حشيتها) على جانب العتبة الكبيرة مع أم يونس.. تتحدثان معا، أو مع بعض الجارات.

الوقت يمر ومتولى الفص قد نفدت نقوده. لم يعد يمتلك شيئًا.

فى غياب توحيدة يشرد - أحيانا - فى حاله ، يفكر فى طريقة يرتزق منها. يعود إلى حياته العادية، يتحدث مع أمه وأخته موزة. يقرر فجأة أن يعمل عملا جديدا لم يعمل فيه أحد من قبل. يخرج بعد منتصف الليل يدفع عربة يد بصندوق، من عربات عباس الأعور الكثيرة والمتراصة خلف بيته الكبير، ليجمع عماله بها الورق من الشوارع.

يدفع متولى العربة دون أن يستأذن صاحبها. يضع بها سلما متنقلا تستخدمه أمه لنزح الماء المتراكم فوق أكواخها التى تؤجرها للأغراب شتاء. ويسير. ليس لديه وقت لجمع الأوراق من فوق أكوام الزبالة. الورق جاهز متجمع ومتعلق فوق بلانشات السينما. بآلة حاد كالسكين يرفع طبقات الورق المتجمعة أو الملتصقة بالغراء ويرميها فى صندوق العربة. يقف أمام سينمات محطة الرمل والمنشية، ويعود عند الفجر أو قبله بقليل. يضع العربة وما بها أمام باب البيت، وينام حتى قبل الظهر بقليل (ففى ذلك الوقت تخرج توحيدة عادة من حجرتها.. فهى تنشغل فى الصباح بطفليها وبأعمال البيت) ثم يدفع متولى عربته إلى شارع (٨) حيث شونة عباس الأعور.. يطلب منه سيجارة ويجلس بجواره، يطلب من عمال عباس رفع الورق ووضعه على الميزان.

لو فعل هذا أحد غيره لصفعه عباس، أيأمر عماله أمامه؟ كما أن حمل الورق من فوق العربة إلى الميزان من اختصاص بائع الورق نفسه.

ينظر عباس إلى الورق فى ضيق :

– الورق كله غراء وأصباغ .

شركة الورق التى يتعامل عباس معها من الممكن أن ترفض السيارة كلها من أجل هذه الحملة، أو على الأقل تخصم من قيمتها مواد غريبة. فالاصباغ والغراء يفسدان صناعة الورق هناك.

لكن عباس يدفع مضطرا، فهو من الحارة ويعرف مدى قوة متولى. ولقد حكى له البعض عما فعله فى ظهر عثمان الحاوى وغيره، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم. فلو فعل متولى الفص هذا به لمات فى توه. فهو ليس فى قوة عثمان الحاوى.

أثارت سرقة بلانشات السينما الغضب لدى المسئولين فى الاسكندرية. فتربصوا به وقبضوا عليه متلبسا وهو يركب السلم المتنقل ويحمل آلته الحادة التى يمزق بها الورق، وحملوه معهم إلى البوكس فورد. الحكومة لا يهمها قوة متولى الفص، وكما يقولون الكثرة تغلب الشجاعة. فقد تجمعوا عليه وشدوه وأوسعوه ضربا فى قسم العطارين لأنه قاومهم وحاول ضربهم. وعاد وجسده أزرق. لكن ما كان يؤلمه أكثر هو بعده عن توحيدة وعدم رؤيته لها. وعندما جاءت أمه وأخته موزة لزيارته فى قسم الشرطة . سألهما عنها، فدفعته موزة فى صدره ضاحكة

– أنت فى أيه والاّ فى أيه ؟!

بعد أن خرج من قسم الشرطة ردد لنفسه : إن خير طريقة للوصول إلى قلب توحيدة هى الاستقامة.. ماذا لو عمل زبالا؟ سيرحب به الزبالون. فهو قادر على حمل زبالة عمارة كبيرة فى مرة واحدة. لكنه تأفف من هذا. دارت الأعمال العديدة أمام عينيه واحدا واحدا. إلى أن اهتدى إلى أن يعمل تباعا على عربة نقل. ذلك سهل. فجسده العريض القوى سيغرى السائقين لأن يقبلوه .

وعمل تباعا، صعد فوق الأجولة الكثيرة العالية ونام فوقها. أقنع السائقين بأن يضعوا سياراتهم فوق الجبل قريبا من الحارة التى يسكنها، واعدا إياهم بحراستها. ورحب السائقون بذلك، فسوف يوفر عليهم أجرة الجراج. كان هدف متولى الفص من ذلك أن ترى توحيدة العربية التى يعمل عليها وتؤمن وتصدق بأنه

استقام وأنه يكسب من الحلال .

لكن وجود الأجولة أمامه طوال الليل والسائق بعيد عنه أغراه وجعله غير قادر على أن يمسك نفسه. فجمع بعض شباب الحارة وسرقوا الأجولة. وتكرر هذا مع سائقين آخرين. كان يضربهم فوق الجبل إذا ما اتهموه بالسرقة أو طالبوه بأشيائهم المسروقة. حتى لم يجد سائقا واحدا يقبل بأن يعمل معه. وعاد إلى جلسته الهادئة بجوار بيت أمه، يتابع توحيدة.

كان يلح على أمه فى أن تتقرب منها وأن تدعوها إلى بيتها. وتصيح أمه غاضبة:

– أجننت ياولد ، تريدنى أسحب لك النساء بنفسى ؟!

وجن بتوحيدة حتى كاد لا يفارق الحارة. تتابعه موزة أخته من نافذتها صائحة :

– ومن سينفق عليك يامتولى يافص ؟!

يقوم إليها. يستحلفها بكل غال أن تعطيه مالا، وسوف يرده إليها عندما يعمل. فتصيح :

– ومتى ستعمل، وأنت لا تشبع من متابعة حبيبة القلب؟؟

– لن يطول هذا كثيرا .

موزة متزوجة من «الزناتى» الذى يعمل فى البحر. يعود بعد شهرين أو ثلاثة محملا بالنقود والهدايا تبيع موزة لأهل الحارة الزيت الامريكانى والدقيق الأبيض والجبن الأصفر (الاشياء التى يختزنها الزناتى من المركب الذى يعمل به) والبنطلونات والقمصان المستعملة. لكن النقود تتناقص يوما عن يوم. والزناتى فى الغربة. عندما يعود تكون قد انفقت كل ما معها. فتبدأ فى بيع أشيائه من جديد.

ضاق متولى بهذا الخاطر السخيف، فهو لا يحب أن يذل نفسه لأحد. أيعود ثانية إلى سرقة بلانشات السينما؟! حتى هذا أصبح صعبا بعد أن وضع أصحابها حراسا يحرسونها طوال الليل.. ماذا لو سرق عربة يد من عربات عباس الأعور الكثيرة والمتراصة خلف بيته، ويبيعها. لكن من سيشتريها منه، وكل الذين

يعملون فى الزبالة يعرفون عربات عباس ولن يشتروها منه.

دار متولى الفص حول بيت عباس الأعور، ثم قفز من النافذة الصغيرة القريبة من الأرض لم يحس به أحد. فعربات اليد الكثيرة حولها تداريها. عباس الآن فى الشونة ومعه أولاده. والبيت كبير ليس فيه سوى زوجته وابنته وطفلة صغيرة جاء بها من الصعيد لتساعد زوجته الحاجة فى عمل البيت.

دار متولى الفص فى البيت. كان يسمع صوت زوجة عباس تسب الخادمة. أسرع إلى المطبخ. إنه يعرف البيت جيدا. فكثيرا ما دعاه عباس الأعور مع أهل الحارة فى «الختم» التى يقيمها لإطعام أهل الحى. يسمعون ربع قرآن. ويقوم متولى مع بعض شباب الحارة بخدمة الآكلين. يقدمون الاطباق إليهم ويحملون الشاى الساخن لهم.

كانت الأوانى موضوعة فوق مائدة خشبية كبيرة وفوق رف عريض من الرخام. رفع متولى غطاء أول حلة قابلها فوجدها مليئة باللحم. دس قطعة منها فى فمه. وأخذ يلوكها . لكن صوت زوجة عباس كان قريبا جدا من المطبخ . فحمل الحلة وأسرع إلى النافذة. عندما قفز تساقط الطبيخ على ملابسه. لم يهتم. وضع الحلة فوق أول عربة يد قابلته وسار بها. لم ينظر حوله. لا يعرف إن كان قد رآه أحد وهو يقفز أم لا .

دخل البيت مسرعا . ضربت أمه على صدرها :

– ما هذا ياولد ؟

– لا أريد حديثا طويلا. لقد سرقتها من بيت عباس الأعور، وأريد الحلة فارغة لأبيعها .

أسرعت موزة بإعداد حلة أخرى وقلبت اللحم والطبيخ فيها وغسلت حلة عباس الأعور. فباعها متولى فى سوق العطارين.

★★★

تدخل توحيدة بيت أم متولى. تخلع ملاءتها وتتحرك فى البيت براحتها دون ملاءة، كاشفة عن الذراعين والصدر والرقبة. تحكى عن زوجها الخائب الذى خيبها

معه. ويسمع متولي الفص صوتها. تبتسم موزة وهي تراه يدخل الحجرة متظاهرا بالبحث عن علبة سجائره أو كبريته. ثم يجلس وسطهن مبديا رأيه فيما تقول توحيدة. لكنها لا تجيبه. وفي معظم الحالات تعجل بالخروج عندما تراه يجلس في الحجرة التي تجلس فيها.

يمر الوقت ومتولي الفص لا يعمل شيئا. وتوحيدة رغم إحساسها بالإحباط مع زوجها لا تهتم بمتولي .. وتشيح بوجهها عندما تراه أو تقابله في الحارة.

توحيدة في حاجة إلى المال. لقد سمعها تحكي عن هذا لأمه وأخته موزة. لابد أن يغتني بسرعة حتى ترضى عنه وتتقرب به.

نام بجوار بيت أمه واضعا رأسه تحت ذراعيه - كعادته - مفكرا. وهداه تفكيره إلى طريقة جديدة ومبتكرة لجلب النقود. فقد لاحظ أن الاسلاك الكهربائية ممتدة على طول الشارع العمومي الذي يبدأ من شارع محسن وينتهي في شارع راغب باشا. بينما الحواري الأخيرة والقريبة من شارع راغب باشا لم تصلها الكهرباء حتى الآن. بل إن معظم بيوتها ليس فيها ماء. ويعتمدون على حنفية الصدقة فوق الجبل القريب من شارع راغب باشا.

تابع متولي بيت توحيدة. كان يود أن يملي عينيه من رؤيتها، فسوف يغيب عنها بعض الوقت حتى ينتهي من إتمام مشروعه الكبير. لكنه للأسف لم يجد توحيدة . جلس فوق قهوة أبو دومة . سأل عن صبحي وقال أبو دومة صاحب القهوة :

- سيعود بعد قليل. فليس له مثوى غير هنا .

يعمل صبحي زبالا. لم يستمر في العمل مع زبال واحد. إنما يتنقل من واحد إلى آخر. كما أنه الوحيد ممن يجلسون على قهوة أبو دومة الذي يفهم في مسألة الكهرباء.

عندما ينقطع التيار الكهربائي عن البيوت التي بها كهرباء، يسألون عنه. يرفع هو الكويس ويغير شعرة السلك، فيعود التيار الكهرباء ثانية. يناديه البعض بالباشمهندس لأنه يعرف هذا. ورغم أنه «قبطي» إلا أنهم لا ينادونه بكلمة

«خواجة» كعادتهم فى مناداة الأقباط هناك. فهو ينغمس فى حياة الجهانوة بلد معظم سكان الحى. ويحيا وكأنه واحد منهم. يرتدى بذلة كاكى متسخة، لا يخلعها إلا نادرا وشعره الناعم المائل للاصفرار منكوش ولحيته كبيرة دائما. وشاربه لايقصه إلا إذا ذهب إلى الحلاق ليقص له شعر رأسه. وهذا لا يحدث إلا كل حين ومين.

معظم ما يكسبه صبحى من عمله في الزبالة وإصلاح الكهرباء يذهب إلى لعب الكوتشينة التى يقضى معها معظم وقته.

أبو دومة يعرف متولى الفص ويعرف أن بيت أمه في آخر الحارة المواجهة لقهوته. وليس بها كهرباء أو ماء فما الذى يجعل متولى يسأل عن صبحى. كما أنه ليس زبالا فيأتى للاتفاق معه ليعمل عنده.

شغل أبو دومة نفسه بهذا حتى سأل أقرب جالس من النصبة :

– ما الذى يجعل متولى الفص يسأل عن صبحى ؟

– لعل أخته موزة تريد أن تدخل الكهرباء فى حجرتها. فزوجها الزناتى يعمل فى البحر ويكسب كثيرا. أشاح أبو دومة بيده قائلا :

– سلك الحكومة لم يدخل الحارة . كما أن موزة تنفق أموال زوجها أولا بأول .

عاد الرجل إلى شيشته وشايه فما الذى يجعله يفكر فى مشكلة عويصة كهذه، لا تعنيه فى شىء؟!

تابع متولى الفص مدخل الحارة ، فربما تمر توحيدة من أمامه.

جاء صبحى بملابسه المتسخة وشعره المهوش وشاربه الأصفر الذى يغطى فمه. دهش عندما قال له أبو دومة إن متولى الفص يريده. فهو ليس صديقه. ولم يتحدث معه قط. حتى عندما يتقابلان فى الحارة أو فوق الجبل ينظران إلى بعضهما البعض دون أن يتبادلا حتى كلمة تحية.

اقترب صبحى منه متثاقلا :

– أهلا .

– انتظرك منذ وقت طويل .

أدرك متولى أن صبحى يعامله بجفاء. لكنه لم يهتم. فهو لا يعرف كهربائيا فى الحى غيره :

– الموضوع باختصار. أريدك أن تصل الكهرباء من الشارع العمومى إلى بيتى.

صاح صبحى بصوت مرتفع سمعه الجالسون حولهما:

– فى آخر الحارة ؟!

– نعم

– لكن ذلك يحتاج إلى أسلاك طويلة جدا .

– سأعطيك من المال ما تشاء.

ظنه صبحى يريد كهرباء لإقامة حفل أو عزاء، فذلك يحدث كثيرا فى الحوارى الثلاث التى لم تدخلها أسلاك الحكومة. فيذهب صاحب الحفل أو العزاء. يطلب من صبحى أن يمد له سلكا من أسلاك الحكومة الممتدة فى الشارع العمومى. لينير له حفله أو عزاءه. ثم يرفعه صبحى بعد ذلك. قال صبحى متساءلا :

– بصفة مؤقتة ؟

– لا أريده بصفة دائمة.

– لكن هذه سرقة .

– ومن سيحس بها ؟!

– سرقة التيار الكهربائى جريمة.

– ليس لك شأن بذلك. فسأتحمل كل شىء.

أراد صبحى أن يعترض، لكنه ليس فى قدر متولى الفص ولا فى قوته:

– تدفع مبلغا مثل هذا لإنارة حجرتك التى تنام فيها ؟!

– عليك أن تصل الاسلاك للبيت ولا شأن لك بشىء آخر .

مط صبحى شفتيه ودعاه أكثر من لاعب كوتشينة ليلاعبهم. لكنه لم يلب نداءهم رغم أنه كان يتمنى هذا.

سارا معا وسط دهشة الكثيرين. فما الذى جمع الشامى على المغربى ؟!

صعدا إلى شارع راغب باشا فاشتريا أمتارا عديدة من سلك الكهرباء. وشاهد الناس صبحى وهو يطل من نافذة امرأة تسكن الشارع العمومى ، يمر سلك الحكومة بجوار نافذتها ، علق صبحى السلك ورمى الباقى فوق أرض الشارع،ثم شده حتى وصل إلى أول الحارة. فثبته بمسمار كبير فى جدار أول بيت بالحارة . وشد الباقى إلى أن وصل إلى بيت متولى الفص.

تساءل الناس فى دهشة : ما الذى سيفعله متولى بكل هذه الأسلاك الطويلة ؟!

ثم أنار صبحى لمبة واحدة فى حجرة موزة دون أن تطلب، ودون أن يسألها متولى الفص مليما . فقد أقرضته ثمن أمتار السلك الكثيرة.

تعلم متولى كيف يصل أسلاك الكهرباء الجديدة إلى فرع السلك الرئيسى المأخوذ من الشارع العمومى دون أن ينقطع التيار الكهربائى.

أراد متولى أن يدفع شيئا إلى صبحى لكنه لم يجد نقودا . فقد اشترى دخانا ودخنا معا بآخر مليم معه.كما أن صبحى لم يكن ينتظر منه شيئا. كل ما يريده هو أن يفلت من قبضته القوية لكى يعود إلى رفاق الكوتشينة فقد يكسب هذه المرة ويعوض خسائره الكثيرة.

وعرض متولى الفص على البيوت المجاورة بأنه يمكنه أن ينير حجراتهم نظير خمسة عشر قرشا فى الشهر لكل لمبة.

وتسارع الجيران فى شراء الاسلاك واللمبات من شارع راغب باشا، خاصة بعد أن رأوا حجرة موزة المتوهجة، وكأنها فى وقت الظهر.

عمل متولى وحده لم يستعن بصبحى ولا بغيره، فالعملية سهلة وليست فى حاجة إلى مهارة أو ذكاء، وأنار معظم حجرات الحارة. ووصلت أسلاكه الكهربائية المسروقة من الحكومة إلى الحارات المجاورة. وظل يكسب من هذه العملية لشهور عديدة. يأتى الناس إليه وهو جالس بجوار بيت أمه يتابع توحيدة اللاهية عنه. يدفعون له ثمن الكهرباء. أو أن يقوم هو متكاسلا للسؤال عن ثمن الكهرباء للذين

لم يدفعوا، مهددا إياهم بقطع التيار عنهم إذا لم يسددوا ما عليهم خلال أيام قليلة.

ودون أن تطلب توحيدة رأته يدق المسامير المثبتة للأسلاك فوق جدار حجرتها. ويمد السلك لها ولأم يونس من أجلها ، لكن توحيدة أقسمت ألا تقبل هذا إلا إذا أخذ الثمن مثلها مثل غيرها. وأم يونس تشير إليها من بعيد بأن تكف عن الرفض. فالرجل تطوع بهذا دون أن يطالبه أحد بذلك.

لكن الشرطة جاءت ذات صباح ومعها عمال «كوبانية النور»، مزقوا الأسلاك الممتدة من الشارع العمومي حتى الحوارى الثلاث. لا يعرف أحد للآن من الذى أرشد عن متولى الفص. يقول رواد قهوة أبو دومة إن رجلا من الذين لم يسددوا قيمة الكهرباء وقطع متولى الفص التيار عنه، قد أبلغ الحكومة عنه. لكن البعض يؤكد أن صبحى هو الوحيد الذى يعرف هذا. فكل الذين كانوا يتعاملون مع متولى ظنوا أن الكهرباء مادام هو الذى يعطيها لهم فهى من عنده. وصبحى كان يعيش فى هم شديد بعد أن رأى متولى الفص قد اغتنى من هذه العملية التى لولاه ما كان فعلها. وكان صبحى يجلس فوق قهوة أبودومة حزينا دون نقود بعد خسارته فى الكوتشينة وهو يرى متولى سائرا بملابسه الجديدة التى اشتراها بعد نجاح مشروعه. كما أن متولى الفص لم يدفع له مليما من هذا الطوفان الذى جاءه دون أن يتعب فيه.

لكن صبحى يؤكد أنه لم يفعل شيئا. إنما هى الحكومة التى لديها جهاز يبحث عن سرقة التيار الكهربائى وذلك الجهاز هو الذى اكتشف السرقة دون أن يرشده أحد لذلك .

وقبض على متولى الفص ليكمل السابقة الثلاثين .

كيف جاءت عزيزة إلى غربال ؟

مـر الوقت الطـويل ومـازالت الحـوارى الثـلاث (نعـمـان وبسطاوى والنجعاوى) بدون كهرباء، وعزيزة لم تتعود العيش على لمبة جاز، كما أن الحياكة فى حاجة إلى إضاءة قوية لكى تستطيع أن ترى الابرة وتميز لون الأقمشة تمييزا دقيقا.

لذا ، فقد شكت لسمير الحلاق قريبها والذى يسكن معها فى الشقة، فقال لها:

– اسلاك الحكومة بعيدة عن الحارة، ولقد شكونا كثيرا دون طائل.

ظلت عزيزة تتحدث فى مشكلة الكهرباء لكل امرأة تأتى لتفصل عندها. تحكى لهن عن اللمبة النيون الكبيرة المعلقة فى سقف شقتها التى تركتها، فترسل ضوءها أبيض رائقا، يريح العيون ويجعل الحياة أكثر يسرا. لكنها لم تحك لهن سبب تركها لهذه الشقة فجأة واضطرارها للسكن فى غربال.

ذلك حديث لا يدور سوى بينها وبين زوجها حسين، وسمير الحلاق قريبها فقد أوصته بألا يحكى ذلك لزوجته رشيدة . لكنه حكى . فأحيانا تسمع عزيزة منها ما يفهم منه أنها على دراية بما حدث . قبل أن تتزوج عزيزة حسين، لم تكن تعلم شيئا عن زوجته السابقة، ولم تسأله عنها قط. ظنت أول الأمر أنها تركت وحيدها حسن وماتت .

لكن بعد الزواج ، حكى حسين لها عما حدث. لقد طلقها بعد أن ضاق بتصرفاتها.

ذلك الحديث كان يؤلم زوجها، ويجعل الكلمات تخرج من فمه وكأنها أشواك تشد وتنزع من جسده.

لقد كانت المرأة تخرج من البيت فى غيابه. ولا تعود إلا مساء، قبل عودته من الدكان بقليل. بل أحيانا تأتى بعده. وكلما سألها عن المكان الذى كانت فيه. تقول:

– لدى صديقة. أنت تتأخر فى الدكان وأنا أمل الوحدة.

– وابنك حسن ؟

– لا ينقصه شىء

عندما تأكد من سوء سلوكها . والله أمر بالستر. طلقها وارتاح . لكنها لم تدعه يرتاح طويلاً .

فجاءته بعد أن كبر حسن، مطالبة به.

يومها ، سبت عزيزة واتهمتوا بالدمامة. وقالت:

– لا آمن على ابنى مع زوجة أب. أمه أولى به .

التف الجيران حولهم. حسن يرتعد خوفا. لم يكن يعرف أمه. فقد تركته طفلا صغيرا. ولم يتزوج حسين الا بعد سنوات طويلة من طلاقها ، عندما رأى عزيزة واقتنع بها كزوجة .

كانت المرأة تصرخ وتهدد وتسب. أراد حسين أن يضربها. لكن عزيزة منعته. وجعلت الجيران يخفون حسن عنها. وذهبت المرأة بعد أن أقسمت أن تعود ثانية لأخذه. وحينذاك لن يستطيع أحد منعها.

وظل حسين فى تلك الليلة يزفر فى أسى. ويدخن سجائره بجوار عزيزة. والولد حسن بجوارهما فوق السرير الذى ينامان فوقه . خشية أن تسرقه أمه منهما.

قالت عزيزة ليلتها :

– الحل ، هو أن نترك هذه الشقة.

– كيف ، وإلى أين ؟

– أى مكان بعيد لا تعرفه زوجتك السابقة.

– نترك الاسكندرية كلها إذن .

لم تجبه عزيزة، تابعت دخان سجائره، كانت تفكر فى سمير قريبها، فهو يسكن بعيدا فى غربال.

زارته مرة بعد أن ولدت زوجته رشيدة ، كانت مع شقيقها الذى يعرف الطريق جيدا. فقد اشتغل سمير صبيا فى دكانه لسنوات طويلة. وكثيرا ما ذهب إليه فى غربال.

فى العودة خرج سمير معهما، ليخرجهما من الحارة. فقالت له عزيزة:

- عظيم أن تعرف طريق بيتك فى ذهابك إلى العمل وعودتك منه.

لا شك أن زوجة حسين السابقة لن تعرف الطريق اليهم إذا ما سكنوا غربال.

★★★

فى الصباح ذهبت عزيزة إلى شقيقها فى صالون الحلاقة.

- ماذا حدث، هل اكتشفت أن حسين مثل زوجك السابق ؟

- فشر . إنه خيرة الرجال . أريد سمير.

يعرف شقيقها صالون الحلاقة الذى يعمل فيه سمير. ويستطيع أن يرسل صبيه ليستدعيه.

- ماذا تريدين منه ؟

- أرسل إليه وستعرف.

مكث طويلا إلى أن جاء سمير:

- خير.

- أريد سكناً فى الحى الذى تسكنه.

- غربال ؟

- نعم .

- صاح شقيقها :

- ولماذا غربال بالذات ؟

- لكى نهرب من زوجة حسين السابقة.

- أتطالبه بنفقة ؟

- تريد أن تأخذ ابنها منه.

قال سمير :

- ذلك سيأخذ وقتا حتى أجد سكنا خاليا .

- الأمر لا يحتمل الانتظار.

صاح شقيقها غاضباً :

- تريدين أن يخلى سكنا بالقوة ؟!

صمتت عزيزة حزينة. وقال سمير في صوت خافت :

– إنك تحبين زوجك الحالى كثيرا .

نظرت إليه فى أسى ولم تجب. قالت بعد وقت قصير:

– الحل ، أن نعيش معك ياسمير إلى أن تجد لنا سكناً هناك.

لم يجبها سمير بشىء ، فالطلب صعب ولا يستطيع أن يصرح برفضه أمامها هكذا، فهى فوق أنها قريبته فشقيقها له أفضال كثيرة عليه. يكفى أنه علمه الحلاقة. قال سمير بعد تفكير طويل :

– سأبحث مع صاحب البيت لكى تسكنى معنا فى الشقة.

صاحت فرحة :

– أيمكن هذا ؟

– نعم .

كانت تود أن تقدم خدمة لحسين زوجها، بعد أن أعاد اليها الحياة. وأيضا، فقد أحست بأن حسن ولدها هى ، وأن امرأة غريبة تريد أن تأخذه منها.

وانتقل الأثاث إلى الحجرتين داخل الشقة فى غربال، لكن مشكلة الكهرباء ظلت تؤرقها.

كيف دخلت الكهرباء الحوارى الثلاث..؟

تكره عزيزة غسل «بانورة» اللمبة الجاز. وكثيرا ما كسرتها وهى تغسلها. وكثيرا ما جاء حسين من عمله مساء فإذا بالحجرتين مظلمتان. أو ضوؤهما خافت وعزيزة تبكى. فشريط اللمبة يلتهب داخلها دون سبب. ويملأ وجهها بالهباب، خاصة أنفها.

وتأثر حسين مما هى فيه، وأخذ يردد هذا لعملائه. ووجد بالصدفة عميلاً من عملائه يعمل مديرا مهما فى شركة الكهرباء. شكا حسين له ما تعانيه زوجته. فوعده الرجل بالاهتمام بالموضوع.

عندما علمت عزيزة بذلك مساء. فرحت وظلت لساعات طويلة تحدثه فى هذا. وتوصيه بألا يهمل ذلك الموضوع حتى نام الرجل من التعب. وهى مازالت مستيقظة، تفكر فى ذلك، وتتابع اللمبة الجاز المعلقة فوق الحائط بأسى. وتتمنى أن ترميها بجازها من النافذة.

★★★

بعد إلحاح طويل من عزيزة، ذهب حسين بنفسه إلى شركة الكهرباء وقابل المدير المهم، الذى نسى وعده له، وناشده حسين بالاهتمام من أجل زوجته الخياطة، التى لم تتعود لمبة الجاز.

واتصل الرجل تليفونيا بالعديد من الرجال الذين قدموا له خرائط وملفات بها رسوم وخطوط كثيرة. وشردوا وفكروا وتناقشوا. ثم قال المدير المهم رأيه أخيرا:

– المشكلة أن بيوت الحارات الثلاث واطئة، ولا تصلها أسلاك الكهرباء.

– والحل ؟

– لا تستطيع الشركة أن تبنى البيوت على حسابها حتى تصل لأسلاك الكهرباء.

وعاد حسين إلى زوجته حزينا. بكت عزيزة يومها وكأن ميتا مات لها.

وفى الصباح دارت فى البيوت، وتحدثت مع نساء الحارة فى ذلك الأمر الهام.

دقت بيت توحيدة التى اغتنت الآن. وبنت الدور الأرضى فى بيتها. قالت توحيدة:

- والعمل ياعزيزة ؟

- نذهب إلى مقر الشركة ليجدوا لنا حلا .

- أذهب معك .

دقت توحيدة، الأبواب المغلقة فى الشركة. كانت رغم ملاءتها التى تلمع، أكثر جرأة من عزيزة التى ترتدى فستانا موضة.

بكت عزيزة، وشكت من متاعبها مع اللمبة الجاز، فرق لها رجل يعمل هناك. قال:

- يمكن أن تمتد الأسلاك على أن تقيموا - على حسابكم - أعمدة تنزل الأسلاك عليها .

وتابعت عزيزة وتوحيدة هذا . كانتا تعدان الشاى وتشتريان الدخان للعمال الذين يمدون الأسلاك من الشارع العمومى إلى الحارة.

واستطاع سكان بعض البيوت العالية - ومنهم الذى تسكنه عزيزة - أن يدخلوا الكهرباء .

ولأن بيت توحيدة واطىء. والأسلاك عالية جدا عليه. فقد ذهب ابنها سيد بدراجة واشترى عمودا خشبيا من «باب سدرة» حيث يكثر تجار الخشب القديم.

وتم إدخال الكهرباء إلى بيت توحيدة ، وكثر شراء الأعمدة الخشبية من باب سدرة. حتى لم يتبق سوى بيوت قليلة لم تدخلها الكهرباء .

ذكر بعض المعلومات عن عباس الأعور قبل أن يصبح غنيا

الذين جاءوا إلى غربال قبل عباس الأعور ، يذكرونه عندما جاء من الصعيد . كان نحيفا ممزق الثياب ينام في دخلة بيت أم متولي ، فهو قريب زوجها مرسي العريجي . تأففت أم متولي من رؤيته ، فقد كان دميما ، آثار مرض جلدي تغطي جزءا من وجهه بحبيبات كثيرة ، وتشمل العين اليسرى التي استجابت للمرض فخسرت . قالت أم متولي لزوجها :

ـ قريبك هذا عفن ، وجهه لا يطاق .

ـ إنه غلبان يا امرأة ، وتكسبي فيه ثوابا .

أخذه مرسي معه ليريه الاسكندرية ، تأوه عندما رأى تمثال محمد علي باشا . مازال مرسي يحكي هذه الحكاية ويضحك . ظن عباس أن صاحب الحصان سيهبط بعد قليل . وعندما وجده مرسي مبهورا بالحصان وصاحبه تركه في الحديقة قائلا :

ـ سأقضي حاجة لي وسأعود إليك ، تمشى في الحديقة إلى أن أرجع .

وغاب مرسي أكثر من نصف ساعة. وعاد . فوجده كما هو . يقف أمام التمثال فاتحا فمه مبهورا بذلك الرجل النحاسي العملاق .

لكن بمرور الوقت عرف عباس الطريق . فاشترى قفة كبيرة ليجمع بها الورق من الشوارع (كانت هذه مهنة من لا عمل له في غربال وقتذاك) وأخذه مرسي من يده وعرفه بتاجر ورق في « اللبان » وأوصى الرجل قائلاً :

ـ إنه غلبان ويستحق المعاونة .

كان ذلك في شهر أغسطس حيث ينتشر السردين النيلي ، الذي يجئ مع الفيضان . فتمتلئ به عربات الباعة في الأسواق والطرقات منادين « سمن يا جماله » وتفوح رائحة شوائه من البيوت والأفران . وقدمت أم متولي صينية صغيرة لعباس وطورة عيش كاملة. فقام بها وحده ، فقد كان يأكل كثيراً رغم نحافته . واستلذ بطعم السردين، وطاردته رائحته في كل مكان يذهب إليه ، وخجل من أن يطلب من أم متولي سردينا ثانية .. لكن عربات السردين واجهته في

الشوارع التى يجمع منها الورق . وشاهد الناس تشترى أمامه ، وهو لديه الآن نقود ، بعد أن باع ورقه للتاجر فى اللبان . فاشترى لفة وطورة عيش . وجلس فى « خرابة » تعود أن يستريح ويتناول طعامه فيها . فرش الورقة ، ووضع العيش بجوارها ، وقضم السردين ـ كما فعل فى المرة الأولى ـ لكن قشر السردين ـ هذه المرة ـ ملأ فمه وملابسه . وأحس بصعوبة فى أكله . وحاول ثانية وثالثة دون جدوى. فحمل السردين والعيش وعاد إلى أم متولى قائلا لها :

ـ لا أدرى ما الذى حدث للسردين هذه المرة .

وعندما فتحت أم متولى اللفة ووجدت السردين نيئا ـ كما هو ـ ضحكت طويلا وقالت :

ـ سأعده لك .

★★★

لكن الرجل اغتنى واشترى قطعة أرض كبيرة فى أول حارة نعمان التى تسكنها أم متولى زوجة قريبه . فعل هذا دون أن يعود إلى مرسى . فهو يتصرف الآن بدونه .

أقام سورا حول الأرض الفضاء من الخشب والصفيح الصدئ الذى يوجد فى بيوت الزبالين بكثرة . واشترى ميزانا قبانيا يضعه فى الحارة ويشترى الورق من الزبالين الكثيرين فى غربال .

لم يعد يزور أم متولى . بل كان يكترى عربة بحمار لنقل ورقه إلى التاجر الكبير فى اللبان ، مع أن مرسى قريبه يقف بعربته وحماره فى شارع ايزيس فى انتظار زبون .

وازداد جسد عباس انتفاخا وامتلاء . حتى كاد كرشه يخرج من قفطانه الواسع . والدائم الاتساخ من طول جلسته فوق جونية الورق بجوار ميزانه . تفوح من ملابسه رائحة عطن الورق وعفن العظام التى يشتريها من الزبالين ، ويبيعها لشركة الغراء ، ويطن الذباب حتى يغطى جدران الحارة تماما . خاصة وقت الظهر .

وتزداد النقود معه . وهو كما هو ملابسه المتسخة . كأول يوم جاء فيه إلى غربال .

حتى أولاده كانوا مثله . ملابسهم متسخة ، يسيرون بها فى الحارة وينامون بها ، ويدخلون الشونة ، ولا يخرجون منها إلا مساء . بل إن بعضهم كان ينام فى الشونة ، حتى أطلقوا عليه اسما بذيئا ، مرتبطا بتعلقه بالشونة .

وكبرت تجارة عباس الأعور بعد أن باع إلى الشركة مباشرة . بل استطاع هو وتاجر آخر أن يحتكرا وحدهما البيع لشركة الورق . فاضطر باقى التجار بمن فيهم تاجر اللبان أن يبيعوا لهما .

وترك عباس الحارة ، وافتتح شونة أكبر مصنوعة من الطوب والخرسانة فى شارع (٨) بكرموز . ومن أموال شركة الورق الكثيرة ، اشترى الأرض التى تصل بين حارتى بسطاوى ونعمان . وبنى بيته الضخم العجيب . وجعل بابه الحديدى الكبير مواجها لشونته القديمة التى لم يبعها للآن . فهى سبب سعده والعز الذى يرفل فيه الآن .

لكن زوجته بعد أن كثر المال فى يديها . زاد وزنها بشكل ملحوظ . وصار حجمها مقاربا لحجمه . مما اضطره لأن يأتى لها بالبنت السوداء لتعمل خادمة فى بيته .

تقضى زوجة عباس الأعور وقتها فى الفراندة الواسعة المطلة على حارة نعمان. تضع أكوام الفاكهة واللب والسودانى أمامها وتأكل ، وترمى القشر فى الحارة أمامها . متمنية أن يراها كل سكان الحارة المجاورة وهى تفعل ذلك .

★★★

لم يحس عباس الأعور بطعم الحياة رغم غناه الفاحش . فهو يقضى وقته منذ أن يصحو إلى أن ينام فى بيع وشراء الورق . ملابسه لا يغيرها إلا يوم الجمعة عندما يذهب لصلاة الظهر .

تنام زوجته قبل عودته إلى البيت . وتقوم البنت الخادمة بإعداد المائدة له

ولأولاده . وإذا ما صرخ فى زوجته لتصحو من نومها . تجلس أمام الموقد . وتغالب النوم ، حتى أيقن أن لا فائدة من ايقاظها . وقنع بحالتها هذه .

لذا ، فقد استجاب وانشغل بالمرأة البيضاء الفلاحة التى تسكن البيت المواجه لشونته بشارع (٨) .

المرأة لحمها أبيض ، وشعرها ينسدل من تحت مدورتها ناعما . متزوجة من شرطى مرور شاب . يدخل البيت مبتسما فى خجل . وأطفالها يلعبون فوق الأجولة الكثيرة أمام الشونة . يحس عباس بمدى فقرهم من الملابس التى ترتديها المرأة الجميلة ومن البذلة الرسمية التى لا يخلعها الزوج حتى يوم الجمعة وهو ذاهب للصلاة .

أعطى عباس لطفل من أطفالها جنيها . فوجد المرأة تطل من نافذتها فى الدور الأرضى مبتسمة تشكره .. ففرح عباس لهذا . واطمأن . وتعددت الهدايا حتى أرسل إليها أخيرا صفيحة سمن بلدى كاملة ومسنكرة .. فالمرأة تستحق هذا وأكثر .

لكن عباس رغم ما أنفقه عليها لا يأخذ منها شيئا سوى جلوسها فوق الدرجات الثلاث فى مدخل البيت . كاشفة عن أسفل ساقيها . تداعب شعر أبنائها وتبتسم فى خجل وهو جالس ـ كعادته ـ فوق جونية الورق المملوء نصفها بجوار ميزانه .

وبدأ زوج المرأة يتقرب إليه . وبدلا من دخوله إلى البيت مبتسما فى خجل . يرفع الآن ذراعه ويحييه بابتسامة واسعة .

هل أطلعت المرأة زوجها على هداياه وعطاياه للأولاد الصغار ؟ ربما ... المهم ان هذا قد وصل إلى زوجة عباس لا يدرى هو أى من أولاده .. أو غير أولاده قد أبلغها بهذا . فقد تغيرت المرأة بعد أن توصلت إلى حل يجعلها تصحو له عند عودته . وهو النوم بعد العصر إلى أن يعود . ولمحت له بأنه قد كبر وشعره أبيض .. وأولاده لو تزوجوا سينجبون . وإن كان الله قد من عليه وأعطاه الكثير . فلابد أن يحافظ عليه لأولاده .. وتظاهر الرجل بالغباء . وقال لها :

ـ عندك حق .

ثم بدأت فى انفاق أمواله التى كانت تنساب عليها قبل فعلته تلك .

★★★

فى ذلك الوقت انتقلت توحيدة من حارة النجعاوى بولدها وابنتها الزينة . إلى حارة نعمان التى كانت تسكنها قبل أن يتركها زوجها .

يسكن شونة عباس الأعور القديمة رجل ضرير . يقرأ يوم الخميس فى المدافن، ومتزوج من امرأة انجبت له العديد من الأولاد فى هذه الشونة .

وقد أخذت عباس حالة شهامة ومروءة أمام أهل الحارة ، فسمح لهذا الضرير بالعيش فى الشونة . بل وجاء بسباك ليصنع له مرحاضا بدون مياه .

وضعت توحيدة متاعها بعد أن استأذنت الرجل الضرير فى أن تقيم فى الشونة الكبيرة ، التى يشغل الشيخ جزءا صغيرا منها . ونامت مع طفليها دون شئ . خاصة أن الجو حار . وعندما يأتى الشتاء يكون ربنا عدلها .

بعد أيام قلائل اقتنعت توحيدة بضرورة مرافقة سيد والزينة للشيخ الضرير يوم الخميس فى مدافن العمود .. فسيعودان إليها بالمال والطعام والفاكهة . فالطفلان صغيران ولن يلومهما أحد . ثم جعلتهما يحملان قفة ويدوران فى الحوارى يجمعان الورق ويضعانه فى جزء من الشونة الكبيرة ، ثم يجمعان ثانية إلى أن تمتلئ الجونية. كانت توحيدة تدخل فى الجونية وتدفع الورق بساقيها لتكبسه ، حتى تأخذ أكبر كمية ممكنة من الورق .

وكان لابد أن يخرج سيد من مدرسته . فهو لا يجد ملابس مناسبة يذهب بها. كما أن كتبه قد اتسخت وتمزقت فرمتها توحيدة فى جونية الورق . وظل الولد متسخا طوال الوقت . فالماء شحيح ، يأتون به من حنفية الصدقة .

أرسلت توحيدة إلى عباس الأعور كى يرسل من يحمل الجونية إلى شونته فى شارع (٨) . دهش الرجل عندما شده سيد من ملابسه ، وطلب منه ذلك . وعندما علم بأن توحيدة تعيش فى شونته القديمة . غضب وكاد يجن وترك عمله وأسرع إلى هناك .

يخاف عباس أن تضيع أرضه منه . فهى ملكه ، ولم يأت بها بالساهل .

أخذ يصرخ خارج الشونة وأظهر عن وجهه الحقيقى ، وسب الرجل الضرير لأنه فرط فى الأمانة . وقال إنه وضعه فى الأرض دون شئ كى يحرسها له ويصونها .

طلت الحاجة ـ زوجة عباس الأعور ـ من شرفتها الواسعة . رأت توحيدة تخرج من الشونة معفرة وملابسها متسخة بالتراب . وأدرك عباس بعينه السليمة التى لم يصبها المرض ـ ولم تخسر مثل الأخرى ـ مدى جمال توحيدة فهدأ وتحدث بصوت خافت . لكن توحيدة غضبت وصاحت :

ـ ماذا بك ، سأسرق أرضك ؟!

ـ لا . لكن للأرض أصحاب كان يجب أن تستأذنيهم .

ـ سأنام فيها إلى أن يفرجها ربنا .

أراد أن يهدأ وأن يتركها تنام فى أرضه . بل ود لو لمس كتفها . لكن وجود الناس حوله وإحساسه بأن الحاجة فى الفراندة الآن . جعله يستمر فى ثورته :

ـ لا . لن تنام فيها .

بكت توحيدة ، مرارة الأيام التى عاشتها بعيدا عن زوجها ، تجمعت الآن ، أحست بأنها منهارة ، فجلست فى ركن الشونة ترتعش .

عباس الأعور حائر . يريد أن يسترضيها ، المرأة تزداد حلاوة فى عينيه كلما بكت . خوفه من شعور الضعف أمامها جعله يزداد فى ثورته .

تدخل البعض :

ـ دعها يا معلم عباس .

ـ لا . لن أدعها .

بكت الزينة . وبكى الولد سيد وهو يجمع طوب الشارع ويرمى به عباس . وفجأة وجد الناس الحاجة بجسدها العملاق وبروب يلف جسدها كله ، صاحت فى الجمع :

ـ أفسحوا كى أدخل .

كف عباس عن ثورته . دهش لتدخلها هكذا . فهى أول مرة تنزل الحارة بروبها . مهما حدث تظل فى الفراندة وتتابع الموقف من بعيد .

اقتربت من توحيدة المتكومة فى ركن الشونة .

ـ قومى يا ابنتى .

كانت توحيدة ترتعد . جسدها يتحرك مع نشيجها .

انحنت الحاجة ، ربتت على ظهرها :

ـ قومى يا ابنتى ، وتعالى معى .

صاح عباس :

ـ ماذا تريدين منها ؟

ـ كفى يا عباس ، كفى ما حدث .

وصمت عباس ، ليس خوفا من امرأته ، لكنه يريد أن يصمت . ويريد أن يضم جسد المرأة المستسلمة لنشيجها . سارت توحيدة مع الحاجة . وتبعتها الزينة وسيد . وسار الجمع خلفهم . وبقى عباس الأعور يتحدث مع الرجل الضرير . لم يحس بقيمة زوجته إلا الآن . لقد أنقذته من ثورته وفعلت ما يريده ويتمناه دون أن ينتقص من قدره ..

★★★

عندما دخل عباس الأعور بيته . لم يجد أحدا فى طريقه .

دخل حجرته وخلع ملابسه استعدادا للوضوء . كان صوت الحاجة يأتيه عاليا ، تلح على توحيدة بأن تكف عن البكاء رحمة بطفليها .

لم يسمع عباس سوى صوت الحاجة وكأنها تحدث نفسها .

شمر عن ذراعيه ، وتنحنح وهو داخل إلى دورة المياه ليتوضأ . سمع صوت بكاء الطفلة والولد الصغير الذى كان فى الخارج يرميه بالطوب حزنا على أمه .

دخل الحجرة التى بها زوجته . كانت توحيدة منكمشة فى نفسها كأن حالة قد انتابتها . قالت الحاجة آمرة :

ـ عباس . أرسل من يحمل الورق من الشونة القديمة. وأعط توحيدة ثمنه الآن.
ـ لكن . أنا لا أعرف قدره .
ـ ليس مهما . أعطها أى شئ .
ـ حاضر .

أخرج محفظته الكبيرة وفردها ، أخرج منها النقود . ومدها لتوحيدة فلم تتحرك . لكن الحاجة أخذتها منه وقالت :

ـ ادخل انت لتتوضأ .

عاد الرجل من وضوئه وهو يتمتم كعادته بالدعاء . سمع الحاجة تتحدث مع خادمتها . بأن تعد المائدة فى المطبخ لتوحيدة والطفلين ، ليتناولوا العشاء . وألا يخرجوا من البيت قبل أن يستحموا .

بعد أن تناول عباس الأعور العشاء مع أولاده الذين ظلوا بملابسهم المتسخة . دار فى البيت الواسع متحججا بأى شئ . لكى يرى توحيدة ثانية . رآها تخرج من الحمام مرتدية ثوبا من أثواب زوجته القديمة . فبدا الثوب واسعا عليها .

يتابع عباس وجهها الذى ازداد احمرارا بعد الحمام . يريد أن يشترك فى الحديث الدائر بينها وبين زوجته لكن غيرة زوجته من المرأة الفلاحة التى تسكن شارع (٨) . جعله يفكر ألف مرة قبل أن يحدث امرأة أخرى أمام زوجته ..

★★★

أرسل عباس أحد عماله ليبنى كوخا لتوحيدة . كان أكبر من كوخ الشيخ الضرير . كوخا تنام فيه مع الزينة وسيد ، ومدخل مغطى بسقف من الصفيح الصدئ يمكن أن تجلس فيه مع طفليها .

قال العامل وهو يدق المسامير فى الصفيح والخشب :

ـ سأبنى لك شقة ، لا كوخا .

ارتاحت توحيدة بعد بناء الكوخ من الفئران والقطط والكلاب التى كانت تمرح حولها ، وهى نائمة تضم ابنها وابنتها . وتسمع طوال الليل شجار القطط . أو صوت « العرس » الكبيرة تتصارع .

كانت تخفى جسدها وجسد ابنتها وابنها بالغطاء خشية أن يعضها إحداها .

وصارت الشونة بيتا لتوحيدة . ونسى أهل الحارة اسم الشونة القديمة . وأصبحوا يرددون « بيت توحيدة » . استخدمت مرحاض الرجل الضرير . فقد قال عباس لها :

ـ استخدما المرحاض معا .

★★★

جمع الطفلان الورق كالعادة . وأرسلت هى لعباس كى يرسل من يحمله . فالطفلان صغيران على حمله .

جاء عباس الأعور مساء . لم يرسل أحدا . قال لها :

ـ دعك من هذا العمل . فهو لا يناسبك .

ـ ومن أين سأعيش مع طفلى .

ـ ليس عليك سوى الاهتمام بنفسك . وأنا على الباقى .

تأففت توحيدة ، وجه عباس رهيب : الحبيبات البارزة الحمراء تغطى جزءا كبيرا من الوجه . وتجعله بشعا وكرشه يمتد يملأ باب الكوخ الذى مازال يقف أمامه ، إنها حتى لو وافقت على ما يقول ، لن تستطيع احتماله .

ـ لا . لم آكل إلا بهذه الطريقة .

كان صوتها عاليا ، فأحس عباس بأنها ترفضه . وأنها على استعداد لأن تفضحه فى الحارة . قال :

ـ فى الغد سأرسل من يحمل الجونية .

خرج دون أن يترك مليما . حتى بكى الطفلان . وبكت هى الأخرى بجانبهما . فى اليوم التالى جاء ابن عباس الأعور بعربته وحماره . حمل الجونية فوق العربة . ودفع ثمنها . كان أقل من المرة السابقة .

تريد توحيدة أن تظل فى مكانها هذا . لقد فشلت حياتها مع زوجها . ومع أهل زوج أختها فريدة . وزوجها لم يظهر منذ أن ترك البيت . وهى وحيدة الآن . ماذا تفعل ؟ أترضى لذلك الشئ الرهيب المسمى عباس الأعور ؟ الرجل رغم غناه تحس

بأن القشف ملتصق برقبته الغليظة . وأصبح جلد رقبته سميكا لذلك .

ماذا لو غضب عليها وطردها من أرضه . إلى أين ستذهب ؟ . زوجته الحاجة متعاطفة معها . لكنها لن تستطيع أن تثنى زوجها عن شئ يريده .

لكن النظر إلى وجهه يدفعها إلى التقيؤ .

أتعود إلى حارة النجعاوى . فتجد مصير المرأة التى أخفت المخدرات فى ملابسها الداخلية ؟!..

★★★

لم يجلس عباس الأعور فوق الجونية بجوار ميزانه ، وأمام بيت المرأة الفلاحة . ولم يعد يقدم الهدايا لها ولا النقود لأطفالها . لقد شغلت توحيدة كل تفكيره .

تظنه زوجته قد سكت عن طردها من أرضه إكراما لها . لو علمت بما يفكر فيه حيالها؟!

لقد صنع لها كوخا أكبر من كوخ الرجل الضرير . وأعطاها الكثير فى جونية ورق واحدة لاتستحق شيئا . لكنها لا تريد أن تلين .

سار عباس مع أولاده فى العودة . لم يدخل البيت معهم عرج إلى بيت توحيدة. المرأة تكيده . تزيده لهيبا . كانت ترتدى ثوبا من أثواب امرأته القديمة . ذلك الثوب يذكره جيدا . كان لا يحب أن يراه على جسد امرأته . كانت تبدو فيه كذبيحة داخل القماش الرقيق الذى يصونها من الأتربة والحشرات . لكن على جسد توحيدة كثوب عرس .

لم يكن فى الكوخ سواهما . الولد والبنت يقضيان الوقت فى بيته هو ، يساعدان الخادمة الصغيرة ، ويشتريان لوازم البيت نظير ما تعطيه الحاجة لهما من مال وطعام .

اقترب عباس منها . كانت فى حالة صفاء.. شعرها ممشط . والكحل فى عينيها . وتلوك اللادن كأنها فى انتظاره .

ـ ها قد جئت ثانية يا توحيدة ؟

ـ لماذا ؟

- تعلمين ما أريد .

- أعلمه ولا أريده .

جلس على الأرض . لم يكن مرتاحا فى جلسته . فجسده الضخم يعوقه .

- لا أستطيع أن أفعل ما تريده . ولا أستطيع أن أخرج من بيتك . فليس لى سواه .

- فلتذهب الأرض فى داهية . المهم أن تقبلى .

- لعل الحاجة تبحث عنك الآن .

ليس مهما .

مد يده نحوها ، أحست بقشعريرة . وارتجف جسدها كله . لكنها تماسكت :

- لى شرط واحد يا عباس .

صاح مندفعا :

- أمرك .

- تكتب لى هذه الأرض .

- لكن ....

- هذا شرطى .

- الأرض بحالها ؟

وقفت توحيدة إيذانا بطرده . لكن الرجل عندما رأى جسدها المشوق وشعرها المنسدل فوق ظهرها ازداد تعلقا بها :

- اجلسى يا توحيدة نتفاهم .

- ليس هناك سوى ما قلته .

- سأسمح لك بالعيش فيها دون مقابل .

- لا . الأرض كلها تكتب باسمى .

رأى الرجل وجه زوجته الممتلئ . وجسدها المترهل . ونومها على نفسها ليل نهار . والمرأة الفلاحة التى أخذت منه أكثر من ثمن الأرض دون شئ . ما الذى

تأخذه من الأرض ؟ الرجل الضرير يعيش فيها منذ زمن ولاتأخذ منه أبيض ولا أسود . كما أن المال كثير . وأنت لم تشترها بسوى جنيهات قليلة .

ـ موافق بشرط ألا تعلم الحاجة بشئ .

وانتقلت ملكية الأرض إلى توحيدة . وعباس قد أفاق من سكرته . يتساءل :

هل استعدت توحيدة فى تلك الليلة لاستقباله لكى تخدعه وتأخذ أرضه منه . أم أن الفكرة واتتها أثناء الحديث عندما قال لها « فلتذهب الأرض فى داهية ، المهم أن تقبلى » ؟

توحيدة تجد دخلا ثابتا

بعد أن استقرت توحيدة فى بيتها . بدأت تبحث عن دخل مستقر لها ولطفليها. يمكنها أن تبنى كوخا فى الأرض الفضاء المجاورة لكوخها ، وتؤجره ، وتنفق من دخله . لكن الدخل لن يكفى .

عباس الأعور لم يعد يدفع لها كما كان . يسب الولد سيد كلما سأله عن النقود. لكنه يعطيه بعد ذلك ، ويسب توحيدة عندما يزورها :

ـ آه . أخذت الأرض منى كالضرب على القفا .

وتصيح فيه بجرأة :

ـ ضربتك على يدك ؟!

لكنه يجلس رغم ذلك . ويطلب منها أن تعد له شايا . وتمتد يده إلى جسدها . تتعامل معه بقرف واشمئزاز بعد أول مرة ظلت تتقيأ لأيام عديدة . وأحسن بأنها ستموت بثمن الأرض التى أخذتها منه . لكنها تتعامل معه الآن . حدة القرف قلت. تدفع جسده عنها :

ـ ابعد ، ستخنقنى بكرشك أو ... ابعد وجهك عنى . اننى لا أطيقه .

هو لا يغضب ولا يتأثر . فقد اعتاد هذا منها . يسبها هو أيضا . لكنه يدفع . ويعود إلى زوجته الحاجة ليغتسل ويتوضأ ويصلى . تدهش الحاجة لأنه يغتسل فى يوم غير الجمعة . فقد كان يظل بملابسه المتسخة طوال الأسبوع . رغم رائحتها الكريهة التى تفوح منها .

ولا تعلق الحاجة بشئ . فتفكيرها لم يصل أبدا إلى توحيدة .

★★★

الولد سيد يكبر ، والمدرسة ستضيع عليه . أخرجته أمه منها . بعد أن تركها زوجها ، ولم تجد ثمن الكتب والملابس المناسبة .

تستطيع توحيدة الآن أن تستغنى عن الورق الذى يجمعه سيد من الشوارع ، لتبيعه لعباس الأعور . يمكنها أن تأخذ ثمنه دون أن تتعب ابنها وابنتها .

نعم . لابد أن يعود الولد إلى مدرسته . لكن الناظر فصله منها . أرسل إليها

مع زملائه فى الفصل انذارا بأنه سيضطر لأن يفصله إذا لم يأت إلى المدرسة وينتظم .

وقتها لم يكن ممكنا عودته . كان كل تفكيرها منصبا على كيفية ايجاد قروش قليلة لتأكل بها هى وطفلاها . وأرسل الناظر إليها خطابا مسجلا بفصله . دسته توحيدة فى صدرها بعد أن بكت طويلا .

★★★

ذهبت إلى عباس الأعور فى شونته بشارع (٨) . وجدته فوق الجونية . نصف المملوءة خارج شونته .

- صباح الخير يا عباس .

- من ؟!

وقف مفزوعا ، فهى تزوره فى الشونة لأول مرة :

- ماذا تريدين ؟

- ماذا بك يا رجل . أريد أن أتحدث معك .

- اذهبى الآن ، وسأزورك فى البيت .

- لا . إننى فى حاجة إلى خمسة جنيها .

- خمسة جنيها ؟ لا .

- عباس . إننى فى عجلة . ولن أنتظر حتى تعود مساء . وقد لا تأتى إلى .

- صدقينى . سآتى . اطمئنى .

- لن أطمئن إلا إذا دفعت الخمسة جنيهات .

خرج ولد من أولاده ، يمسك سلكا رفيعا ليربط به الجونية الممتلئة داخل الشونة .

الولد يعرف توحيدة .. فقد رآها فى الحارة ، وفى بيتهم أيضا . حياها من بعيد . صاح عباس :

- توحيدة ، أرجوك . لا أريد فضائح هنا .

دخل الولد الشونة دون قول .

ـ هات الخمسة جنيهات وسأمشى .

أخرج محفظته المنتفخة وأعطاها الجنيهات الخمسة فى ضيق . ضحكت . ثم سارت .

★ ★ ★

الولد فى حاجة إلى حذاء ومريلة ، وكتب بدلا من التى مزقتها ورمتها فى جونية الورق .

اشترت له ما يلزمه . وأمسكته من يده وذهبت به إلى المدرسة .

المدرسة كبيرة يمتلكها شاب ممتلئ ، عينته الوزارة ناظرا لها ، رغم أنه لم يحصل إلا على الابتدائية . لكنه يمتلك المدرسة ، ويديرها من قبل أن تضمها الوزارة إليها .

أخرجت توحيدة خطابه المسجل من صدرها ، كان مكرمشا ، ممزقا من الأطراف ، والكتابة فيه ممسوحة من أثر العرق . مدت الخطاب إلى الناظر .

ـ ما هذا ؟

ـ خطابك .

نظر إليها شذرا . أراد أن يطلب الفراش لكى يخرجها . لكنها جلست فى برود شديد . وابنها مازال واقفا يرتجب من الناظر .

ـ ماذا تريدين يا امرأة ؟

ـ أن تعيد الولد إلى المدرسة .

حاول الناظر أن يقرأ ما فى الرسالة ، لم يستطع ، لكنه فهم المقصود منها :

ـ لن أستطيع ، لقد فصل وانتهى الأمر .

رفعت طرف ملاءتها عن كتفها . أظهرت الكتف الأسمر الممتلئ ، والناظر عينه زائغة . تعرف توحيدة ما يحكونه عنه فهو إذا ما أعجبته مدرسة عنده طاردها ، إما أن تستجيب وتصاحبه ، أو أن تتحمل مضايقاته لها .

ولقد أدخل مدرسات كثيرات فى مشاكل وصلت إلى الوزارة فى القاهرة .

تعرف توحيدة هذا من الأولاد الكبار الذين يذهبون إلى المدرسة . ومن النسوة فى الحى . فمعظم أولاد الحى فى هذه المدرسة . فهى فوق كونها كبيرة وتستوعب أعدادا كبيرة من الأطفال ، فهى أقرب مدرسة إلى الحى .

تابع الناظر كتفها وصدرها الذى أظهرته أيضا . وعينيها المكحلتين .

ـ لكن ذلك مخالف للتعليمات .

ـ أية تعليمات ؟

نظر إلى الولد الغاضب من عودته إلى المدرسة وقال :

ـ فى أى فصل أنت ؟

ـ الرابع .

ـ أين كتبك ؟

صاحب توحيدة :

ـ تمزقت ، فرميتها .

ـ أنت جريئة .

كان يود التخلص من سيد ، لهذا ، نادى الفراش وأمره بأن يدخل الولد فصله ويوصى المعلمة عليه .

★★★

لا تدرى توحيدة كيف تغيرت هكذا . لقد كانت تخاف وتخجل إذا ما رأت غريبا . نجاحها فى الايقاع بعباس الأعور ، وأخذ الأرض منه دون شئ ، شجعها على باقى الرجال . فلابد أن تعيش مادامت بلا معين لن تعتمد على زوجها الذى خذلها ، وأخيه الذى يقويه عليها ، وبعيدا عن أسرة النجعاوى الذين يتاجرون فى المخدرات .

لكنها لا تستطيع الاعتماد على عباس الأعور إلى الأبد . فالرجل يعطيها كارها وبعد عناء ، رغبة فى جسدها ، وخشية من أن تفضحه فى الحارة ، أو أمام شونته.

يمر الزبالون أمام بيتها بملابسهم المتسخة ، وعرباتهم وحميرهم ، يتجمعون

فى قهوة أبو دومة تراهم وهى تجلس فى مدخل بيتها . يبيعون ما يجمعونه أو يلاقونه فى الزبالة إلى التجار .

ويذهبون بأعقاب السجائر التى يجمعونها من الزبالة . إلى امرأة بدينة كذب ، تجلس خلف عمود السوارى ... تضع طشتا صفيحيا فوق النار تسوى الدخان ، ثم تجمعه فى لفائف كبيرة . وتبيع الواحدة بخمسة قروش .

حكى أحد الزبالين لتوحيدة عن مكسب هذه المرأة البدينة ، وأنها تضع فى ذراعيها أساور ذهبية تزن اقة أو أكثر . قالت توحيدة لعباس الأعور ، بعد أن اختارت وقتا كان فيه صافيا وراضيا عنها :

- ماذا لو اشتريت الدخان من الزبالين عملائك .

- وماذا ستفعلين به ؟

- أبيعه للمدخنين .

- لا . لن تصلحى لهذا . كما أنك لا تملكين نقودا للشراء .

- أنت الخير والبركة .

- توحيدة ، إننى لست بنكا لك .

- سأسدد لك ما تدفعه لى .

- والأرض التى أخذتها غدرا ؟

- لم آخذها غدرا . بل دفعت ، ومازلت أدفع .

قام فزعا . وأمسك حذاءه ليلبسه .

- أرسل لى عملاءك الزبالين . والا سأذهب لأقابلهم فى شونتك .

- لا أدرى من أى مصيبة وقعت على ؟!

- لو فقدتنى ستفقدنى .

- لن أدفع أكثر مما أدفعه لك .

ورمى النقود التى يدفعها كل مرة وخرج مسرعا .

لكن توحيدة اختمرت الفكرة فى ذهنها وانتهى الأمر . ولابد أن تسعى لتحقيقها. الزبالون الفقراء لا يصلح معهم ما تفعله مع عباس الأعور . أو ما فعلته

مع ناظر مدرسة سيد ابنها . فالزبالون لن يفرطوا فى القروش القليلة ، ثمن أعقاب السجائر التى يجمعونها من الزبالة .

شدت ملاءتها التى تلمع ، وذهبت إلى شارع (٨) ، عندما رآها عباس تدخل الشارع وقف مهموما ... أراد أن يهرب منها . لكن إلى أين . وأولاده يعملون فى الداخل . ومن الممكن أن تتحدث معهم ، وتكون سببا فى إثارة زوجته الحاجة عليه.

- ايه يا توحيدة .. ماذا تريدين ؟

- لم أحضر من أجلك .

- ستزورين أقارب لك فى الشارع ؟

- لا . سأتفق مع زبالينك على شراء الدخان .

تجمع الزبالون الموجودون حولها . قالت :

- سأدفع لكم أكثر مما تدفع المرأة البدينة التى تسكن خلف عمود السوارى . وبيتى فى شونة عباس القديمة ، فى مواجهة بيته الحالى .

ابتسم الزبالون لها ، وأقسموا أن يأتوا إليها بدخانهم . فهى أولى من غيرها .

وعباس يدفعها برفق :

- كفى يا توحيدة سأرسلهم إليك بنفسى .

انصرف الزبالون عنها ، دخلوا الشونة لممارسة أعمالهم . وعباس الأعور يصيح :

- ألا ارتاح منك ؟!

- أريد أن أكسب مثلما تكسب .

- كفى يا توحيدة وعودى إلى بيتك . وكل زبال يأتى إلى ، سأرسله لك .

- ومن أين سأدفع لهم ؟

- وما ذنبى ؟!

- عباس . ساعدنى برأس المال . وسأعطيه لك بعد أن أكسب .

- فى المساء سأعطيك ما تشائين . المهم أن تذهبى الآن .

توحيدة تبحث لابنتها عن زوج

عندما عاد عبدالحميد ـ زوج توحيدة ـ كانت هى قد امتلكت البيت واغتنت من تجارة الدخان .. لم تبعه لفائف ـ كما تفعل المرأة البدينة خلف عمود السوارى ـ بل سافرت بنفسها إلى أبى المطامير وكوم الحنش مع الولد سيد ليساعدها فى حمله. باعته هناك ، فسوق الدخان اللف فى القرى أوسع . فمازال الناس هناك يعتمدون على السجائر اللف .

جاء عبدالحميد مهدما . بعده عن توحيدة هده . هو لم ينسها قط . لكن شقيقه أقسم إن لم يطعه فى هذا ، فلن يعتبره أخاه وسيتبرأ منه .

وأطاعه عبدالحميد . نام فى بيته . لم يكن مرتاحا هناك .

فى الصباح يطوف بالفانلات على القهاوى والمحلات . يجر ساقيه ، فتتدلى الفانلات من بين ذراعيه ، تكاد تقع وفى المساء يدخل البيت خجلا . رغم أن زوجة أخيه ـ كافأها الله ـ لم تقصر فى خدمته . ويزداد خجله عندما يأتى والد زوجة أخيه وأسرته ، فيتوارى ولا يخرج من حجرته . ينام فى القهاوى . ويعود بالفانلات وقد اتسخت من مسكة يده لها .

بكى يوما لأخيه :

ـ الولد والبنت يجمعان الورق من الشوارع ، رأيتهما بعينى .

صرخ فيه :

ـ ماذا تريد بعد أن قالت لك « إنك لست رجلا » ؟!

ـ عفا الله عما سلف .

أخوه اغتنى ، وارتاح وترهل جسده من الراحة . وما عاد يهتم بغيره .

إذا ما تقابل عبدالحميد بأبو الحمد (زوج فريدة أخت توحيدة) يخفى وجهه بعيداً عنه ، يتظاهر بعدم رؤيته ، خشية أن يحدثه فى أمر الإصلاح بينه وبين توحيدة . وهو يعرف انه لن يقدر على مخالفة حسان ، الذى لا يوافق على ذلك .

لكن حسان وافق أخيرا ، بعد أن ألحت عليه زوجته وأهلها .

عاد عبدالحميد ليجد توحيدة قد تغيرت وكأنها امرأة أخرى . جسدها امتلأ قليلا . وصوتها صار أكثر حدة .. تصرخ فى الزبالين الذين يتعاملون معها . وفى النسوة اللاتى يجلسن فى بيتها لازالة القشرة والفلتر عن أعقاب السجائر . لكنها ازدادت جمالا . لم تعد تنعي حظها معه . تتعامل الآن وكأنه لم يعد من غربته . لاتصرخ فيه ولا تحادثه إلا إذا اضطرت لذلك .

وقنع هو بهذا . يعود بفانلاته ، يرميها فى الكوخ البعيد ويستلقى فوق الفراش إلى أن تأتى له الزينة بلقمة يأكلها فتوحيدة مشغولة بعملائها الكثيرين .

منذ أن عاد عبدالحميد لم تتعامل معه كزوج . إلا مرات قليلة ، وكانت فيها باردة وكأنها قد ماتت . لكن هذه المرات أثمرت عن ابنتها الثانية « نانا » التى جاءت مثل والدها نحيفة وقصيرة ، لم تأخذ من أمها سوى لونها الأسمر .

★★★

مشكلة توحيدة الآن هى ابنتها الزينة، البنت كبرت ، ولم يأت خاطب واحد للزواج منها .

لم تكن جميلة كأمها (خسرت توحيدة كثيرا بزواجها من عبدالحميد . فالبنتان أخذتا منه الدمامة والقصر).

عندما انتبهت توحيدة لهذه المشكلة أمسكت بالزينة وجعلتها تكثر من الاستحمام . وتحسن من اختيار الملابس وجعلتها زبونة دائمة لدى عزيزة الخياطة وألحت عليها بأن تتعود على لبس الحذاء العالى لتخفى قصر قامتها ثم اصطحبتها إلى الافراح . فقد تعجب بها امرأة فتطلبها لابنها أو أخيها .

ورصدت توحيدة الداخلين اليها بالدخان أيهم يصلح لها زوجا . توصلت لعدد كبير من المتعاملين . ثم ركزت على ثلاثة منهم :

الأول : ابراهيم الفقير الذى يعمل صبيا لدى زبال كبير فى الحى . يترك له الرجل كل شئ ، فيكسب ابراهيم كثيرا . عيبه الوحيد هو شربه الخمر فى بارات شارع العطارين ، يعب من الخمر حتى يسكر .

وقد طلعت فى دماغه مرة أن يواجه الترام وان يتحداها ويصدمها بجسده . وظن أنه قادر على ايقاف عجلاتها وانتظره بالفعل فى شارع راغب باشا . ولولا أن السائق كان حاذقا وماهرا لقتله وفرمه تحت العجلات . لكن الحادثة أدت إلى أن يتكسر جسده خاصة صدره الذى أصبح شركا طوال عمره .

الثانى : ابن الرجل الضرير الذى يسكن كوخا ملاصقا لبيت توحيدة ومازالا يستخدمان مرحاضا واحدا ، بعد أن أدخلت توحيدة المياه ووسعت المرحاض .

وأدركت توحيدة أن ذلك الولد يصلح للزواج من ابنتها . فهو يعمل فى مصنع معسل سلوم بأبى الدرداء ... ولا يدخن ولا ينفق مليما خارج البيت .

تشترى أمه له مع اخوته ملابس من الساعة بالكيلو . فتراهم جميعا يرتدون قمصانا من لون ونوع واحد .. وبيجامات متشابهة . وتعد له طعامه فى الصباح ، أى سندوتش كان ، حتى وإن كان طبيخاً .

الولد واع ، واستطاع أن يدخر مبلغا لا بأس به .. وتنازلت توحيدة من أجل ابنتها وأذلت نفسها وحدثت أمه بأن يزوجوهما ويرتاحا . لكن المرأة رفعت أنفها واستعلت . وكأن ابنها ليس له مثيل .

لكن الذى جعل توحيدة تصرف نظر عن هذه الزيجة هو احساسها بأن الولد لا يرغب فى الزواج من ابنتها .. خافت أن تعيش ابنتها فى مأساتها التى عاشتها مع عبدالحميد .

الثالث : عوض بن حلمى ، صديق سيد . وكان زميله فى شركة الغزل بكرموز. هو يصغر الزينة بعام أو عامين ووجهه ليس جميلا .

لم تتعب توحيدة معه . فالولد يأتى اليهم كثيرا ، ليسأل عن سيد ، خاصة عندما يكونان معا فى وردية واحدة فى شركة الغزل .

ينتظر سيد حتى يرتدى ملابسه ، ويذهبان إلى العمل . هو ملتزم بعكس ابنها سيد لا يتغيب كثيرا عن الشركة . كما أن توحيدة تعرف مدى حاجته إلى المال .

فهو ينفق على أمه وإخوته . أبوه لا يعمل عملا ثابتا وإذا ما عمل يوما ، ينام قصاده عشرة فى البيت .

قربته توحيدة إليها . ثم فاتحته فى موضوع الزواج :

ـ لن تكلفك شيئا . لا قرشا ولا عشرة . وسآتى لك بعفش لم يدخل بيتا من بيوت غربال .

قال :

ـ موافق .

الليـــل الطـويـــل

تتابع الزينة الحارة من شرفتها . الأنوار تشع فى كل ركن فيها . فوانيس مدلاة من الشرفات والنوافذ ، وفي وسط الحارة . مضاءة بلمبات داخلها . ورايات من الورق والقماش صنعها الأطفال احتفالا بقدوم المولد النبوى الشريف وتمثال معلق أمام بيت توحيدة ، صنعه ولدها سيد . حشا بدلة من بدله العسكرية بملابس قديمة وبالقش ، وألبسه خـــوذة قديمة . وعلق على كتفه بندقية من التى يجدها الزبالون فى زبالتهم . فبـــدا التـمثـــال ـ من بعـــيد ـ كجندى حقيقى يشهر سلاحه .

سمعت الزينة صــوت زوجها فى الداخل يطلبها . فأشاحت بيدها فى ضيق .

الشارع العمومى مضـاء أيضا من أول الجبل الذى يعلوه وحتى منتصفه . وأضـــاء البقـــال لمباته المعلقة فوق بابه من ناحية الحارة ، وأضاء أبو دومة كل لمباته النيون خارج القهوة ، هذا غيـــر فرع نور مده الكهربائى فوق التندة القماشية .

جو الحارة يغرى بالسهر . وزوج الزينة ـ عوض ـ يستعد للذهاب إلى عمله فى وردية الحادية عشرة . سيقضى اللية خارج البيت .

كم تحب الزينة هذه الوردية وتنتظرها ، وتحسب الأيام لمقدمها . ففيها تنام فوق فراشها وحدها ، ترتاح من عناء مرافقتها لعوض. وتتمنى لو يعمل الأيام كلها فى هذه الوردية .

دخل عوض الشرفة وهو مازال يشد قميصه فوق جسده . أتته الأصوات الصاخبة من الحارة . لولا ضرورة الذهاب إلى العمل الليلة ، لبقى وشاهد الاحتفال الذى لا يحدث إلا مرة واحدة فى العام . لكنهم فى العمل سيصرفون أجور العمـــال . وان لم يذهب فستضيع عليه أمواله التى يجمعها من المشترين . فقد أعطته توحيدة رأس المال الذى يعمل به . قال عوض :

ـ سأتأخر فى الصباح قليلا . سأنتظر عمال الوردية الصباحية .

تمتمت الزينة :

ـ ليتك لا تعود ابدا .

دخل عوض ليكمل ملبسه . وانشغلت هى بالحارة وما يحدث فيها . سعد صديق أخيها سيد وصديق عوض زوجها يسير أمام عينيها . يمازح الولد حسن ابن عزيزة . كادت تناديه « سعد ، سعد ، » لكن زوجها قد يسمعها ويأتى غاضبا. لا بأس ، فأقل من نصف ساعة ويخرج إلى عمله .إنها تنتظر ذهابه بفارغ الصبر.

يقف سعد مع حسن بجوار دكان البقال . ينظران ناحية شرفة كريمة ابنة عباس الأعور التى تطل على الشارع العمومى . تحركت الزينة فى شرفتها الضيقة وكأنها حيوان محبوس فى قفصه يبحث عن طريقة للنفاذ منه .. لاتستطيع الزينة رؤية كريمة من مكانها . لكن لا شك هما يشيران إليها ، فالبنت تدرس فى مدرسة . وتخرج كما تشاء من بيتها . وقد يفضلها سعد عليها .

سمعت الزينة عوض يناديها من الداخل . فأشاحت بيدها . لكن الصوت ازداد علوا . ليس مهما فقد اقترب موعد خروجه . ولن يعود إلا صباحا . وستتفرغ هى لسعد . نعم . لن تتركه الليلة .

★★★

صعد سعد وحسن بن عزيزة الجبل . أقل من نصف ساعة ويكون عباس الأعور قد ذهب إلى أصدقائه فى الابراهيمية ليسهروا حتى الصباح . ويفترق حسن عن سعد . فموعد حسن مع كريمة الليلة . البنت كريمة وجهها جميل ... وجسدها نحيف بعكس أبيها وأمها الحاجة .

أقامت البنت علاقات كثيرة مع العديد من شباب الحى ، خاصة المتعلمين منهم. لكن الولد حسن يكذب هذا . ويؤكد أنها لم تحب سواه . وكل ما يقولونه عنها كذب فى كذب وحقد من الذين أرادوها ولم يستطيعوا الوصول إليها .

قال حسن :

– ماذا ستفعل عندما أذهب إلى كريمة ؟

– لا أريد أن أعود إلى البيت مبكرا .

وقفا معا فوق الجبل (أقامت البلدية ثلاث حدايد وسلالم بازلتية لتفادى وقوع العربات أسفل الجبل وهذا ما كان يحدث كثيرا من قبل) .

بجوار الحدايد الثلاث دكان الشيخ عاشور المتزوج من امرأة بيضاء جميلة ، وجها وجسدا . تقف فى الدكان تبيع الحلوى والبقالة . بينما زوجها منشغل بقراءة القرآن فى السرادقات وفى البيوت .

بجوار الدكان – من الناحيتين – قطع رخامية تجلس المرأة وزوجها عليها ، وبعض معارفهما . يتحدثون ، ويشربون الشاى خارج الدكان .

ذهب سعد وحسن اليها ، جلسا . نظرت اليهما المرأة وابتسمت . كانا يتحدثان فى أمور بعيدة عنها .. (لايستطيع سعد أن يتحدث مع حسن فى أمر هام . كل همومه منحصرة فى بنات الحارة والنسوة اللاتى يأتين إلى عزيزة الخياطة – زوجة أبيه – فيتابعهن من خلف الباب الموصد ، ومن فتحة المفتاح دون أن يحسسن به فعزيزة تمنعه من الجلوس معهن) .

تخرج المرأة من الدكان بردائها الريفى ، وطرحتها السوداء المنسجمة مع وجهها الأبيض الرائق .. ساقاها تلمعان . تهتم هى بزينتها ونظافة جسدها .

تسير المرأة خطوات قصيرة للناحية الأخرى ، لتضع الأكل للخروف المعقود هناك . وتتابع الدجاج الذى يتحرك فى حرية أمام الدكان . ملتقطا ماتبقى من الحبوب التى تبيعها فى الدكان .

المرأة لم تنجب : يقولون إن زوجها هو السبب . وإنها أصيلة ؛ فلم تعترض ، وعاشت معه رغم ذلك .

يريان من جلستهما بجوار الدكان الأنوار الساطعة فى شارع «راغب باشا» القريب ، ويسمعان أصوات مكبرات الصوت المعلقة فوق الأعمدة المزدانة بالرايات

والأنوار الكثيرة هناك . فالليلة يحتفل حى «غيط العنب» بالمولد . والأحياء المجاورة تشاركه الاحتفال أيضا .

فى غيط العنب أغنياء الإسكندرية ، الذين يمتلكون المئات من رؤوس المواشى . فيجمعون النقود من بينهم . ويأتون بقارىء شهير ليقرأ فى السرادق الكبير الذى يقيمونه بعد كوبرى راغب باشا.

تابع سعد ساقى المرأة اللتين تلمعان . تزحزح وهو جالس حتى صار قريبا من الحيز الضيق الذى تمر فيه ، من الدكان إلى الخارج ، أو العكس .

عندما عادت تظاهر بالحديث مع حسن . طرف جلبابها لمس ساقيه . أحست بأنه اقترب بجسده من منطقة مرورها الدائم . نظرت اليه مبدية اعتراضها . قال حسن :

- ماذا بها ؟

- لاتهتم .

قالت من الداخل :

- ماذا تريدان ؟

قال سعد بصوت خافت :

- لاتجيبها .

لكنها سمعته ، فصاحت غاضبة :

- اذهبا إلى شارع راغب ، لتشاهدا الاحتفال .

قال سعد :

- شاهدته العام الماضى .

خرجت المرأة ثانية فى طريقها إلى الناحية الأخرى . مد سعد يده وشدها من طرف جلبابها . فصاحت :

- اعقل يا ولد يا سعد .

لم يجبها . تحدث مع زميله وكأنه لم يفعل شيئا .

عندما عادت لمت جلبابها ودخلت . قال سعد :

– المرأة جميلة وشهية .

– لكنها وفية لزوجها .

– هذا عيبها .

وجه المرأة مستدير . عيناها زرقاوان . وشعرها ينسدل تحت الطرحة حول الجبهة . والعينان مكحلتان دائما مما يعطى للوجه جمالا أخاذا .

زوجها – فوق أنه عقيم – أصيب بالبهاق . فغطى اللون البنى أجزاء من الوجه واليدين . فبدا وجهه وجسده مبقعين . قال سعد لها :

– أين الشيخ عاشور زوجك ؟

– وما شأنك ؟

– ذهب ليسمع مصطفى إسماعيل فى السرادق ؟

قال حسن بن عزيزة لإثارة غضبها :

– يريد أن يقلده فى قراءته .

صاحت غاضبة :

– زوجى قارىء على قدره . وهذا نصيبه .

قال سعد فى أسى :

– ونصيبك أنت أيضا .

خرجت من مكانها . أنساها غضبها أن تلم طرف جلبابها . فلمس الجلباب ساقى سعد ، بل التصق جسدها بجسده .

– سعد . إذا أردتما الجلوس هنا . فاحفظا أدبكما .

– حسن لايقصد الإساءة .

عادت إلى مكانها . وقفت خلف البنك تتابعهما ، وهما يحاولان إخفاء ضحكهما . قال سعد :

– لكن . أنت سهرانة الليلة أكثر من اللازم .

- اتفقت مع الشيخ عاشور على أن أنتظره حتى يعود . لكن من أجلكما سأغلقه الآن .

وقف سعد :

- بل سنتركه لك . لتنتظرى شيخك كما تشائين .

وقفا لحظات أمام الحديدة التى تتوسط الحديدتين الأخريين ، ليكملا ضحكهما. قال حسن :

- مضطر لمفارقتك الآن . فأكيد والد كريمة خرج من البيت .

- سأقف هنا وحدى .

هبط حسن عدة درجات ثم عاد إليه ثانية .

- ماذا ، أتظن أن المرأة ستلين لك .

- اذهب إلى فتاتك ودعنى .

أسرع حسن هابطا الدرجات وهو يقفز قفزا .

★★★

وقف حسن فى مواجهة بيت كريمة . قهوة أبو دومة مزدحمة أمامه أكثر من كل ليلة . الأطفال يلعبون أمامها يعرف حسن البقال . يتحدث معه كلما جاء لشراء شىء منه . الرجل غاوى سياسة بطريقة تجعل الكل يتندر عليه. كل مشتر يسأله عن حربنا مع اليهود . انتهت أم لا . وهل حقا . أن سنة ٧١ سنة حاسمة كما يقول الرئيس ؟ . ويتحدثون فى أشياء أخرى كثيرة . وخاصة إذا كان المشترى متعلما ، ويجيد قراءة الجرائد .

وقف حسن أمام البقال . وهو يراقب شرفة كريمة . والبقال ينشغل أحيانا بزبائن يأتون إليه من الباب الآخر (من ناحية الشارع العمومى) فجأة وجد حسن البنت كريمة تضع يدها فوق رأسها ، إشارة منها بأنها تريد أن تحدثه . استأذن من البقال الذى كان يحكى له . ولم يكمل حكايته .

وجد حسن الفتاة تقف فى دخلة البيت الواسعة بجوار السلم . أسرع إليها .

قالت :

– كنت أخاف أن تأتى كما اتفقنا .

– ماذا حدث ؟

– لن يذهب أبى إلى أصحابه فى الإبراهيمية .

– لماذا ؟

– سيسمع الشيخ مصطفى إسماعيل فى غيط العنب .

– نصعد إلى السطح إلى أن يعود .

– لا أستطيع . فالحى كله ساهر الليلة . كما أنه قد يأتى فجأة .

ينام شقيق كريمة – أحيانا – فى الشونة بشارع (٨) . أو يسافر لإنهاء بعض المتعلقات بعمل والده . وأمها الحاجة تنام مبكرة . وتبقى الفتاة ساهرة وحدها فى البيت . إذا ما ذهب والدها إلى أصدقائه تقابل حسن – عادة – فوق السطوح ، يجلسان فى الظلام ، أو تدخله البيت مطمئنة لنوم أمها العميق وعدم رجوع أخيها من الشونة . لكن الليلة لن تستطيع أبدا .

أسرع حسن إلى الخارج خشية أن يراها أحد معها . لم يذهب إلى البقال ليكمل حكايته . أسرع إلى الجبل قبل عودة سعد إلى بيته . وجده يقف أمام المرأة يتحدثان . ابتعد سعد عن الدكان عندما رآه آتيا :

– ماذا . لم تجد الفتاة ؟

قال خائبا :

– لن يذهب أبوها الليلة إلى أصدقائه :

– كادت المرأة تلين . عودتك المفاجئة أفسدت كل شىء .

تابع سعد المرأة وهى تتحرك . بيتها قريب جدا من الدكان . تذهب إليه بجلبابها وطرحتها وشبشبها الذى تطرقع به فوق الأرض .

دفعت الخروف داخل الدكان . ولمت دجاجها أيضاً . تركت الحظيرة خاوية أمام البيت المقابل وأطفأت أنوار الدكان إيذانا بانصرافها . أسرع سعد إليها :

- ألن تنتظرى الشيخ ؟

- لا .

كانت تحدثه ببرود . وتتفادى لمسات يده وجسده لجسدها .

- سأساعدك فى غلق باب الدكان .

لاتستطيع هى أن تشد الباب الصاج الثقيل وحدها . تنتظر كل ليلة أن يجىء الشيخ عاشور ليساعدها فى غلقه .

حملت بعض أشياء لتعود بها إلى بيتها . وابتعدت ليغلق سعد وحسن الباب .

★★★

عادا ثانية إلى أسفل الحارة . قال حسن :

- المرأة أغلقت الدكان لتعطيك الفرصة لمقابلتها فى بيتها . قبل عودة الشيخ .

- لا . إنها لاتقصد هذا .

واجههما الجندى المعلق أمام بيت توحيدة . قال سعد :

- ربنا يمسيك بالخير ياسيد .

(منذ سنوات طويلة احتفل المسلمون فى غيط العنب بالمولد النبوى الشريف على المستوى الذى يحدث الآن . وكان الدافع لذلك وجود الأقباط بكثرة هناك . والتنافس فى الاحتفالات الدينية بينهما فالأقباط يحتلفون - أيضا - بمولد القديس مارى جرجس ، ويقيمون الزينات والأنوار فى الحى كله . وفى شارعى راغب باشا وإيزيس . لكن بعد حرب ٦٧ اهتم الناس فى غيط العنب والأحياء المجاورة بتعليق تماثيل الجنود والدبابات والمدافع . إلخ بدلا من تعليق الفوانيس الورقية) .

وعندما وصل سعد وحسن إلى بيت توحيدة . صاحت الزينة من شرفتها وفى صوت حذر :

- سعد . أريدك .

النوافذ والشرفات حول بيت توحيدة مظلمة . والحركة تزداد في بؤرة الضوء (بيت قهوة أبو دومة ودكان البقال) .

نظر سعد إلى أعلى وصاح :

– سأنتظرك لدى البقال .

قال حسن الذى كان قد ابتعد عندما رآها تحدث سعد :

– ماذا كانت تريد منك ؟

– لا أعلم .

وقفا أمام البقال الذى كان يعد الأرغفة المتبقية عنده ، والتى سيعيدها إلى المخبز ثانية – لمعاودة بيعها بسعر أقل – قال :

– ألم تسمعا الأخبار ؟

قال سعد :

– ماذا حدث ؟

– أقال السادات وزير الداخلية .

– حقا ؟!

– أذيع النبأ فى الراديو .

وأخذ البقال يحلل الموضوع . ويتساءل عن رأيها فى قوله ، حتى جاءت الزينة ترتدى ملاءة أمها التى تلمع . فليس لدى الزينة وقت لكى تعد نفسها للخروج . فتلبس الفستان والحذاء العالى :

– مساء الخير .

تراجع سعد إلى الخف . وحل حسن محله فى الحديث مع البقال .

يظن سعد أن الزينة تريده فى أمر يخص سيد صديقه وشقيقها . أن يكتب له رسالة فى الجيش . أو يتصل بأحد من زملائه يكون فى إجازة الآن . لكن الزينة لم تضيع وقتا . فأمسكت يده بيدها التى تمسك طرف الملاءة .

– أريدك ياسعد .

– تحت أمرك .

– لا ، أريدك في شقتي . لدى حديث طويل . وعوض زوجي في عمله الآن .

نظر سعد حوله حائرا :

– لكن ....

– أرجوك . سأعود وتأتي أنت بعد لحظات، أدخل البيت لا تخش شيئا . فالحارة كلها تعرف أنك صديق سيد وتدخل بيته في حضوره وغيابه .

– نعم .

عادت وهي تنظر إليه مبتسمة من وقت لآخر . لو رآها أحد هكذا لأدرك دون عناء مدى حبها لسعد. وقف لحظات ، وحسن منشغل تماما مع البقال الذى يحكى عن العلاقة بين السادات ومساعدى عبدالناصر القدامى أسرع سعد إلى البيت . دخله وقلبه يرتجف من الخوف . ماذا لو رأته أمها توحيدة . صاعدا الدرج إلى الزينة في غياب زوجها . ماذا سيقول لها .

لكن حجرات توحيدة كانت مغلقة . وضوء خافت يخرج من بين الدرفتين . صعد الدرج مسرعا . لم يدق الباب لقد صعد إلى هذه الشقة في الأسبوع الأول لزواج عوض منها . دعاه هو وسيد وحسن بن عزيزة إلى مأدبة غداء . كان عوض يرتدى بيجامة بيضاء ، ووجهه يلمع من الفرحة .

أتاه صوت أحد عملاء توحيدة الذين يبيعون الدخان لها . كان يتحدث بصوت مرتفع (يبدو أنه خارج من شقتها بعد أن باع الدخان) وهي خلفه تودعه ، تحدث عن استقالة وزير الداخلية وعن الفوضى التي ستحدث بعد ذلك .

– قد تأتي أمك فجأة .

– اطمئن . لن تأتي .

أغلقت الزينة الباب . كانت ترتدى قميصها الذى يشبه ملابس الخروج التى ترتديها قريباتها النجعاويات اللاتى يذهبن بها إلى الحفلات . لكن الزينة الآن تعلمت من عزيزة الخياطة ، ومن البنات المتعلمات في الحارة .

- سعد . لماذا لا تأتى لزيارتنا ؟

- تعلمين أن عوض لم يعد صديقنا الآن . فقد انشغل عنا بتجارته .

- لا أريدك أن تأتى لعوض . لكن من أجلى أنا .

«يجب أن تعترف الآن بأنها قد أخطأت عندما وافقت على الزواج من عوض . أخافتها أمها من المستقبل» .

«أنت كبرت . الحقى القطار قبل أن يفوتك .. الخ . جعلتها تخاف من أن «تعنس» . ليتها بقت كما هى و«تعنس تعنس» . سعد الذى أحبته كثيرا كان بعيدا عنها ، ولم يبد اهتماما بها ، رغم كل ما فعلته لتلفت انتباهه . تبتسم له . وتترك يدها بين أصابعه عندما يصافحها ، إذا ما جاء لزيارة أخيها سيد . وهو ولا هو هنا . قالت أمها لها :

- عندما يجىء الولد سعد يركبك ألف عفريت ، تجنين .

أحست بالخزى لأن أمها لاحظت ما يحدث ، وكشفت عن شعورها الذى تخبئه، قالت الأم :

- سعد لن يتزوجك .

- لماذا ؟

قالتها فى أسى وكره لأمها :

- لأنه يدرس فى مدرسة ......

ثم قالت فى ضيق ، ودفعة واحدة لتنتهى :

- وأيضا . لأنه يصغرك بعدة أعوام .

تصرفت الزينة وقتها بعصبية رمت الأشياء فى طريقها وبكت . انها لم تحب سواه. منذ أن كانت طفلة تلعب فى الحارة وهى تحبه . لكن أمها هى السبب . تجارتها فى الدخان ومطاردة الشرطة الكثيرة لها ، وسيرتها وشجارها الدائم مع النسوة ، والرجال أيضا . جعل الكل يخافها . ولا يفكر فى مصاهرتها . لا ليس كما تقول هى .

هو حقا أصغر منها . لكن يبدو بجسده الكبير وكأنه هو الأكبر . كما أن دراسته ليست عائقا قط ..

وقتها ، مصمصت توحيدة شفتيها أسفا على نفسها وعلى ابنتها . دارت الأيام. وما نابها ناب ابنتها أيضا . لقد أحبت هى حسان . شقيق زوجها . وأخلصت له. ولم يعطها اهتماما . وهاهى ابنتها الخائبة تحب ولدا لن تكون له زوجة أبدا . فتوحيدة تعرف أهله . يعاملونها بود وحذر . لكن لايصادقونها .. ولا يصاهرونها . كما أن الأولاد الذين تعلموا فى المدارس وأمسكوا بالكتب فى ذهابهم وإيابهم ، لاتعجبهم بنت مثل ابنتها . قد يقضون معها بعض الوقت للتسلية أو المتعة . لكن لايتزوجون منها أبدا .

اقتربت الزينة منه . أصوات الأطفال فى الشارع تزداد علوا . الأضواء الباهرة فى الحى تدفعهم للسهر . تلك الليلة لا تأتى إلا مرة فى العام . ليغتنموا الفرصة ويلعبوا كما يشاءون .

– سعد . انت تعرف مدى حبى لك .

– زينة . أرجوك .

يحس بالوحدة . سيد مجند الآن . ويقابله مرة كل شهر ونصف (معظم شباب الحى فى الجيش الآن ... بعضهم مضى عليه فى الجيش أكثر من ثمانى سنوات) وعوض انصرف عنه وكأنه قد كبر فجأة . وهو يدور فى حوارى غربال دون هدف . كتبه الدراسية مكدسة فوق المائدة التى يستذكر عليها . وكتب أدبية كثيرة ملقاة فى كل ركن من الحجرة . جو الشقة خانق . والده منشغل بزوجته وأولاده منها ، كأنه يعيش بعيدا عنه .

كل ليلة يغلق باب حجرة النوم عليه وعلى زوجته . ولا يحس بما يحدث خارج الحجرة . لايعرف فى أية مدرسة هو ولا فى أى سنة . حتى عندما رسب فى العام الماضى ، لم يحس والده بذلك .

لديه إحساس بأنه سيرسب هذا العام أيضا . ويؤكد هذا الإحساس موقف

المدرسين منه . هو لايشترك فى الحوار معهم . يقرأ كتبه الأدبية وهم يشرحون الدروس . بعد أن يأسوا منه تركوه وشأنه .

ينام بعد جهد . مطمئنا نفسه بأن رسوبه ليس بمشكلة . فسيد وعوض صديقاه يعملان فى شركة الغزل دون أى مؤهل دراسى . من الممكن أن يفعل مثلهما .

مدت الزينة ذراعها العارية، طوقت رقبته :

– أنت أفسدت حياتى مع عوض .

صاح غاضبا :

– أنا ؟ كيف ؟

عوض كان أقرب إليك من سيد وحسن بن عزيزة . كنتما تختلفان كثيرا . يعارضك أحيانا . بعكس سيد وحسن اللذين يوافقانك على أى شىء تقوله أو تفعله. لكن عوض كان محقا فى الكثير مما قاله . لقد قال يوما وأنتم سائرون فى محطة الرمل وبجوار سينما فريال إن إسرائيل أقوى منا . وكل مايقال عن ضعفها وقوتنا من قبيل الدعاية الداخلية لا أكثر . قال هذا قبل حرب ٦٧ . وقتها ثرت أنت فيه ، وسخر سيد منه ، واكتفى حسن بمتابعة البنات فى ميدان محطة الرمل . إلى أن تركتم عوض وحده عقابا له عما جناه فى حق الجيش .

وظللتم هكذا لعدة شهور . دخل عوض فيها الجيش . وجاءك ذات يوم . وكنت تقف مقضيا وقتك فى المزاح وتضييع الوقت بلا طائل . عندما جاءك عوض لم تتعاتبا أو تتعانقا . كل ما قاله – محاولا اخفاء ابتسامة – اتبعنى .

وأعطاك وقتها كتبا كثيرة . كان قد اشتراها من الإسكندرية . وزادها بعد أن عرف باعة الكتب القديمة فى الأزبكية . لكن والده صرخ فيه وأمره بأن يتخلص منها لأنها تجلب الفئران والحشرات إلى حجرتهم الوحيدة والصغيرة . يومها ، نقلت الكتب إلى بيتك على عدة مرات .

– سعد ، لماذا لم تتقدم للزواج منى ، بدلا من عوض ؟

– إننى لم أنته من دراستى للآن .

– لو وافقت ، لكانت أمى أنفقت عليك من نقود الدخان إلى أن تنهى دراستك .

– آه ....

– سأطفىء نور الحجرة التى تطل على الشارع ، ليظن الناس أنى قد نمت . ما رأيك ؟

– فى أى شىء ؟

– تعال لتراها .

سارا إلى حجرة النوم . الشرفة مغلقة . لو فتحت الآن سيراه الجيران المقابلين للبيت ، وستكون فضيحة ليس لها مثيل .

سعد لايجد ما يفعله . تصرفاته مع المرأة الريفية زوجة الشيخ لم يكن يقصد منها شيئا . فهو يعرف أنها وفيه لزوجها . وحتى لو أرادته سيهرب منها . كل ما يفعله هذه الأيام هو متابعة أخبار المحبين فى الحارة والحى كله . وقد تغير الوضع. فتيات كثيرات انتقلن من التعليم الإبتدائى إلى الإعدادى والثانوى ، وهذا لم يكن يحدث من قبل . يغتسلن كثيرا ويلبسن الحذاء . ويسرن بحرية فى محطة الرمل والمنشية .

– اخلع ملابسك .

أصوات الأطفال فى الشارع تأتيه من خلال الشيش المغلق ، خافتة :

وقع منى شلنين .

فى الحتة داهية شلنين .

قولوا معايا شلنين .

تحسس الفراش الناعم تحته . والبنت الزينة تتلوى بجواره . وصور معلقة لها ولعوض . بدت هى ناشفة وفى زينة تثير السخرية . وعوض أنفه أكبر من المعتاد . وعيناه متورمتان . واختلطت الأصوات فى الحارة : صوت خافت يأتى من شارع

راغب باشا البعيد . لا يتضح إن كان صوت الشيخ مصطفى إسماعيل ، أو أدعية تقال بعد أن ينتهى من قراءته . أو أصوات استحسان من المستمعين . وصوت الأطفال الذين يلعبون ويبحثون عن الشلنين الضائعين وتعليقات المارة عن الحرب وعن استقالات الوزراء .

عندما خرج سعد من البيت . كان يرتعش من البرد ومن الخوف . والبقال يغلق دكانه . وحسن ليس له أثر فى الحارة كلها . وأبودومة قد أطفأ أنوار مقهاه. بعد أن انتهت احتفالات غيط العنب بالمولد النبوى الشريف .

قال البقال :

– أين كنت . لقد بحث حسن عنك طويلا .

– نعم .

– تابعت ماحدث ؟

– عن أى شىء تتحدث ؟

– لقد استقال وزير الحربية ، والإعلام ....

لم يكمل الرجل قوله . وقال :

– ماذا بك . هل تحس بشىء ؟

– لا . لا .

وأسرع سعد إلى بيته .

لقــاء هنــاك

شاء الله أن تحمل عزيزة الخياطة ، حدث هذا فجأة بعد أن فقدت الأمل فى الإنجاب . فقد عاشت مع زوجها السابق عدة سنوات دون أن تنجب ، ومع حسين زوجها الحالى عدة سنوات أخرى ولم تنجب أيضا ، حتى أيقنت بأن العيب فيها، وأن الإنجاب لن يحدث أبدا .

كاد زوجها يجن من الفرحة ، وألح عليها بأن تدخل ماكينة الخياطة فى صندوقها وتتفرغ لرعاية الجنين الذى فى أحشائها .

رغم إحساسها بأن فرصة إنجاب طفل قد تكون الأخيرة فى حياتها - نظرا لكبر سنها - إلا أنها لم تستجب لإلحاح زوجها وقبلت «خياطة» من الناس لكن الله سلم وجاءت الطفلة فى موعدها سليمة معافاة . أقام حسين حفلا فى الحارة لم يشهده الحى من قبل . لأول مرة يجتمع المطرب الشعبى محمد طه وأبو دراع اللذان أخذا يتنافسان فى إلقاء المواويل والتأليف الفورى طوال الليل . ودعا حسين أصدقاءه الصنايعية كان يوزع عليهم الحشيش والبيرة والبرطمانات التى يدخنون بها . وقام حسن ابنه مع أصدقائه بتوزيع الفحم والبيرة على المدعوين . سهرت الحارة حتى أشرقت شمس اليوم التالى . وذهب العديد من الحفل إلى أعمالهم مباشرة دون أن يناموا لحظة واحدة .

★★★

أنجبت عزيزة ولدا بعد تسعة أشهر أخرى . فقد زال عنها ما كان يمنع حملها. كانت تخاف من أن تقوم من نومها فلا تجد زوجها معها . ياه . الدنيا من غيره قاتمة ولا طعم لها .

صحا حسين وقتها من نومه وجدها تحت قدميه ، تمسكهما وتبكى . هب فزعا:

– ماذا بك ؟

– أخاف أن أفقدك .

ضحك طويلا وقال :

– عقلك صغير جدا يا عزيزة .

لكن ما كانت تخافه حدث وتحقق . مات حسين فجأة . ذهب ليحشش كعادته مع أصدقائه فعادوا به محمولا فى تاكسى .. مات قبل وصول الطبيب . فقد كبست قطعة حشيش على أنفاسه فقتلته .

افتتح حسن ورشة والده وعمل بها وكأن والده مازال معه . ودار العمل كما كان ، والنقود التى تأتيه يعطيها لعزيزة زوجة أبيه .

البنت تحبو الآن . والولد مازال فى حضن أمه المتشحة بالسواد ، والتى لم تضحك منذ أن مات حسين زوجها .

★★★

وجاء أحد رجال الحى إلى حسن. قال :

– لقد عثرت على أمك .

– ماذا ؟

– إنها تسكن الإبراهيمية . كنت أتحدث معها بالأمس .

هب حسن فزعا ، وشد الرجل فى عنف :

– أمى . من أدراك انها هى ؟

– سألتنى بالصدفة عن سكنى قلت لها «غربال» . قالت : «إبنى أيضا يسكن غربال . لكن لا أعرف مكانه» وعندما طال الحديث بيننا . عرفت أنها تعنيك . فقد ذكرت اسم والدك وورشته ومكانها.

فرح حسن كثيرا بهذا الخبر . كان الوقت ليلا . وعزيزة ككل ليلة تنتظر عودته. لم يتأخر عن الذهاب إليها منذ أن مات والده .

صاح حسن فى الرجل :

– سنذهب اليها الآن .

★★★

البيت فى شارع مشهور بالإبراهيمية . قريب جداً من البحر . وملىء بالشقق المفروشة والنساء المصبوغات. أخذ الرجل يحدث حسن فرحا :

– شقة ولا كل الشقق . أثاث إيه . وفرش إيه ؟

وحسن شارد . ينتظر رؤية أمه بفارغ الصبر . يتخيل منظرها . فى كل مرة تأتية صورة عزيزة زوجة أبيه بوجهها الأسمر ، والحبيبات الصغيرة فوق الخدين ، وابتسامتها الهادئة . نعم ستكون أمه مثل عزيزة فى صوتها الهادىء وحنانها .

فتحت الشقة فتاة طويلة ونحيفة . عرفت الرجل وأخذت تنظر إلى حسن فى دهشة.

خرجت أم حسن . امرأة نحيفة . شعرها قصير مصبوغ بلون أصفر يميل للاحمرار . وشفتان ملونتان بلون أحمر باهت .

– حسن . ابنى .

شدته إليها ، قبلته . شم رائحة الدخان فى فمها بوضوح . كان فى الشقة عدد من النساء أقل عمرا منها ، ظنهم حسن – أول الأمر – بناتها من رجل آخر غير أبيه .

نادت أمه عليهن . ليرحبن به . وأعطت الرجل مبلغاً من المال مكافأة له . قالت

لحسن :

– والدك رجل ولا كل الرجال .

ومصمصت شفتيها حزنا . ثم أكملت :

– لكنها قتلته .

– من ؟

– عزيزة . أصلها مريضة . اللهم أحفظنا .

ضحكت النسوة الجالسات فى خلاعة . لم يفهم حسن العلاقة بين مرض عزيزة المزعوم ، وضحكهن هكذا ، حتى أكملت أمه :

– أصلها – بعيد عن السامعين – شبقة لا تشبع من الرجل . وأبوك لكى يرضيها كان يحشش .

لم يرتح حسن لقولها . فهو يعرف أن عزيزة لايمكن أن تقتل والده . ولو كان حتى بغير قصد . فقد كانت تحبه بجنون . المرأة ستموت من شدة حزنها عليه.

أراد حسن أن يعود إلى عزيزة بعد أن انتصف الليل . قال لأمه :

– سأعود إليك فى الغد .

صاحت الأم غاضبة :

– ستعود إلى عزيزة ثانية ؟

– نعم .

– كيف ، إننى ماصدقت لقيتك .

قالت واحدة من الجالسات :

– ابق مع أمك التى لم ترك منذ أن كنت طفلا صغيرا . ولو لأيام قلائل .

وبكت الأم . فرق حسن لها :

- والورشة ياأمى ؟

- ارتح منها قليلا .

كان متشوقا لأمه فعلا . ظنها ماتت إلى أن جاءت إلى شقتهم قبل الانتقال إلى غربال لتأخذه . وقتها فقط أحس بأن أمه مازالت على قيد الحياة .

لم يسع للذهاب إليها ، أو البحث عنها . فقد كان والده وعزيزة يشغلان كل حياته .

فى الصباح دخلت الحجرة واحدة من اللاتى يعشن مع أمه فى الشقة . كانت نحيفة كأمه . وتميل للاصفرار مثلها . لكنها أقل عمرا منها بكثير . قبلته وهو نائم قائلة :

- أمرتنى أمك بأن أوقظك .

لقد سهر بالأمس كثيرا ، نام قبل الفجر .

قام متعبا . ابتسم لها :

- لقد نمت كثيرا .

ظنها أخته . لكن تصرفاتها معه أوحت بغير هذا . لم يكن فى الشقة سوى أمه والبنت التى أيقظته . قالت الأم :

- من أجلك لم أذهب إلى عملى اليوم .

قال لأمه ، بعد أن ابتعدت البنت لتعد الطعام له :

- أختى هذه ......

لم يكمل . فقد قاطعته أمه بضحكة طويلة للغاية . حتى أحس أنه قد ضاق بها:

- أنا لم أتزوج منذ أن تركت والدك .

- وهؤلاء ؟

- إنهن يعملن معى .

- آه .

كانت الفتاة تتحرك فى الشقة وكأنها ترقص ، وتنظر إليه من بعيد فى وله . وصوتها ليس عاديا ، كان مصطنعا تتحدث وكأنها تتأوه .

تذكر عزيزة ووالده حسين والطفلة الصغيرة التى تحبو ثم تقوم على قدميها لتلتصق بساقيه . لقد ترك البيت دون رجل .. ستناديه أخته الصغيرة بكلمة بابا . وكذلك الولد الصغير عندما يكبر .

★★★

بدأ يتردد على البيت بعض الرجال . يحملون أكياس الفاكهة وعلب الحلويات . فتصحبهم أمه من باب الشقة إلى الداخل ضاحكة مازحة . لكل رجل منهم امرأة من الموجودات ، يأتى إليها ، ويسأل عنها وتجالسه . يحدثها فى مواضيع سبق أن حدثها فيها . فهى تعرف أسرته وأسرار بيته وعمله . فيكمل لها ماسبق أن تحدثا فيه .

ضاق حسن بما يراه بعد أن اتضح له بما لا يدع مجالا للشك ما تعمله أمه. وسبب طلاقها من والده . صاح فيها بعد أن خلت الشقة من الرجال :

- إننى لا أطيق هذا البيت . ولابد أن أعود إلى غربال .

بكت أمه وقالت :

- نم . والصباح رباح .

عرف حسن أسماء النسوة اللاتى يعشن مع أمه . بعضهن يعملن فى بارات وكباريهات . وبعضهن ليس لهن سوى البيت . فينطلقن منه إلى شقق الزبائن . نبوية أقلهن خروجا من البيت . يأتى رجل عجوز يحنو عليها كابنته . ويعاملها بود

شديد . وهى تسخر منه أمام الجميع . تأخذ نقوده من محفظته وهو يمانع أحيانا. يستعطفها لأن ترد له بعض ما فيها .

تدعوها أمه إلى مصاحبه رجل غير هذا العجوز . لكنها تمانع والمرأة عندما تفشل إغراءاتها تصمت . فنبوية تقوم بأعمال البيت .

نبوية تزهد عملهن . وتتمنى أن تتركه . اقتربت من حسن . هى فى عمره تقريبا . شديد النحافة . تحت عينيها سحابتان سوداوان .

عندما جاء حسن إلى الشقة أحست بأنه جاء من أجلها هى . لا من أجل أمه . نامت فى أول ليلة جاء فيها وهى تحلم بأن تقيم علاقة معه . لا . علاقة نظيفة . ليس كما تفعل مع الرجل العجوز . حلمت بهذا رغم علمها بأن حسن لايعرف اسمها ، وربما لايذكر وجهها جيدا .

وعندما تخلو الشقة من كل الموجودات ، تجلس بجواره . ولو كان نائما فوق الفراش تداعبه . لذا ، فقد بكت عندما أحست بأنه مل وجوده معهن . ويريد أن يعود من حيث جاء .

أحست المرأة العجوز بها ، فضحكت قائلة :

– تريدين حسن ابنى ؟

– ليس كما تظنين .

– ماذا تقصدين ؟

– لن تفهمينى . فدعينى وشأنى .

منذ زمن بعيد والمرأة العجوز تحس بأن نبوية تقترب من الجنون . يأتيها الرجال الأغنياء طالبينها بالاسم . بعضهم كان يزهد «مرافقته» ويريد نبوية أن تحل محلها . لكنها ترفض هذا بشدة مكتفية بعجوز لايعطيها إلا القليل . فالرجل

فوق عمره الكبير موظف على قدر حاله .

كما أن المرأة العجوز رأتها أكثر من مرة تبكى دون سبب . فى أول مرة التفت النسوة حولها وسألنها عن السبب لكن هذا أصبح عاديا بعد ذلك .

قالت المرأة العجوز :

– نبوية . إننى لا أريد أن أفقد حسن ثانية .

– وماذا أستطيع أنا ؟

– هو يرتاح لك أكثر منا .

فرحت نبوية . حقيقة حسن يرتاح لها . أم أن العجوز تدعى هذا لكى تبقيه معها ؟

دقت نبوية باب حجرته :

– حسن . لماذا تريد أن تتركنا ؟

صاح فيها غاضباً :

– لو أعلم أن أمى تعيش فى ذلك الجو . ما كنت أتيت .

بكى وأكمل :

– بعد أن تمنيت رؤيتها . أجدها فى ذلك الوضع المخزى ؟

وضعت نبوية يدها فوق شعره .

– لاتغضب هكذا . إننى سعدت كثيرا بحضورك .

دفع يدها فى غضب . جلست بجواره :

– منذ أن أتيت وأنا أحس بأنك ستترك الشقة . فأنت لم تتعود حياة كهذه . لكننى فرحت بوجودك . شعرت بأننى أعيش منذ أن رأيتك .

كانت نبوية تبكى . أحس حسن بصدقها .

- حسن . إننى لا أريد أن تبقى هنا . نعم . لابد أن تترك الشقة . فوجودك معنا إلى الأبد سيضيعك . ويقضى عليك . وأنا لا أريد هذا .

عندما وضعت يدها على شعره هذه المرة . لم يدفعها . بل أمسك يدها الأخرى:

- نعم يا نبوية . لابد أن أبتعد .

- عدنى بأن تزورنا من وقت لآخر .

وأغلقت باب الشقة خلفه ، وذهبت إلى الفراش .

لم يذهب إلى الورشة، فقد اشتاق للبنت الصغيرة أخته والولد الذى مازال فى قماطه، وإلى عزيزة. اشترى كعادته الحلوى للبنت ودق الباب . أسرعت عزيزة إليه (من الذى سيدق بابها الآن . الكل تركها : حسين مات . وشقيقها انشغل عنها بزوجته وأولاده . وحسن تركها وعاد إلى أمه) .

فتحت الباب متكاسلة . فربما أن رشيدة جارتها تريدها فى شىء كعادتها. وجدت حسن أمامها :

- حسن . أين كنت ؟

ضمته لصدرها باكية . قال :

- لن أتركك أبدا . ولن أترك أختى وأخى .

كانت الطفلة تسير بمساعدة الجدران والمقاعد لتصل إليه. اقتربت منه مبتسمة منادية بكلمات غير مفهومة .. أسرع إليها . ضمها لصدره وقبلها .

حارة نعمان

(١)

عندما علم «حلمى» أن ولده الأكبر سيتزوج الزينة ابنة توحيدة دفعه بعيدا عنه فى عنف وصاح :

– لعنة تلعنك وتلعن أمك .

صاحت عجبة زوجته :

– جننت يارجل .. وما ذنب أمه ؟

أعاد ذلك الخبر إلى حلمى مامر به من آلام ، وود نسيانه . لقد أضاعت عجبة كل أحلامه عندما تزوجها .

قال عوض :

– توحيدة لن تكلفنى مليما . وستدفع عنى أجرة السكن أيضا .

– لكنها ستأسرك كما أسرتنى أمك من قبل .

صاحت عجبة وهى مازالت تحرك ملعقتها الكبيرة فى إناء البصل فوق النار :

– دعك من أبيك وافعل ما تشاء .. لقد اغتنت توحيدة الآن . وسيصيبك من الحب جانب .

خرج حلمى غاضبا . كاد يكبو فوق الدرج الضيق . تزمر غاضبا وهو يعدو فوق أرض غربال .

آه لو حدثت مشكلة تؤدى إلى إفساد هذه الزيجة . أن تغضب توحيدة على الولد عوض . فتقسم ألا تتم الزيجة .

سار فوق الأرض الترابية فوق الجبل . أحس بالتعب الشديد . وبعرق بارد فوق جبهته . كان يظن أنه لن يكبر أبدا . وأن الشباب سيدوم ، لكن السنوات تسربت دون أن يحس ، سرقت من عمره دون أن يدرى ، وها هو الولد عوض قد كبر ويستعد الآن للزواج .. إذن فقد وصلت لنهاية الرحلة دون أن تجنى ما كنت تتمنى . أشاح بيده غير مبال بالمارة . قد يموت أحد أقارب توحيدة فيتأجل الحفل أو تلغيه .

★★★

ولد حلمى فى قرية «أ» بالصعيد لأب عجوز تعدى الستين «مازال حلمى يذكره إلى الآن رغم أنه كان صغيرا عندما مات» كان عملاقا وأذناه كبيرتان للغاية.

وأم حلمى تصغره بأربعين عاما على الأقل، جميلة إلى حد بعيد «ورث حلمى عنها القامة القصيرة والعينين الزرقاوين والشعر المائل للاصفرار. لكن حول عينيه لا يدرى من أين جاءه فهو ليس فى أبيه أو أمه. أو أحد أقاربه».

تزوج الحاج حافظ - والد حلمى - زوجته تلك على زوجة أخرى قاربت الستين، وخلعت كل أسنانها وأبيض شعرها حتى صار كاللوفة البيضاء. بينما زوجها الحاج حافظ أسنانه قوية وقادرة على مضغ حبات الفول اليابسة. ولم يخلع منها سوى واحدة بسبب حادثة..

يوم أن ولدته أمه صرخت زوجة أبيه «العجوز» وشقت الثوب من الصدر حتى الذيل، وأخوته الكبار - وكانوا رجالا وقتذاك - هددوا بقتله لكن الحاج حافظ رغم عمره المديد كان قويا وعنيدا فحمى حلمى وصانه من غدر أخوته الكبار وأمهم.

ويحكون فى قرية «أ» أن الزوجة الصغيرة الجميلة قد تعلق قلبها بحب بقال شاب فى البلدة. كانت تقف فى دكانه بالساعات وعندما تجاسر ولد من أولاد الحاج حافظ وقال له ذلك، شج رأسه بعصاه قائلا:

- هذه فرية ، من حقدكم على الزوجة الصغيرة الجميلة.

ويحكون فى القرية أيضاً أن الزوجة الصغيرة قد أخذت من بيت زوجها صفيحة سمن كاملة وأعطتها للبقال الذى تعشقه ليبيعها فى دكانه . ثم أدعت أمام زوجها بأنها قلبت السمن السائح فوق جسدها ظنا منها أنه ماء فقد كانت الصفيحتان متجاورتين.

فقال الزوج سعيدا:

★★★

- ولا يهمك فجسدك يستحق أكثر من السمن.

★★★

نشأ حلمى مدللا . فلم يعمل شيئا كان يتابع «حسان» ابن ابى الغيط الذى يهرب إلى القاهرة أو الإسكندرية فيتمنى حلمى أن يفعل مثله لذا قلده فى لبسه وطاقيته التى تكشف جزءا من شعره.

وبعد أن مات الحاج حافظ ورث حلمى عنه الكثير أنفقت أمه بعضه على عشيقها البقال.

وسافر حلمى إلى القاهرة ، شاهد الاتوبيسات التى كان «حسان» يحكى عنها. وركبها حلمى لكنه لم يستطع أن يقفز منها وهى مسرعة كما كان يفعل حسان..

قال حلمى لنفسه وقتها: سأقول للناس فى القرية إننى قفزت منها وهى مسرعة دون أن أقع أو أهتز.. كما كان يفعل حسان. ويصدقوننى ماداموا لم يروا ما حدث وقد صدقوا حسان من قبل عندما حكى لهم دون أن يروه وهو يقفز.

ثم أصيبت القرية بحالة من السفر والهروب من الواقع المضنى الذى يعيشون فيه. وذلك راجع لأسباب عديدة. ليس هذا وقت ذكرها، فسافر البقال إلى الإسكندرية ممنيا نفسه بافتتاح دكان هناك مثل من سبقه من بقالى البلدة.

بكت الأرملة الحسناء وتوسلت إليه بأن يبقى وستعطيه ما يريد من مال لكنه أصر على السفر. فقالت الأرملة لحلمى ولدها:

- ماذا ترى لو سافرنا إلى الإسكندرية؟.

لم يكن خبر البقال - الذى أنفقت أمه مال أبيه عليه - قد وصله وإلا ما كان وافقها على السفر.. كان تفكيره - وقتها - منصبا على العيش فى الإسكندرية، حيث الكهرباء، والسيارات والأتوبيسات الكبيرة التى تسرع فى الشوارع والأنوار الساطعة.

لم تكن عجبة قد سطعت بعد فى سمائه. ولم يعتقد أبدا أن تكون لها معه قصة.

رددت النسوة فى البيوت:

- الارملة الصغيرة تريد السفر من أجل البقال الذى سبقها إلى هناك.

لكن الاخوة الكبار وزوجاتهم صمتوا، أو تظاهروا بعدم سماع هذه الكلمات وباركوا السفر عندما علموا بأن زوجة أبيهم الراحل ستبيع لهم كل ما تملكه هى وابنها من أرض. فمن يستطيع أن يشترى منها وهم «يركبون» الأرض ويزرعونها. ولهذا سيشترونها منها بأبخس الأثمان.

ولأن الأرملة فى عجلة من أمرها - فقد وافقت على المبلغ القليل المعروض عليها. وبصمت وكتب ابنها اسمه على الورق الذى لا يعرفان ما كتب فيه.

وهكذا تحول حلمى من مالك للأرض إلى معدم لا يمتلك سهما.

أشار بعض أهالى البلدة على الأرملة الصغيرة أن تسكن غربال إذا ما سافرت إلى الإسكندرية.. ففيها معظم الذين سافروا من البلدة. لكنها أصرت على أن تسكن «غيط الصعيدى»..

واتضح بعد ذلك أن البقال المنشود قد افتتح له دكانا هناك.

★★★

عندما وصل حلمى إلى مصاف الرجال، كانت أمه قد أضاعت كل ما أخذته من إخوة ابنها «ثمنا للأرض» وكان على حلمى أن يبحث له عن عمل ينفق على أمه منه، أم أنه يتركها تعمل لتنفق على نفسها وعليه؟! وهو لم يعتد العمل الشاق، حتى الانحناء على الفأس فى أرض أبيه لم يفعله، فقد كان أبوه يخاف عليه من إخوته..

لم يكن والده يعرف من قصص القرآن الكريم سوى قصة سيدنا يوسف وإخوته. وكان يرددها فى كل وقت. فرحا بتشبيه نفسه بسيدنا يعقوب (كانت هذه القصة تلح عليه وتطارده من قبل أن تلد زوجته حلمى - وأراد أن يسمى المولود بيوسف. لكن المرأة الصغيرة الجميلة لم ترغب فى ذلك. ودعت الولد «حلمى» على اسم موظف الزراعة الذى كان يتنقل فى خفة من الأرض الزراعية إلى «دوار العمدة» والخفراء يسيرون خلفه مسرعين، وينادونه باحترام شديد «حلمى بك ، حلمى بك». من يومها وهى تتمنى لو تزوجت وأنجبت ولدا لتسميه «حلمى» حتى يكبر ويصبح مثل موظف الزراعة) عندما نفدت أموال حلمى وأمه. قالت الأرملة

الصغيرة:

- سأعود إلى البلدة.

وذلك بعد أن أيقنت بأن البقال الذى تغربت وتركت الأهل من آجله لن يعطيها «عقاد نافع» خاصة بعد أن تزوج من فتاة تسكن «غيط الصعيدى» فى بيت مجاور لدكانه.

لو لم تنفق أمه المال الذى أخذته من إخوته. ما عاد حلمى إلى الصعيد، وما اقترن بالسوداء.. ابنة السوداء المسماة «عجبة».

لقد فعل الزمن فعلته. فجعل أمه تعشق ذلك البقال وتحبه كل هذا الحب فتبيع الأرض من أجله وتنفقها فى مدة قصيرة جداً، وتعود إلى القرية، ليجد حلمى عجبة فيتزوجها. وكأنه لم يذهب إلى البلد إلا من أجلها هى.

عجبة مستعدة للزواج. دكان «العلافة» الذى مات أبوها وتركه، ملئ بالغلال: عدس وفول وغلة كل نوع فى قفة وبيت ذو دور واحد يمكن أن تبيعه عجبة، وأمها نبيهة لن تعارض، ولن تطالب بحقها فيه فزوجها - الذى تزوجته بعد موت والد عجبة - يغنيها عن كل شئ.

وأم حلمى انهارت بعد أن خذلها البقال.

البلدة كلها علمت بما حدث «وقت أن كان البقال معها سمن على عسل، لم تكن تعبأ بقول أحد، السعادة التى تلاقيها معه أنستها كل الأشياء الأخرى. لكن الآن، بعد أن أصبح بعيدا عنها. منشغلا بزوجته، وأصبحت القصة منتهية لم يتبق لها سوى لوم اللائمين وعتاب العاتبين».

كانت عيون الناس فى البلدة تثقب ثوبها وتعريها. فلا تجد سوى أن تحنى رأسها خزيا وندما. عجبة، بشرتها سوداء. لكن قلبها طيب «أو هكذا ظنه وقتها».

ربتت على ظهره حانية، كان قد نبت له شارب أصفر. وامتلأ جسده قليلا.

الأرملة الحزينة لم تعارض فى زواج ابنها من فتاة كان أبواها عبدين إلى وقت ليس ببعيد. فمادام العار قد طالها فلا بأس من أن يتزوج ابنها من أى فتاة، مهما كان وضعها.

ووافقت عجبة على بيع دكان أبيها ومحتوياته. ورضيت بأن تسافر مع حلمى إلى الاسكندرية، ليسكنا غيط الصعيدى، وبقيت الأرملة الحزينة المكلومة فى مكانها، على أن تبيع عجبة البيت ذا الدور الواحد إذا ما لزم الأمر.

لم تمتلك عجبة أكثر من بيت دور واحد قديم. وكذلك توحيدة. فبيتها مازال مبنيا بالخشب والصفيح الصدىء.

أى بلاهة هذه التى تجعله - هو وابنه - يبيعان سعادتهما وحريتهما وأمنهما من أجل مبلغ ضئيل.

لا، ما فعله حلمى وقتها كان هروبا من العمل الذى لا يقدر عليه. وهروبا من أمه التى أيقن - بعد فوات الأوان - أن قصتها مع البقال صحيحة وليست اشاعة، كما كانت تدعى.

وكذلك يفعل عوض - ابنه الآن - فهو يريد أن يهرب من حياته معهم بالزواج. وليس مهما من تكون الزوجة، المهم أن تكون له حياته الخاصة المستقلة بعيدا عن أبيه وأمه.

★★★

ظلت أم حلمى فى البلدة، تعمل فى بيوت الأغنياء بلقمتها. وحلمى فى الاسكندرية لا يجد ما يعطيه لها. وعندما ماتت سافر بالكفن إليها، اشتراه من الاسكندرية. وظلت هى بلا دفن حتى وصل.

ماتت أمه، لم يتبق له سوى عجبة. أضاعت أمه مال أبيه على حلم كاذب «أن يتزوجها البقال المعشوق».. وعجبة أضاعت كل ما تبقى له من حلم. أنجبت له - أول ما أنجبت - الولد عوض، جاء حاملا أسوأ ما فيها سواد اللون والأنف العظيم الحجم، وحاملا أسوأ ما فى حلمى: قصره ونحافته الشديدة، وبمرور الوقت اكتسب صوتا واهنا أشبه بنباح الكلاب المحتضرة.

وتوالى الانجاب: ولد آخر جمع الصفات الحسنة والسيئة فى حلمى وعجبة. وبنتان - كان الله بهما رحيما - فلم يأخذا من عجبة سواد لونها.

مازال [illegible] يجد ضالته فى الاسكندرية. فتاة صغيرة تقدر لون [illegible]ـرته البيضاء. وعينيه الزرقاوين وتكون غنية لتعوضه ما خسره فى عجبة.

لذا [illegible]ان يسير فى الشوارع مبتسما. كاشفا عن أسنانه البيضاء المتناسقة. فتضحك البنات [illegible]رات ويسرعن فيتبعهن – أحيانا -- ظنا منه بأنهن قد أعجبن به. وضحكن له لا عليه. لكن التهور عادة ما ينتهى بمشكلة فتصيح فتاة من الفتيات مستغيثة. أو تهدده بإبلاغ الشرطة.

رغم هذا لم ييأس حلمى. فشبابه الذى ولى بعضه هباء مع عجبة السوداء، لن يضيع كله معها. فلابد من أن ينقذ بعضه.

***

لم يعمل حلمى طوال بقائه فى الاسكندرية عملا ثابتا. ظنا منه بانه لن يحتاج طويلا إلى العمل. فمادامت أمه قد أضاعت أموال أبيه على البقال الذى جاءت خلفه إلى الاسكندرية. فحتما سيجد من تضيع أموالها من أجله. فهو ليس بأقل من ذلك البقال جمالا. عيبه قصره وحول عينيه. لكن ذلك ليس مهما. فبياض بشرته وشعر رأسه المائل للاصفرار يعوضانه عن ذلك.

كان يذهب إلى وكالة الخضار والفاكهة القريبة من بيته فى غيط الصعيدى ويشترى طبق المانجو.

ويطوف به على المقاهى. أو قفص التين. أو شروة فراولة. يزن عند أقرب دكان يقابله..

والمتبقى يعود به إلى عجبة فتأكله متلذذة سعيدة. وهو يلعنها ويلعن اليوم الذى رآها فيه، معلنا أن ما أكلته خسارة فيها. ولولا زواجها منه ما كانت تذوقته ولا رأته بعينيها. وعجبة تريد أن تعيش وأن تستمر حياتها معه. فهى تعرف أنه يضيق بحياته معها، ويتمنى أن تغضب وتطالبه بالبعاد عنها وقتها سيترك لها كل شىء ويهرب. فهو لا يهتم ببنت ولا بولد.

لهذا تحايله وتضحك من كلماته اللاذعة لها. وتلح عليه بأن يذهب إلى الوكالة ليتسوق «فهو لا يذهب إليها كل يوم» وتطالبه بالنقود. برأس المال أولا بأول. تعد

النقود التى «يتسبب» بها وتخفيها عنه إلى أن يحين موعد ذهابه إلى الوكالة حتى لا ينفقها.. يضيق هو بإلحاحها.

كلماتها له سياط تعذيب تلهب ظهره وجسده كله.

★★★

رغم كره حلمى لعجبة. يحدث أحيانا الالتقاء بينهما. وتعمل هى على إيجاد هذا الالتقـاء وتمهد له. فتخلى البيـت من أجله. يتعامل - هـــو - معها فى تثاقل وتلح عليه وتشـــده إليها، فربما تبعـده هذه اللحـظات النادرة عن متابعة الفتيات فى الشـــوارع. أو تجـعله يكف عن النظـــر بإمـعـان إلى النســـوة اللاتى يأتين إليـها. فيعاملهن وكـأنهن سـيقـعن فى حـبه عندما يكشف لهن عن لون عـينيـه الزرقاوين.

فى لحظات اللقاء تتحدث عجبة فى هدوء: حلمى كل الرجال الذين جاءوا من بلدتنا عملوا أعمالا ثابتة.

هذه الكلمات تجعله يحس بالإحباط. فينكمش داخل نفسه فيزفر فى أسى. ها هى تصطادك بخداعها لكى تلهب جسدك بكلماتها اللاذعة من جديد.

فتعتذر هـى إليه. وتعيده إليها ثانية. لكن الكلام كالسحـر. فقد ضاق حلمى بمشروعه الذى لا يجئ لم يقابل للآن الفتاة الجميلة الغنية التى تقدر لون بشرته البيضاء وزرقة عينيه واصفرار شعره، فتتحدى أهلها من أجله وتجبرهم على الزواج منه. وبدأ المشيب يغزو فوديه. كما أن الولد عوض كبر. لذا، قرر حلمى فى لحظة من لحظات عجبة النادرة أن يعمل فى عمل منتظم..

(٢)

كان حلمى جالسا فى «وكالة الخضار والفاكهة» بالحضرة ملتفا مع الملتفين حول رجل «عجوز» يمسك طبق مانجو ممتلئا، طالبا فيه «جنيهين» كاملين. بينما المزاد لم يتعد الجنيه الواحد. والرجل يعارض بشدة معلنا أن الطبق يحتوى على ما يزيد على ست أقات. وصاحب «المغازة» وهو شاب ممتلئ يجلس بجانب المزاد واضعا مبسم الشيشة فى فمه، غير راض عن المزاد. يحرك ساقه القصيرة والثقيلة من فوق ساقه الأخرى إلى الأرض، ثم يعيدها إلى ساقه الأخرى فى عصبية.

وفجأة هب الشاب الممتلئ من مكانه تاركا المبسم الذى لم يصل إلى حافة الشيشة، فوقع على الأرض وأسرع إلى رجل طويل أسمر يرتدى بذلة كاملة - رغم الحر - وحوله رجال يرتدون ملابس أنيقة مثله، وآخرون يهتفون له «عزمى بك»، «عزمى بك».

قفز الرجل «العجوز» من مكانه وأعطى الطبق لمساعده معلنا نهاية مزاد اليوم.

أحس حلمى بالإحباط فذلك الوافد سيضيع عليه المزاد، فالكل سينشغل به ويجلسون حوله. ولن يبيع أحد أو يشترى.

يعرف حلمى هذا. فكلما جاء إلى الوكالة - منذ أن أعلن عن انتخابات مجلس الأمة - والمرشحون يوجدون هناك بكثرة، تهتف الناس لهم. وينصرفون عن البيع والشراء. وحلمى لا يأتى إلى الوكالة كل يوم. أربعة أيام كاملة نام فيها فى البيت، لم يدخل فيها جيبه مليم واحد. وعجبة - زوجته - لا تكف عن لومه وجلد جسده بلسانها اللاذع. سيعود إليها - الليلة أيضاً - دون شئ وستصرخ فى وجهه وتعلن أنها تنفق من رأس المال، وأنه بعد أيام قلائل لن يجد ما يتسبب به، وسيأكلون أنفسهم بعد ذلك.

اقترب حلمى من الرصيف جلس حزينا. مهموما.

صافح الشاب البدين عزمى بك. وشده إليه وقبله، وكذلك فعل الرجل ، وتبعه كل العاملين فى «المغازة». اقترب الحشد من حلمى. وبدا وجه عزمى واضحا له.

كان نحيفا واضح الخجل، ومرتبكا. ولولا الذين حوله ما استطاع أن يقول كلمة واحدة.

وقف حلمي حينما وصل الحشد إليه. لم يكن يقصد هذا.

أعاق حلمي الحشد بوقفته المفاجئة هذه فدفعه بعضهم بعيدا مفسحا الطريق لعزمي بك.

كان حلمي يرتدي قفطانا من «العبك» لا تستطيع أن تحدد لونه. وجاكيتا كالحاً ممزقاً من تحت الإبطين كما أن عجبة لا تجيد الخياطة. فبدا خيطها واضحا في الجاكيت. وحذاؤه قديم. اشتراه حلمي من سوق العطارين لغرض بيعه. وعندما خاب في ذلك لبسه.

قال البائع «العجوز»:

- ابتعد يا ولد يا حلمي عن طريق البك.

لكن عزمي بك توقف ومد يده مبتسما لحلمي، فصافحه. حينئذ تغيرت نظرة الغضب في عين البائع إلى ابتسامة، وأحس رجل حصيف من رجال عزمي بك. أن الموقف في حاجة إلى تسجيل، ولابد من نشره في الصحف كدعاية تكشف مدى تواضع ومروءة عزمي بك. فطلب من أحد المصورين تصوير عزمي بك وهو يحتضن حلمي، وصاح منادي المزاد بصوته المميز العالي:

- عاش عزمي بك نصير الفقراء.

وأحس حلمي برائحة نفاذة تفوح من ملابس وجسد عزمي. رائحة صابون معطر وعطور أخرى متداخلة. المهم أن الرائحة حركت في حلمي أشياء كثيرة، حتى أحس بالرغبة في العطس.

ضحك البائع «العجوز» وقال:

- حلمي من زبائني يا عزمي بك.

- أنعم وأكرم.

وقال صاحب «المغازة» ، الشاب البدين «للبائع «العجوز» ، مساعده:

- أعط لحلمي طبق مانجو دون شئ في الغد.

في اليوم التالي اصطحب حلمى ابنه عوض معه.. كان الولد يرتدى قفطانا قديما وحذاء فى قدميه على غير العادة.

ناداه الشاب الممتلئ:

– ولد يا حلمى. ولد يا حلمى.

صاح حلمى فى ابنه صارخا «رغم أن الموقف لم يكن يستلزم ذلك»:

– صافح عمك يا ولد.

وقال الرجل «العجوز» وهو يشير إلى أطباق المانجو الكثيرة المتراصة:

– خذ لك طبق مانجو.

أسرع عوض إلى المانجو قبل أن يأمره والده بذلك. ثم أكمل الشاب الممتلئ:

– عزمى بك شقيق «ل» سينجح فى الانتخابات. أليس كذلك؟

– ومن يستطيع أن يسقطه؟!

– لذا، أريدك أن تتقرب إليه، وتتفرغ تماما لعمل الدعاية له.

– أمرك.

– الخير الوفير سيأتى إليك بعد أن ينجح.

بعد أيام قلائل صدرت الجريدة وصورة حلمى بين أحضان عزمى بك.

حمل أتباع عزمى الصورة وطافوا بها الوكالة منادين:

– عزمى بك .. عزمى بك.

كل المعلمين فى الوكالة أكبروا حلمى وقدروه وقربوه منهم وأرادوا أن يعطوه ما يريد من بضاعة بأرخص الأثمان.

لكن حلمى انشغل بالدعاية لعزمى بك فمتى سيبيع هذه البضاعة، وعوض – أكبر أولاده – فى العاشرة الآن ولا يعتمد عليه فى حاجة مثل هذه، كما أن المرأة – عجبة – لم تتعود البيع والخروج إلى السوق.

وعزمى بك يقف كلما رأى حلمى آتيا إليه، ويقربه منه، ويوصى المعلمين به خيرا.

وبلغ حلمى أن مهندسا يمتلك شركة مقاولات يتحدى عزمى بك وينازله فى

الانتخابات.. ظن حلمى – أول الأمر – أن ذلك المرشح مجنون. فكيف يجسر عاقل على أن يقف أمام شقيق «ل»؟!

بعض التجار الكبار كانوا على صلة بذلك المهندس المغامر، وأحدهم كان يتصل به بصلة قرابة. رغم ذلك أعلنوا براءتهم منه وانحازوا تماما إلى عزمى بك.

وحاول التاجر الكبير – قريب المرشح المغامر – أن يثنيه عن هذه المغامرة المعروف عواقبها.

– يا ابني أنت تنطح الصخر. هذه أيامهم ولن يسمحوا لأحد بأن يتحداهم.

لكن المهندس المجنون أصر.

★★★

فوجئ أهالى «غيط الصعيدى» بصورة حلمى وعزمى بك يحتضنه منشورة فى الجريدة ظن البعض أن ذلك الإنسان يشبه حلمى، لكن الذين يعرفون القراءة أكدوا أنه هو..

توافد الجيران إلى عجبة يهنئونها بما حدث وظل البعض منتظرا حلمى ليهنئة بنفسه وصار من المألوف أن يكون حلمى ضمن مشجعى عزمى بك الذين يطوفون الشوارع منادين باسمه ومؤكدين بأنه الأولى بالفوز، وفى إحدى المرات سار بجواره تماما. يكاد كتفه يلامس كتف عزمى بك.

★★★

بعض سكان «غيط الصعيدى» كانوا متحمسين للمهندس المغامر وجاهروا بذلك وساروا معه منادين باسمه وكان ذلك المهندس يأتى كثيرا لزيارتهم، وعندما سأل حلمى عنهم علم بأنهم أقارب المهندس فكان حلمى يمر من أمامهم رافعا رأسه مشرئبا. فينظرون إليه باهتمام شديد ولاحظ بعض أتباع حلمى أنهم يتحدثون بعد أن يذهب بعيدا عنهم. ويشيرون عليه. مما يعنى بأنهم يتحدثون عنه ولا يستطيعون مواجهته خوفا من عزمى بك الذى أعلن حمايته له.

السؤال المحير فى كل ما يحدث. هو ما شأن كائن صغير مثل حلمى بذلك الصراع؟!

عندما ضمه عزمى لصدره، والتقطوا الصورة له معه، سار فى الحى مبتسما. ولم يدهش الناس لذلك. فهو دائم الابتسام وهو ساتر. ورغم إحساسه بأن عجبة قد دمرت حياته، وخيبت أحلامه إلا أنه حدثها عما حدث له. فرحت عجبة كثيرا وقالت:

– أكيد دفعوا لك مبلغا كبيرا.

ود لو بصق على وجهها وقتذاك. ولام نفسه – الأمارة بالسوء – لأنها تواضعت وتحدثت مع عجبة بهذه البساطة «يا امرأة كل ما يهمك المال؟! وشهرة زوجك ومكانته فى الوكالة لا تهمك؟!».

وجود ذلك المهندس المنافس الذى يركب رأسه. جعل حلمى يفكر ساعات طويلة وهو نائم فى حجرته و«يدور» الموضوع فى رأسه.

ود لو قابل المهندس ونصحه بالابتعاد عن طريق عزمى بك وشقيقه الذى يحسب له العالم كله – الآن – ألف حساب.

وود لو لكز زوجته النائمة بكوعه ليحكى لها عن ذلك المهندس الغريب الأطوار. لكن خشى أن تفسد عليه ليلته بتثاؤبها وغطيطها وهرشها لرأسها الساذج.

★★★

بينما كان حلمى جالسا على رصيف الوكالة ناظرا إلى أطباق المانجو المتراصة فى انتظار انكسار حدة الشمس ليبدأ المزاد، أحس حلمى بعرق يسيل فوق ظهره. هرش رأسه وظهره. وشرد فى أشياء كثيرة. أن ينجح عزمى بك ويتقدم بتهنئته فيلتقطون له الصور سيطلب منه حينذاك، أن يعينه فى شركة من الشركات التى تدفع أجرا كبيرا. أو يطلب منه مغازة فى الوكالة، فيتحول من مجرد «سريح» لا حول له ولا قوة، إلى تاجر كبير.

أفاق حلمى من شروده على صوت البائع «العجوز»:

– ولد يا حلمى.

أسرع إليه:

– أريدك بعد صلاة العشاء. رشاد بك الشقيق الأكبر لعزمى بك سيجتمع بنا.

- هنا فى الوكالة.

- أجل.

رشاد أكبر شهرة من عزمي. وأكثر منه جرأة، يتردد اسمه كثيرا منذ أن تولى شقيقه «ل» زمام الأمور في مصر.

أحس حلمي بالفخار فقد أصبح مهما لدرجة أن يدعى لاجتماع مهم كهذا.

★★★

كان الاجتماع فى «مغازة» من المغازات الكبيرة فى الوكالة. صاحبها رجل صعيدى متعصب للصعايدة. المكان مزدحم، ورائحة عفنة تفوح من «الكتمة» والحر.. وَرشاد يقف أمام الناس.. ليس هناك ميكرفون ولا إضاءة ساطعة تناسب اجتماعاً مهماً كهذا.

ورجال رشاد يقفون على باب المغازة» ينظرون بإمعان إلى كل داخل. قال رشاد:

- إن ذلك المهندس قد تمادى في غيه. ولابد من أن يقف عند حده.

صاح البعض مؤيدا، كان يتحدث فى صوت خافت وينظر حوله وكأنه خائف من دخول أحد فجأة:

وعندما دخل حلمي توقف رشاد عن الكلام. فالحضور كلهم معلمون. ملابسهم جيدة ونظيفة. فما الذى جاء بهذا إلى هنا؟!

اقترب حلمى من المنصة كاد رشاد يصرخ فى رجاله ويسبهم لتقاعسهم عن أداء واجبهم، لكن عزمي همس فى أذن أخيه بكلمات جعلته يهدأ ويعود إلى موضوعه:

- أريد أن أعطى ذلك المهندس المغرور درسا ينسيه أهله.

تهامس البعض وتصايح البعض. وقال هو:

- وأنا معتمد عليكم فى ذلك.

★★★

المهندس المنافس غنى. يمتلك شركة مقاولات ناجحة. ويسكن فيللا كبيرة قريبة

من «وابور المـياه» يعرف حلمى هذه الفيللا. وكثيرا ما دار حولها هـو يحمل طبق المانجو. كان يرتاح – أحيانا – فوق سياجها البارز ويشم رائحة الأزهار، وقتهـا لم يكن يعرف صاحبـها. وكان يتمنى لو رأى ذلك الذى يعيش فى هذه الجنة.

الشارع الذى تقع به الفيللا واسع، وأمامه زقاق ضيق امتلأ يومها بالقفاطين والطواقى من كل لون. صعايدة يسدون عين الشمس. كل واحد يمسك هراوة فى يده أو قطعة حديد، ويصيحون وكأنهم ذاهبون إلى حرب طلت الرءوس من النوافذ على أثر ذلك الصوت. ومنها رءوس أسرة المهندس المقصود، لتتساءل عما يحدث غير مدركين أنهم المقصودون بكل ما يحدث.

كان حلمى فى أول الصف، يمسك قفص فاكهة فارغ ، هو الذى وجده فى طريقه، ويصيح معهـم رغم أن قفص الفاكهـة الفارغ غير قادر على تحطيم شئ.

تحطم الباب الحديدى المغلق وهم يصرخون ويقتلعون الزرع من جذوره. كانوا يضحكون ويسخرون.. والمهندس الشاب يصرخ ويهدد. دفعه البعض، ولولا أن انتشله بعض أقاربه من الداخل لقتل وقتها.. كان يهدد بإبلاغ البوليس. وأصوات تسخرمنه، أى بوليس وهم ينفذون أوامر أعلى من البوليس ومن المحافظ نفسه.

لم يأخذ حلمى شيئاً من الفيللا. رغم أنه رأى أحد التجار يخرج بدراجة أطفال. وآخر ممسك بآلة كاتبة صغيرة وآخرين أخذوا الفازات والتحف وأسرعوا بها إلى الخارج.

واقترح تاجر كبير – كان بجوار حلمى وقتذاك – أن يحرقوا الفيللا بما فيها. أيده البعض، وعارضه البعض معللين أن الأوامر الصادرة إليهم لم تشمل الحريق..

يقولون: إن أسرة المهندس الشاب قد هربت من باب ضيق فى شارع جانبى لم يفطن إليه المهاجمون.

عاد حلمى إلى عجبة فخورا بما فعل. قال:

– ذلك المهندس سيتراجع لاشك. سيعلن عن تنازله بعد أن أظهرنا له العين الحمراء. وستنتهى المعركة الانتخابية قبل أن تبدأ.

لكن ما حدث كان من المحال، وأقرب إلى الخيال، فقد نجح المهندس الشاب. أجل. هكذا حدث لقد سخر حلمى من محدثه الذى أبلغه بالخبر ظنه يداعبه. ويمتحن قدرة أعصابه على تحمل الشدائد وقد نجح ذلك المهندس بسبب تحطيم فيلته برجال رشاد وعزمى. فقد تأثر الناخبون فتعاطفوا معه...

كما أن «ل» قد غضب على أخويه ولامهما. ويقول البعض إن ذلك الحادث كان سببا فى عزل محافظ الإسكندرية لأنه تساهل فى معالجة الموضوع..

وتردد حكايات كثيرة فى وكالة الخضار وخارجها بعضها قد حدث، وبعضها كان من تأليف وخيال الناس وهى أن «ل» قد جاء ليضرب رشاد شقيقه ويسبه، وقال له «هى بلد أبوك والا أبويا» وأنه دخل شارع «وابور المياه» والفيللا المنكوبة واعتذر للمهندس وشرب القهوة من يد زوجته. وإمعانا فى تأكيد ما حدث. أدعوا أن «ل» أعجب بالبن المحوج الذى صنعت منه القهوة وأثنى عليه. وسأل زوجة المهندس عن كيفية صنعه. وأن الأسرة مازالت تحتفظ بصور «ل» معهم. وإحدى الصور معلقة فى حجرة الاستقبال لـ«ل» وهو يمسك فنجان القهوة والمهندس وزوجته بجواره.

هذه الحكايات عذبت حلمى، فهى على عكس ما كان يظن ويعتقد.

تجار الوكالة كرهوه واحتقروه. فدفعه بعضهم بعيدا عنهم عندما رأوه فرؤيتهم له تذكرهم بالمأساة التى حدثت «لم يبيعوا له «حباية» واحدة.

ودخل المهندس الوكالة مع أتباعه. صافح البعض، وابتسم للجميع، بينما خرج حلمى كسيفا، معلنا عن نهاية عهده بالوكالة، بل بتجارة الفاكهة نهائيا.

★★★

عند دخول حلمى «غيط الصعيدى» وجد السكان يلتفون حول أقارب المهندس الذى فاز فى الانتخابات وبعضهم يصيح غير خائف مناديا بحياة المهندس المغوار الذى لم يخف، وبرئيس الجمهورية النزيه الذى وقف مع الحق ضد أخيه.

حينذاك انزوى حلمى. وسار بجوار الحائط متمنيا ألا يراه أحد منهم. وفى بيته كانت عجبة تبكى وتردد من حين لآخر «جت الحزينة تفرح ما لقت مطرح».

وليت الأمور وصلت إلى هذا الحد واكتفت، إلا أن بعض أولاد الحارة اجتمعوا حول بيت حلمى، وصاحوا بحياة المهندس، والموت للخونة والعملاء والانتهازيين. وكأن حلمى هو المرشح المنافس الذى أخفق فى الانتخابات . وليس عزمى بك شقيق «ل».

قالت عجبة فى خوف:

- إنهم يقصدونك.

وألقوا بالحجارة على النوافذ. حتى حطموا الزجاج.

بكى حلمى وقتها. لقد خسر كل شئ أحلامه التى مناه بها عزمى بك. وعمله فى الوكالة. فماذا يريدون منه الآن؟!

بكى عوض خائفا وكذلك فعل أخوه وأختاه. وأراد حلمى أن ينزل إليهم، فربما اقتنعوا بوجهة نظره لكن عجبة شدته من ملابسه خوفا عليه من أن يتمادى الأولاد ويضربونه بالطوب أو يسبونه.

قال حلمى:

- ليس لنا عيش هنا. فأنا لن أدخل الوكالة ثانية.

(٣)

منذ أن انتقل حلمى إلى غربال وهو نائم، إلى أين يذهب ووكالة الخضار والفاكهة لن يدخلها ثانية بعد الذى كان وأقاربه فى غربال متراصون على المقاعد فى المقاهى. كيف سيقابلهم، والحال وصل به إلى الطرد من الحجرة التى كان يسكنها فى «غيط الصعيدى» ولولا حماته نبيهة التى تركت حجرتها له، لكان الآن فى الشارع مع زوجته وأولاده.

تلح عجبة عليه:

– أصحِ يا رجل. أفعل شيئاً.

هو مستيقظ منذ ساعات، بل هو لا ينام فى يومه سوى ساعات قليلة، يسمع حديث عجبة مع قريبتها ويسمع صوت نبيهة عند الفجر تستعد للصلاة، لكنه لا يريد أن يقوم من مكانه، هناك شىء يشده إلى الفراش.

هو الذى كان يشترى اللحم من سوق البلدة فى الصعيد، «يصر» اللحم فى منديله الكبيرة ويرميه لأعلى ثم يلتقطه وعيون فقراء البلدة تكاد تخرج من محاجرها، تتابعه فى حسد وغيظ.

هو ابن الحاج حافظ الغنى. يأتى عليه يوم، تنفق فيه عليه نبيهة السوداء من تجارتها؟!

قالت عجبة:

– أمى نبيهة ليست غنية، هى تشقى بالقروش القليلة التى تكسبها من الفجر حتى المساء كما أن ابنها «عزوز» لا يساعدها فى مصاريف البيت.

وصاح حلمى وهو يبكى:

– أرحمينى ياامرأة. سأترك البيت ولن أعود أليه ثانية.

يتابع حلمى مايحدث أمامه فى أسى. تصر عجبة على أن يواصل ابنها عوض تعليمه. ابنة العلاف تريد أن تصنع المعجزات، تريد أن تجعل حلمى الدلل يعمل مثل سائر الرجال، وأن تجعل من ابنه مهندسا أو طبيباً، لكن الولد عوض يعرف

قدر نفسه. فهو الآن - رغم سنوات الدراسة الست - لا يعرف القراءة أو الكتابة، والكلمات يقرأها بصعوبة شديدة وفى معظم الأحيان ينطقها خطأ. وسرعان ما ينتابه الملل. فينزل إلى «حارة نعمان».

***

يبدو بيت نبيهة السوداء من بعيد وكأنه غير موجود فمساحته الصغيرة جدا تجعله غير مرئى بين البيتين المجاورين له. من اليمين واليسار.

كانت الأرض جزءا من أرض البيت المجاور له من ناحية اليسار، واختلف الورثة فأصر أحدهم على ألا يشترك معهم فى البناء وترك نصيبه - هكذا - دون بناء، وبعد أن مات. باع ورثته الأرض الصغيرة جدا. لأول مشتر تقدم إليهم. وكانت نبيهة السوداء.

يسكن عزوز ابن نبيهة السوداء فى الحجرتين الداخليتين من الدور الأرضى. واللتين لا تطلان على أى منفذ سوى الباب الضيق. والمظلمتين ليل نهار ونبيهة كانت تسكن حجرة واسعة فى الدور العلوى. والأخرى يسكنها رجل بلا زوجة وبلا أولاد. اختلف مع زوجته فترك لها كل شئ وسكن بمفرده.

إلا أن نبيهة تخلت عن حجرتها لابنتها عجبة بعد طردها من «غيط الصعيدى» وقنعت بكوخ صغير فوق السطوح تصعد إليه بسلم متنقل تضعه - وقت الصعود - أمام حجرة عجبة «ثم ترفعه - بعد ذلك - وتسنده على الحائط.

رضيت نبيهة بسكن الكوخ رغم معارضة عزوز ابنها لها. وزوجته «هانم» لكن نبيهة صاحت فيهما غاضبة:

- أتريد أن أترك ابنتى فى الشارع؟!

وصمت عزوز. فهو لم يكره أخته عجبة قط كما أنه لم يتعلق بها تعلق الأخ بأخته، فمقابلاتهما معا كانت قليلة جداً. فعندما ولدته أمه كانت عجبة تستعد

للزواج من حلمى. ثم جاءت به أمه إلى الإسكندرية بعد موت والده. وهو لم يصل إلى الخامسة عشرة..

اشترت نبيهة بيتها الصغير هذا. وعملت فى تجارة الخضار والفاكهة لتنفق عليه. ومازالت تبيع وتشترى رغم أنه عمل وتزوج وأنجب..

خلال هذه السنوات التى عاشها عزوز فى الإسكندرية، لم يلتق بأخته عجبة سوى مرات قليلة فهى تسكن «غيط الصعيدى» البعيد عن «غربال».

حتى المرات القليلة التى تأتى فيها لزيارتهم. يكون هو خارج البيت. أو نائما. فهو يعمل ورادى فى مصنع غزل كرموز . بدأ صبيا صغيرا، حتى أصبح أسطى على ماكينة غزل.

أما هانم - زوجة عزوز - فهى لم تعترض على سكن عجبة معها فى البيت. كل اعتراضها كان من أجل تعب «العجوز» ورضاها بأن تسكن كوخا من الصفيح الصدئ، عرضة لتقلبات الجو. بعد أن كانت مستورة فى حجرتها الواسعة..

ولامت هانم نفسها بعد ذلك فهى تبقى فى البيت المظلم الكئيب ليل ونهار وحدها. عزوز لا يمكث فيه سوى وقت الطعام والنوم، ونبيهة تقوم عند الفجر فلا يحس بها أحد - تذهب إلى الوكالة. ومن هناك إلى شارع «الإمام مالك» تقف بجوار بقال يعرفها. تخرج من دكانه ميزانها. وتجلس مستندة على حائط الدكان المدهون ببوية الزيت.

الكل هناك يعرف نبيهة. ويناديها من مسكنه. فتذهب إليه. تحمل الطماطم والفلفل الأخضر، تشترى الأشياء من أجلهم. الخواجات كثيرون هناك، يحدثونها بلكنتهم الغريبة، يرتاحون لها. فهى صادقة معهم ولا تشترى من الوكالة إلا أجود الخضار والفاكهة وأنضرها.

وهانم وحدها مع أطفالها. تشعل اللمبة الجاز منذ الصباح لترى فى حجرتيها المظلمتين. حياتها مملة تؤدى إلى الجنون. لكن عجبة لن تذهب بعيدا عنها مثل

عزوز ونبيهة. وإذا ما خرجت لقضاء حاجة ستكون هانم معها ، تذهبان إلى السوق أو لزيارة قريبة لهما معا.

***

دهمت «غربال» الولد عوض. فقد كان فى «غيط الصعيدى» بعيداً عن أبناء الحى.

يعود من مدرسته حاملا حقيبته القماشية المتسخة والمملوءة بالكتب والكراسات. يسير فى الزقاق الذى يقع فيه بيتهم. يعرف ناس الزقاق لكن ليس بينه وبينهم صلة، حتى أصحاب المتاجر هناك، ليس بينه وبينهم سوى البيع والشراء. لم تصادق أمه امرأة واحدة فى الحى. فمنظرها لا يشجع على الصداقة. ملابسها مهترئة ممزقة دائما. وشعرها مهوش حول وجهها. هذا غير دمامتها الواضحة.

تحاول عجبة أن تتقرب من النساء، فيتباعدن عنها ويسخرن منها.

تحب أمه الناس لا تغضب منهم رغم ما يفعلونه بها.

وتصرفات والده تبعد الناس عنه فيراه الجيران سائراً فى الشارع منتشياً يبتسم للاشئ يتابع سيقان الفتيات الجميلات، أو يرونه حاملا طبق المانجو فوق رأسه. ويقضم سندوتشا وهو سائر. يحيى أصحاب المتاجر فى «غيط الصعيدى» فيحيونه فى تكاسل ولا مبالاة يشترى منهم معسله الذى يدخنه فى القهوة، والشاى والسكر يأخذون منه النقود ويعطونه الباقى دون كلمة زائدة يعرفون أن اسمه حلمى، لكم لا ينادونه باسمه قط.

وجد عوض فى «غربال» زوجة خاله عزوز والتى يدعوها خالته، سمراء مثل أمه لكن تقاطيعها متناسقة جميلة. وابتسامتها حلوة. كل الأقارب يقولون إن ما يميزها هو دمها الخفيف. وعندما رآها عوض عن قرب أحس بأنها أكثر جمالا مما قالوا عنها.

***

بيت توحيدة قريب جدا من بيت نبيهة السوداء، شاهد عوض الولد «سيد» لأول في الحارة ، يذكر عوض هذا جيدا ، كان الجو حارا ، وسيد طويل وأسود، يرتدى بيجامة مفتوحة الصدر. مقطوعة الأزرار. تكشف عن فانلة شديدة الاتساخ ووجهه قذر جدا . تلتصق بقايا البراغيث بذراعيه. لا يذكر عوض الآن من كان يتحدث مع سيد وقتذاك. كل ما يذكره أنه قال:

- سأنام في الحارة، هربا من الأكلان والبراغيث».

أما الولد الآخر سعد فلا يذكر عوض في أى وقت حدث اللقاء، ولا في أى مكان من حارة نعمان، فالسنوات كثيرة ومتراكمة. والأحداث جسام، أنسته الكثير، كل ما يذكره أنه شاهد ولدا ممتلئا غريبا عن الحارة. حكت النسوة في البيوت عن موت أمه المفاجئ وعن حزن أمها الشديد. فقد كانت وحيدتها ، تحدث عوض معه. كان يحكى فيلما رآه. وكلما ذكر كلمة «الشيخ» يضحك الأطفال، فقد كان ينطق الشين سينا . ويحمر وجه سعد ويزداد ارتباكا . فيتعلثم ولا يستطيع أن يكمل.. لمح عوض وقتها دموعا في عينيه. ثم أسرع مختبئا في بيت جدته لأمه، المواجه لبيت توحيدة.

يعرف عوض أن سعد يدرس في مدرسة. وأنه يجيد القراءة والكتابة كان يقرأ مجلات سمير وميكى ويحكى لهم ما قرأه.

دعاة عوض إلى بيته يوما فقابلته هانم بوجهها الأسمر الرائق، وملامحها الدقيقة المتناسقة، وجاءت عجبة ريتت فوق ظهره حانية، ومصمصت شفتيها حزنا:

- إنه يتيم.

يرتبك سعد ويتلعثم، ويحمر وجهه خجلاً خاصة عندما جاء حلمى ليحدثه فحلمى يعرف والده منذ أن كانا معا في الصعيد. أبو سعد حالته متيسرة. ويمتلك بيتا قريبا من «غربال».

ويدعو سعد عوض ليستذكر معه في بيته، مازال عوض يذكر هذا جيدا . بيت أكبر من بيت جدته نبيهة الذى يشبه أخدودا في جبل ، وأثاث كثير غالى الثمن.

غير أثاث أمه عجبة [illegible] التواضع

تحركت أسرة سعد حولهما. والده يرتدى سروالا طويلا معقوداً برباط أبيض من الوسط [illegible] جة والده الصغيرة الطويلة ذات اللون الاصفر. تنظر إلى عوض من بعيد فى استخفاف.

طلب والد سعد من عوض أن يقرأ فى الكتاب المدرسى الذى يستذكران فيه. فتعثر ولم يستطع أن يقرأ فصمت الرجل. وصمتت الأسرة كلها. وابتسمت زوجة الأب فى سخرية وأحس عوض بالمأزق.

كان صمتهم سؤال كبير ابنهم: مادام لا يجيد القراءة هكذا ، فلماذا جئت به ليستذكر معك؟!

لم يدخل عوض بيت سعد طوال فترة الدراسة وعندما دخل البيت بعد ذلك بسنوات. كان والد سعد قد نسى ما حدث.

★★★

عمل عوض كواء. ثم مساعداً لبائع نشارة خشب ناعمة يشترونها ليرشونها فى المتاجر بعد غسل البلاط ومسحه. لكن الرجل كان يجعله يجر العربة الممتلئة بالأجولة المكبوسة وكأنه حمار صغير. وكان يضربه على قفاه ويسبه ويسب أباه دون سبب.

ثم اهتدى إلى عمل أحس فيه بالراحة بعد رحلة العناء الطويلة، فهو فيه حر نفسه، لا يتحكم فيه مخلوق فقد رأى بعض الصبية من الحى يحملون قففا صغيرة فوق أكتافهم، ويذهبون إلى ورش السباكة والخراطة فى أبى الدرداء والسنوسى. يجمعون ما يتبقى من نحاس وزهر وحديد. ويعودون عند الظهر تقريبا يبيعونه إلى عباس الأعور.

استطاع عوض أن يصادق هؤلاء الصبية فدله أحدهم على أماكن الورش.. ولأنه زميل طيب .. فقد أعطاه المعلومات الكافية التى تسهل له عمله:

هذه الورشة صاحبها رجل طيب. يعطيك ما لديه دون عنف.

لكن ذلك شرس، سباب دين، إذا ما رآك أمام رشته يتهمك بمحاولة سرقتها، ويأمر عماله بمطاردتك بالمكانس. وإذا أمسكوك، يضربونك.

عمل عوض فى هذه المهنة الجديدة عليه ووجهه البعيد عن الوسامة، وجسده النحيل. وصوته الضعيف الواهن جعلوا مهمته سهلة. فأصحاب الورش يتعاطفون معه. ويشفقون عليه، فيعطونه أكثر من الآخرين..

★ ★ ★

يقف صابر ابن عباس الأعور فى دكان الخردة، يضع النحاس وحده. والزهر وحده. والحديد وحده. فكل نوع له ثمن مختلف. وأمام الميزان يقف «على الادغ» بقفطانه المتسخ. كرشه يلتصق ببنك الدكان.. يصيح فى صابر:

– زن النحاس يا صابر . أريد أن أمشى.

يدفعه صابر بعيدا . فلا يغضب، ولا يتغير فيه شئ. يضع بعض النحاس الذى جمعه على الأرض. فينحنى بجسده الممتلئ ويجمعه ثانية ويضعه فى كفة الميزان. ويعود ثانية لوقفته. وكأن شيئا لم يحدث.

يعرف صابر أن الولد على الادغ يجمع النحاس من شونة والده – عباس الأعور – فى شارع (٨) حيث ينام فيها فوق بالات الورق المكبوس والمتراص.

ويعرف صابر أن والده كان متزوجا – قبل أمه – من أم على هذا. وهو مازال يأتى إلى البيت ومن وقت لآخر طالبا بعض النقود الصغيرة. فتضع البنت حياة الطعام له فوق البلاط العارى بجوار السلم ولا تسمح له بدخول البيت.

يغضب عباس الأعور من ابنه صابر عندما يراه يعامله بهذه الطريقة الشرسة. يصيح فيه:

– يا ابنى الولد يتيم وفى حاجة إلى رعاية.

- يتيم؟! إنه طويل وعرض الشحط.

- أجل . لكنه أهبل.

صابر يسمع هذا ولا يجيب. فالحى كله يردد الحكاياتِ الغريبة حول زواج أبيه عباس من أمه ستيتة..



ويعـود عـوض لأمه بمبلغ لم يكن يحلم بـأن يحمله في سترته يوما. أكثر من أجره الكواء فى أسبوع. وأكثر من أجـرة بائـع النشارة الناعمـة فى أيام قليلة.

يومها خرجت عجبة إلى السوق، اشترت الخضار الصابح وطبخت. منذ مدة طويلة وهى تعتمد فى طعامها على ما تأتى به أمها نبيهة: الخضار المتبقى من عملية البيع التى تقوم بها أمها فى شارع الامام مالك . وصحا حلمى من نومته. جلس على الكنبة التى يستلقى عليها دائما. تابع ابنه فى حيرة. أراد أن يقرره فربما أن الولد سرق هذه الأشياء وباعها لعباس الأعور. لكن الرجل لم يستطع سؤاله. فقد حل ابنه الصغير المشكلة بمعرفته. وجاء بمبلغ لا يكسبه حلمى فى رحلة طويلة يقضيها فى سوق العطارين. ثم فى المقاهى التى تقابله حتى (غربال).



بمرور الوقت عرف عوض بعض الأسرار التى تساعده في عمله هذا. فكان يدفع يوميه لعمال الورش ليحتفظوا له بما يتبقى . حتى غار منه بعض الزملاء. ورددوا فى أسي: علمناه الشحاته فسبقنا على البيبان .

يذهب إلى دكان عباس الأعور . يضع الأولاد قففهم الفارغة - بعد البيع - ويتجمعون بملابسهم السوداء من أثر تراب الورش التى يكنسونها نظير ما يأخذونه منها. يلعب الأولاد بعد بيع ما يجمعون بجوار دكان عباس الأعور. يرمون القطع الصغيرة المتبقية من القلل الفخارية. ثم يلتقطونها بمهارة يسمون هذه

اللعبة بـ «المال».

عوض رغم يده الصغيرة . يستطيع أن يجمع المال ويغلب من يلاعبه.

تعلم عوض إخفاء بعض النقود فى حفر الجدار الكثيرة التى تقابله وهو صاعد على سلم البيت.

يستحم بعد أن يحاسب أمه. ويرتدى ملابسه النظيفة ويخرج. لا تسمح له أمه بأخذ مبلغ كبير. لا تضربه ولا تسبه . لكنها دائمة الشكوى من أبيه الذى ينام طوال الوقت. ومن المطالب الكثيرة لإخوته الصغار..

وهو هابط السلم. يأخذ النقود من المكان الذى خبأها فيه..



(٤)

أول مرة رأى عباس الأعور الولد على كان مع أمه ستيتة فى الخرابة. التى كان عباس يجمع فيها الورق الذى يجمعه من الشوارع. فيترك الجوانى الممتلئة بالدشت إلى حين أن يجد عربة يد. فينقلها إلى تاجر الدشت فى اللبان.

تدخل ستيتة الخرابة. والولد على فوق صدرها. تضعه بجانبها فوق التراب. ثم تخرج القروش التى جمعتها. تعدها . ثم تضعها ثانية فى جيب جلبابها الداخلى.

المرأة ممتلئة، جسدها مترهل. تأفف عباس من رؤيتها أول الأمر. أحست هى بوجوده فى الخرابة من تحركات ولدها الرضيع. وأنفاس عباس العالية. صاحت فزعة:

- من بالخرابة؟

صاح هو ليطمئنها:

- أنا عباس.

قامت فزعة تريد أن تخرج، فصاح هو بها:

- إلى أين . أنا الذى سأمشى.

وتركها وخرج منتظرا العربة اليد خارج الخرابة.

وتكرر لقاؤه بها. اطمأنت إليه. لكن امتنعت عن عد النقود أمامه فى الخرابة.

تسكن ستيتة فى حجرة فى بيت (عثمان) والد سعد . كانت فيما سبق دورة للمياه فألغاها. ونقل الدورة إلى الخارج بمناسبة زواجه الجديد. وحول دورة المياه القديمة إلى حجرة سكنية.

تجلس ستيتة بابنها على فى شارع إيزيس . تضع أمامها علبة من الكرتون بداخلها عدد محدود من أمشاط الكبريت، تفاديا لمطاردة بوليس الآداب الذى

يطارد المتسولين. فإذا ما أرادوا القبض عليها. احتجت وادعت بأنها كانت تبيع أمشاط الكبريت.

تبدأ ستيتة عملها بعد صلاة الفجر، لتلحق بالذاهبين إلى أعمالهم. فالمحسنون فى الصباح كثيرون حتى يبارك الله لهم في يومهم من أوله، ويرزقهم رزقا واسعا.

وعند الظهر- حينما تشتد حرارة الشمس فى المكان الذى تجلس فيه، تذهب إلى الخرابة لتأكل مع ابنها . فى ذلك الوقت يكون عباس الأعور - هو الآخر يستعد للغداء . يشترى الطعمية والجبن والطماطم. ويلح عليها بأن تشاركه طعامه. والمرأة - رغم نقودها الكثيرة - لا تريد أن تنفق مليما على الأكل والملبس. ولا على أى شئ آخر.

تتمنع بعض الوقت. ثم تمد يدها لتأكل. تدس اللقمة المغموسة فى الجبن فى فم الولد على ليأكل.

يحكون فى الحى أن ستيتة تمتلك كنزا تدفنه فى حجرتها فى بيت عثمان. مملوءا بالجنيهات الخضراء والصفراء الذهبية والفضية.

المرأة دميمة لا تطاق. لكن النقود طعمها حلو. ومن أجلها يفعل عباس المستحيل، أجل سيتزوج ستيتة، لم يخبر أحدا بذلك.

والمرأة جالسة مقرفصة فى الخرابة. تضع الولد فى حجرها. والشمس حامية. من شدتها جعلت العرق يسيح فوق رقبتها وبشرتها البيضاء.

نامت المرأة رقبتها لأعلى. وكذلك نام ابنها على. اقترب عباس فى حذر. مسح بيده العرق من فوق رقبتها الممتلئة. رداؤها الأسود معفر بتراب الخرابة، وتراب المكان الذى تتسول فيه بشارع إيزيس.

فزعت المرأة وصاحت:

- من ، من ؟!

حدثها قلبها أنه عباس الأعور. ولكن قد يكون غيره . صرخت بصوت مرتفع.

لولا ستر الله لامتلأت الخرابة بالناس. وافتضح أمر عباس.

- ماذا تريد منى؟!

- أنا عباس لا تخافى.

ذكرها ذلك بما حدث منذ سنوات قليلة. عندما اقترب منها بائعان فى سوق «النصارى». كانا يعطفان عليها. يعطيانها الطماطم والفلفل الأخضر والخيار دون شئ .لا تدرى ستيتة كيف وافقتهما. أخذاها إلى المخزن الذى يخزنان فيه عربيتهما.

فى المخزن عربات يد كثيرة. أحست هى من الممرات الضيقة التى قادها فيها. دس أحدهم ربع جنيه بأكمله فى يدها. ولم يتكرر هذا معهما. ولا مع غيرهما. ولم تبحث - هى - عنهما . وهما لم يطلبانها ثانية . ربما لم ترق لهما.

ونسيت ستيتة - بمرور الوقت - ما حدث . تسير فى السوق كثيرا. ولا تسمع صوتهما. ولا تعرف اسميهما لتسأل عنهما. ربما فارقا سوق النصارى وانتقلا للبيع فى سوق آخر. أو ربما غيرا عملهما وامتنعا عن مزاولة البيع نهائيا.

- جننت يا عباس يا أعور.

- اصمتى أرجوك . لا أريد فضائح.

صاح الولد على . وأخذ يدعك عينيه. تابع ما يحدث فى ترقب وانتظار.

- أريد أن أتزوجك يا ستيتة.

★ ★ ★

انتقل عباس الأعور إلى بيت عثمان. حجرة يتساقط الماء من ماسورة المجارى المعلقة فى السقف ، والتى تنقل مخلفات دورة المياه فى الدور العلوى.

لقد تودد عباس الأعور إلى ستيتة وداعبها. وغازلها. وامتدح صدرها الممتلئ. لكن المرأة كانت حصيفة وواعية. فلم تدله على مكان كنزها. وادعت أنها تأكل أولاً

بأول بكل ما تجمعه من مال. وإلا ما كان جسدها بكل هذا الحجم. وأن ما يدعيه الناس عن كنزها كذب وافتراء.

لم يصدقها عباس الأعور بالطبع. فلو صدقها سيجن. أيمكن أن تكون كل تضحياته ومغامراته هذه للا شئ؟ لو اتضح أن ستيتة تصدق فى قولها، سيضحك الناس على عباس وسيسخرون منه. لقد تحمل على نفسه وأجبرها جبرا على الزواج من تلك النفاية البشعة المسماة «ستيتة».

إشفاق عباس على نفسه من الفشل جعله لا يصدق ما تدعيه ستيتة. كانت تغلق باب حجرتها بالقفل وتأخذ المفتاح معها. وإذا عاد عباس قبلها يظل منتظرا إلى أن تعود بطفلها. تصرفها هذا أكد لعباس مزاعم الناس فى وجود الكنز فى حجرتها .

جاء عباس إلى البيت بعد خروجها منه بقليل. الحجرة داخل شقة بها ثلاث حجرات غيرها. كل حجرة تشغلها عائلة.

رآه البعض وهو يخلع مسامير (الرزة) التى يدخل القفل فيها . قال للسكان الذين تابعوه فى دهشة:

- نسيت أن آخذ المفتاح من ستيتة.

لم يهتم أحد بقوله. فهم لم يروا ستيتة تعطيه مفتاح حجرتها قط. لكنه زوجها ، والرجل وزوجته حران فى بعضهما البعض.

دخل الحجرة وأغلق الباب خلفه. وأخذ يتشمم النقود ككلب. بلاط الحجرة متآكل. وبعضه مخلوع وتفوح منه رائحة العفن . من تراكم الماء الأسن تحته.

منذ أن كانت الحجرة دورة للمياه، وماسورة المجارى تطل من أعلى، يتساقط رذاذ الماء منها على جسد عباس الأعور.

عادت ستيتة مساء. أمسكت القفل لتفتحه. فأحسست بأن الرزة قد خلعت من مكانها وأعيد تثبيتها ثانية بالمسامير.

قالت امرأة من سكان الشقة مسرعة حتى لا تتهم ستيتة أحد الجيران بالسرقة.

- عباس زوجك هو الذى خلعها.

دق قلب ستيتة داخلها فى عنف وأحست بالخطر. قبل أن تدخل حجرتها، فعباس دائم السؤال عن النقود، دائم البحث عنها، مرات كثيرة تحس به يفتش فى ملابسها وهى نائمة. ظنا منه أن الكنز المنشود داخل ملابسها. كما أنه ليس فى حاجة إلى الحجرة فى ذلك الوقت.

أسرعت إلى الداخل . لهفتها نسيت أن تغلق باب الحجرة كعادتها. أسرعت إلى مكان النقود.. تحسست الأرض بأصابعها. وجدت البلاط متراكما ، والتراب المبلل بالماء يحيط به رددت فى أسى:

سرقنى عباس الأعور.

قالت هذا من قبل أن تبحث وتتأكد.

النقود كانت فى «تناية» صدئة. بها بعض الردة حتى لا يفسد الصدأ الأوراق المالية، ومغطاة بقطعة خيش ثم التراب والبلاط فوقها.

صرخت ستيتة وضرب على صدرها. حتى التف السكان حولها.

المرأة شديدة الامتلاء. تلهث إذا ما سارت . كانت تعانى من أمراض عدة: سكر . ضغط دم مرتفع وتعب فى القلب . لكنها لم تكن تهتم. يعطونها فى المستشفيات الحكومية أدوية كثيرة. ترميها فى الطريق كل ما يهمها. النقود التى تجمعها من المرضى هناك.

تكومت ستيتة فى آخر الحجرة، ورائحة العفن تفوح من ماسورة المجارى المعلقة فى السقف ومن التراب الذى أخرجه عباس من تحت البلاط وفتش فيه.

لم تقل ستيتة شيئا عن عباس، أو ربما قالت قبل أن يأتى الجيران. المهم أنهم لم يسمعوا شيئا عنه.

كان الولد على جالسا ملتصقا فى الحائط بشارع إيزيس. فى المكان الذى تجلس أمه. منظرا عودتها من البيت ككل يوم. فهى تذهب لقضاء حاجتها. وتريح ساقيها من الجلسة المقرفصة التى تتطلبها عملية التسول. ثم تأتى بالطعام لها ولابنها.

مر عباس على شارع إيزيس. توقع أن يجد ستيتة فى مكانها وابنها فى حجرها. لم يتوقع أن تكتشف السرقة بهذه السرعة. لكنه وجد الولد وحده. فحمله وعاد به إلى البيت.

حكت النسوة له عما حدث، فبكى وانتحب. وحمل الولد على وضمه إلى صدره وقبله.

سأل البعض عن كنزها المدفون: «حرام أن يضيع هكذا. دور يا عباس. أنت وابنها أولى به من الغريب» لكن عباس صاح فيهم:

– بعد المرحومة لن أهتم بشئ..

يعود عباس مساء. حجرته فى الداخل. يدق الباب.

على مازال معه. لن يفرط فيه الآن حتى لا يكتشف سره.

يدق الباب ثانية. فلا يسأل عنه أحد. الزوجات يخفن من أن يفتحن له فيغضبن الأزواج. والرجال غير راغبين فى ترك فراشهم الدافئ من أجله.

ستيتة رغم عماها. كانت تتحسس الطريق وتفتح له إذا ما تأخر هكذا.

يقوم عثمان – صاحب البيت – بعد أن يزفر. وتطارده دقات عباس العنيفة على الباب. يفتح له فى عصبية:

– عباس. أنت عزب الآن. لابد أن تجد لك مسكنا آخر. أم تريد أن تسكن وسط العائلات بلا زوجة.

– أجل. سأبحث لى عن سكن آخر.

ثم يخرج عباس إلى الناس فجأة بأموال كثيرة. اشترى الخرابة التى كانت سببا فى زواجه من «ستيتة» وحولها إلى شونة ورق. يشترى فيها الورق من

الزبالين. ويبيعه لتاجر كبير فى «اللبان».

ترك الولد على يسكن الخرابة، حارسا بالات الورق. ثم تخلى عنه تدريجيا. حتى تكفل به أبناء حارة نعمان. وبعض سكان الشارع العمومى وبعض الحارات الاخرى. يقدمون الطعام اليه وملابس أولادهم القديمة ..

★ ★ ★

عندما اتسعت تجارة عباس الأعور، ترك شونته فى حارة نعمان. وانتقل إلى شونة مبنية من الطوب والأسمنت المسلح في شارع ٨. وأراد أن يتخلص من الولد علي. فوجوده أمامه يضايقه، لا يرتاح له. وجه الولد الممتلئ قريب الشبه من وجه ستيتة أمه. لو أغمض عينيه - كما كانت ستيتة تفعل - لأصبح مثلها تماما..

قال له:

- ابق هنا فى الشونة.

لكن الولد أصر على الذهاب معه فى شارع (٨) . بكى، فتقبله عباس على مضض.

على الألدغ يكبر بشكل غير عادى، يزداد جسده طولا وعرضا وبطريقة لا تتناسب مع عمره. لكنه مازال فى ردائه الشديد الاتساخ. وعاداته الغريبة. كل همه أن يملأ كرشه.

يعطيه عبـــاس أجره كل يوم نظيـــر ما يشتريه له من لحم وفاكهة يرسلها إلى المرأة الفلاحة التى يتابعها عباس طوال الوقت. وعلي يعرف عمله جيدا. كل ما يحدث ينقله إلى الحاجة - زوجـة عباس - كما أوصتـــه يعود على إليها مساء، تضع له الطعام فى المطبخ. ثم يذهب بعد ذلك إلى الشونـــة. ينام فوق بالات الـــورق العاليـة.. يطارده صوت العرس والفئران.. يلف الجونية حول جسده كله. ويربط رجلى بنطلونه حـول ساقيـة.. خشية أن يدخل فأرا وينفذ داخل جسده.

اكتشف عباس الاعور أن الولد على الالدغ قد قرصه كثعبان. فبعد أن آواه في شونته وصانه من أخطار الطريق وبرد الشتاء وحر الصيف. وأطعمه وكساه، وكان أحن عليه من أبيه الذى رماه، ولا يعرف طريقه أحد، بعد هذا كله يخونه. ويبلغ الحاجة بكل ما يفعله مع المرأة الفلاحة.

★★★

الحاجة بدينة . تنام على روحها. وتستكثر عليه أن يبحث عن نفسه.

واحدة غيرها كان يجب أن تحمد ربنا لأن عباس مازال يبقى عليها. ويخاف على شعورها وإحساسها ويحترمها أمام أبنائه وعماله وأهل الحى جميعا.

أثارت المرأة العجوز المعلومات التى جاء بها على الالدغ اليها. فصاحت فى عباس وسردت عليه قائمة الهدايا التى أرسلها إلى المرأة الفلاحة والتى لا يعرفها سوى الولد على الألدغ لأنه هو الذى «يوصلها» اليها.

أراد عباس أن يؤذى على الألدغ. أن يأمر عماله بربطه فى مكبس الورق، ويضربه حتى يظهر له أصحاب.. ويبان والده الذى تركه فى الطريق. لكن ذلك ليس من طبع عباس لقد تعلم أن «يحكم» عقله فى مثل هذه الأمور. فالحدة وكثرة الحديث يجعل الخبر ينتشر فى كل مكان. والذى لم يكن يعلم سيعلم. سيكون عباس فى الآخر، هو الخاسر.

«وشيل ده من ده، يرتاح ده عن ده» هكذا علمته الأيام: يا على يا الدغ ، من الآن ليس لك عمل عندى . ابحث لك عن نومة فى مكان آخر.

– يا معلم.

– لا تتعب نفسك وتتعبنى. لن أرجع عن هذا القرار أبدا.

على الألدغ حسبها خطأ. كان لابد أن يعلم بأن آجلا أو عاجلا سيعلم بخيانته له. فأى امرأة لن تستطيع أن تواجه خيانة زوجها لها بهدوء أعصاب وقلب بارد .

(٥)

الأولاد الذين سبقوا عوض إلى مهنة جمع بقايا الورش، حكوا له عن كل شئ، فيما عدا موقف الشرطة منها. لم يكن عوض يعتقد أن للشرطة دخلا فى هذا الموضوع. فأصحاب الورش راضون عن أخذ مخلفات ورشهم. وان لم يأت الأولاد لأخذها. سيبحثون عن من يأخذها. أو يرمونها فوق أكوام الزبالة ليتخلصوا منها. كما أن هذه المخلفات تباع لأصحاب متاجر تعرفهم الشرطة جيدا. ويعملون فى عز النور. والشرطة راضية عن عملهم- ولديهم رخص و وسجلات تجارية. ويتعامولون مع الضرائب . فما الذى يغضب الشرطة من مهنة كهذه؟!

المهم أن شرطيا سريا سار بجوار عوض وهو يمسك قفته الصغيرة. لم يهرب عوض منه. لو جرى ما كان الشرطى لحقه أبدا. فعوض يطير كالعصفور بجسده النحيل. ولماذا يجرى منه وهو لم يفعل شيئا وضع الشرطى يده فوق كتف عوض النحيف وسأله:

- ما هذا؟

أحس عوض بالخوف، وندم لأنه لم يجرء ظن - أول الأمر - أن الشرطى يشك فى أن ما معه أشياء مسروقة، قال عوض:

- لم أسرق شيئا.

لكن الشرطى لم يتركه إلا بعد أن سلمه لصول بدين فى قسم «اللبان». القريب من الورش التى يتعامل عوض معها.

سبه الصول ودفعه فى صدره. وأمره بأن يضع قفته فوق البلاط العارى لكى لا يتسخ المكتب. وأدخل الشرطى السرى يده. فأخرج محتويات القفة: قطع نحاس صغيرة وزهر وحديد. رآها الصول. ثم أمر بإعادتها إلى مكانها ثانية.

لقد تأكدوا من عدم وجود مسروقات فى القفة . فلماذا الإصرار على حجزه فى القسم؟!

الحجرة مليئة بالنسوة. فليس من المعقول أن يحجزوه مع الرجال وهو فى سن صغير هكذا. فالرجال قد يعتدون عليه. خاصة أن جسده الصغير الضامر يعطيه سنا أقل من عمره الحقيقى بكثير

كان هو الصبى الوحيد بينهم.

بكى عوض وقتها. فهو يدخل قسم الشرطة لأول مرة فى حياته.

اقتربت منه فتاة طويلة ترتدى ملابس مزركشة. ويظهر من وجهها آثار التزين. ربتت على ظهره . ثم مسحت على شعره المجعد المتسخ بتراب الورش.

– ما الذى يبكيك؟

كان وجهها النحيف يبتسم.

هى لم تزد على السادسة عشرة. شعرها مصبوغ بالأصفر وفى هيئتها جرأة.

نظر عوض إليها. ومسح عينيه فى عصبية . فاتسخ وجه أكثر بالتراب العالق بيده. فضحكت الفتاة:

– ماذا فعلت؟!

أشار إلى القفة وبكى ثانية . ضحكت بصوت مرتفع:

– كنت تلم الحديد من الشوارع؟

أومأ برأسه.

– هذه ليست تهمة. إذا ما جاء أحد من أهلك، سيتسلمك فى الحال.

حكت امرأة سوداء، شديدة النحافة. كان الكحل واضحا فى عينيها رغم ظلام الحجرة وسواد المرأة:

– جاءوا إلى البيت عند الفجر. وأخرجونا شبه عرايا. وضربوا الرجال الذين كانوا معنا ثم طردوهم إلى الشارع.

قالت الفتاة النحيفة، محاسن:

– المفروض أن يأتوا بالرجال إلى هنا مثلنا. فهم كانوا يفعلون ما نفعل.

بكاء عوض لم يؤثر فى النسوة الجالسات كما أثر فى محاسن. الباقيات كن

يتـابعنه فى صـمت. بعـضـهن يبكين من أثر الضـرب الشـديد الذى لاقـينه من المخبرين. وأخريات وضعن رءوسهن فوق أيديهن ساهمات.

لم تبد محاسن حزنا . كانت تبتسم طوال الوقت وتشعل السجائر فى عصبية.

دخل شرطى سرى شاب حاملا لفافة واقترب من محاسن. أخذ يمازحها . وضحكت هى وصهللت . ثم أخذت اللفافة وعلب السجائر.

هى أكثرهن جمالا. وأصغرهم سنا. لهذا يهتم الشرطى الشاب بها. ويتقرب إليها:

- تعالين لتأكلن.

قالت امرأة بدينة:

- قلبك خال يا «محاسن».

- ستظلون هكذا إلى أن تعرضوا على النيابة فى الغد.

قالت امرأة كان العمود الخرسانى يحجبها، كما أنها لم تتحرك طوال الوقت ولم تتحدث حتى صارت جزءا من العمود:

- ألا يمكن أن ينتهى الأمر دون الوصول إلى النيابة كالمرات السابقة؟

- لا أظن. فالضابط مصمم هذه المرة على ذلك .

تناول بعضـهن الطعام دون حماس . وملأت محاسن فمها الواسع بالطعام وأخذت تلوكه فى أناة وكأنها مدعوة إلى حفل عرس.

شدت عوض إليها وأسندت جسده على جسدها المنتصب. أعطته سندوتشا.

- لا.

- خذ يا ولد قد تتأخر هنا ولن يسأل عنك أحد.

توجد فى الحجرة بعض السيدات محتجزات لأمور أخرى غير الدعارة. كن أقل جمالا. وملابسهن متسخة ومتآكلة. احداهن ضبطت وهى تتسول على الكورنيش . وأخرى أدعت أن كل ما فعلته هو بيعها لورق اليانصيب . تظاهرت النسوة بتصديقها. وقالت امرأة . بعد أن ابتعدت عنها:

- ورق اليانصيب ليس بجريمة. إنها تمارس الدعارة وتتوارى خلف بيع اليانصيب.

وامرأة أخرى ملامحها قاسية. تأففت من ملابس المومسات وقالت فخورة بكونها لصة:

- نسرق آه ... إنما ....

كانت النسوة الأخريات تتحاشاها . ومحاسن تنظر إليها باستخفاف. ثم قالت بعد أن ابتعدت المرأة وبصوت خافت:

- ولو وجدت من يرضى بها ما ترددت.

★★★

أحس عوض بالتعب الشديد، وبرغبة فى النوم. جسده الضامر لا يحتمل هذه المشقة . شدته محاسن إليها . وضعت رأسه فوق فخذها وجعلته ينام.

عندما استيقظ أحس بأن الحجرة قد ازدادت ظلاما. ومعظم السيدات نائمات والغطيط بكل أنواعه يأتى من كل جانب فى الحجرة المتسعة.

لكن محاسن لم تنم. ولم تتحرك خشية أن يصحو عوض.

جاء الشرطى السرى الشاب . قال لمحاسن:

- كل الضباط غادروا القسم. ولن يعودوا قبل ساعتين على الأقل.

استيقظ بعض النسوة فى ضيق . وتثاءب بعضهن ، وهرشت امرأة رأسها.

السيدات اللاتى ضبطن فى قضايا مثل هذه من قبل، يعرفن ما سيحدث: العرض على النيابة فى الغد، ودفع الكفالة المطلوبة، ثم الافراج إلى حين القضية.

قدم الشرطى الشاب سيجارة إلى محاسن. بعض النسوة كن يتابعن ما يحدث فى ضيق، كن يحسدنها لاهتمام المخبرين بها، حتى عندما ضربوهن. لم تلق محاسن مالاقته الأخريات. ترفقوا بهاحتى الضابط مازحها ونصحها قائلاً:

- مازلت صغيرة يا محاسن وتستطيعين أن تلحقى نفسك.

دخل مخبر آخر واشرك فى الحديث. قالت محاسن بصوت مرتفع:

-- أخاف أن يطب الضابط فجأة.

– تأكدى مـ[illegible]ـله لك.

وأكد الزميل الآخر على قوله . فقالت بلا حماس:

– أين؟

– فى دورة المياه.

– لا . أنا أقرف منها.

قال الآخر:

– أأمن مكان وسط حجرتى الحجز . فمنها نكشف الباب الكبير . ونرى الداخل إليه والخارج منه. أومأت – هى – برأسها . وخرج المخبران فرحين.

اللمبة الوحيدة المعلقة فى السقف خافتة وبعيدة . والنسوة نائمات وهن جالسات . والمرأة ذات التقاطيع القاسية التى سخرت من المومسات – نامت ممدة فوق الأرض العارية مصلوبة. وأرسلت غطيطا عاليا كأنها تحتضر.

قالت محاسن لعوض وهى تربت على خده:

– أريدك فى خدمة.

لم يجبها. الخوف والحزن جعلاه غير قادر على النطق:

– اتبعنى.

ترك قفته الصغيرة.

بعد أن خرجوا أغلق الشرطى حجرة ثانية بالقفل.

المسافة بين حجرتى الحجز (الرجالى والنسائى) ليست طويلة. ولمبة بعيدة ترسل ضوؤا كابيا ناعسا قالت محاسن لعوض:

– انظر إلى باب القسم. إذا ما دخل أحد أخبرنى.

لم يجبها. ذهب إلى المكان الذى حددته له. قالت:

– خاصة الضباط.

باب القسم ظاهر أمامه رغم بعده.

حالة من الكسل اجتاحت القسم كله . بعض الجنود يتثاءبون فوق مقاعدهم.

وقفت محاسن، التصقت بالحائط. وكشفت عن ساقيها . ثم رفعت ساقا واحدة وثنتها ككلب يبول. ودخل المخبر الشاب إليها . نظرت هى إلى عوض فى ابتسام مشجعة. وكأن المخبر يتعامل مع جسد آخر غير جسدها .

لم يمكث المخبر الشاب طويلاً. ودس فى يدها المبلغ المطلوب .. ثم جاء آخر وفعل مثله.

ملت محاسن الوقفة. فلم تعد تنظر إلى عوض . تابعت المخبر الذى يلتصق بها فى ضيق وقرف. وفجأة صاح عوض:

– ضابط.

أسرع المخبر مرتعدا وهو يستر نفسه. ويزرر بنطلونه . ثم نظر إلى مدخل القسم. فرأى جسدا كبيرا يتحرك فى اهتزاز من بعيد ويقترب . صاح المخبر فى عوض بعد أن صفعه غاضبا:

– إنه عمك محروس.

كان الوافد هو الصول البدين الذى تسلم عوض عند حضوره فى الصباح، قال المخبر الشاب له:

– لك شوق يا عم محروس؟

– بكم.

– بجنيه.

– ماشى.

ابتعد المخبر واستعد الصول للدخول. محاسن أطول منه بكثير . فاشرأب الرجل حتى يصل إليها . كان يلهث وهى تتباعد. تريد أن تخترق الجدران لتهرب منه.

دخل عليها بجسده الممتلئ. كرشه خنق جسدها كله. أخذت تلهث وتزوم ككلب يحتضر.

الوقت يمر وهى تئن. والرجل كما هو معلق وكرشة يلتصق بها. بكت، ثم صرخت، ثم دفعته بعيدا عنها.

عادت إلى حجرة الحجز منهكة . بكت، وارتمت على أرض الحجرة.

– صول كالبغل جعل ظهرى يتسلخ من الحائط.

قالت امرأة من بعيد متشفية:

– وما الذى يغضبك على هذا؟!

– الكفالة يا أختى، من أين سأدفعها؟!..

★ ★ ★

فى الصباح، دفعهم المخبرون إلى عربة الشرطة الكبيرة. أمسكت محاسن بيد عوض قائلة:

– لاتخف . وكيل النيابة سيسالك. فرد عليه بلا خوف وهو لن يؤذيك.

الغريب فى الأمر أن المخبرين والصول الذين تعاملوا معها كانوا يدفعونها مع الأخريات ويسبونها مثلهن وكأن لاشئ حدث بالأمس. وضابط يقف يعد الداخلات إلى العربة بصوت خافت وهو يشير بأصبعه.

أعادوهم بعد العرض على النيابة . دفعهم شرطى كان يمسك بعصا طويلة. ويسب كل واحدة بكلمات جارحة متلذذا بلصق عصاه فى أماكن حساسه من أجسادهن. وعندما رأى عوض آتيا من آخر العربة المظلمة صعب على الشرطى أن يمر الولد دون أن يذيقه مما أذاق الأخريات. فسب أمه بنفس الكلمات التى وصف بها النسوة.

فى حجرة الحجز كان الجو غير الأمس. الكل صامت حزين. بعضهن لم يأت أحد لدفع الكفالة لهن.

جاء الشرطى السباب. ونادى على ثلاث من النسوة إحداهن كانت محاسن.

التى ابتسمت لعوض قائلة:

- سأخبرهم فى البيت. وسألته عن عنوان بيته. بينما الشرطى يصيح ويهدد . فأسرعت إليه وهى تلوح لعوض من بعيد مبتسمة لتطمئنه.

أحس عوض بالغربة بعد رحيل محاسن. لم تقترب واحدة منه لتعوضه عن الأمان الذى أخذته محاسن معها انزوى بعيدا عنهن، وضع رأسه فوق قفته الصغيرة ونام.

استيقظ عوض على قدم الشرطى تدفعه فى مؤخرته . لاعنا أمه بكلماته المفضلة والمنتقاة .

وجد عوض عجبة وهانم أمام الصول البدين. كانت أمه تبكى وهانم تنظر حولها فى حيرة.

بصمت أمه على الأوراق. وسبها الصول بكلمات أقل حدة من كلمات الشرطى الآخر. هددها بأنها ستسجن إذا ما قبضوا على ابنها ثانية متلبسا بجمع الحديد أو أعقاب السجائر.

بعد أن خرجوا من الباب صاح عوض فزعا:

- نسيت القفة فى الداخل.

شددته أمه:

- دعها لهم . لا نريدها .

سار معهما كسيفا حزينا . ربتت أمه على رأسه المجعد المتسخ قائلة:

- تحملت الهم بدرى.

وقالت هانم:

- لولا الفتاة الجميلة التى جاءت وأخبرتنا ما كنا عرفنا طريقك.

سألته أمه:

- ومن أخبرها بذلك؟

شرد قليلا ثم قال:

- إنها تعمل فى قسم الشرطة . أخصائية اجتماعية.

(٦)

أحس بعض أهالى الحارة بالقلق للقبض على عوض. فربما الولد كان يسرق عندما ضبطوه.

لو كان كذلك حقا. ستكون مشكلة . فهم يربون طيورهم فى الحارة: الدجاج والبط والوز. يتركونها تمرح وتلتقط الطعام دون معاونة من أحد. البطيخ العفن الملقى، وبقايا الشمام .. الخ . ومعيزهم ترعى كما تشاء.. تدخل البيوت، ويجرى الأولاد خلفها، ويركبونها. أو يأخذونها داخل البيوت ليحلبوا إناثها. لكن لم يسرقها أحد من قبل.

لذا، تابع أهل الحارة عوض وهو يسير بين المرأتين المتشحتين بالسواد فى اهتمام شديد. سألت توحيدة :

– وجدتماه؟

نظرت عجبة إلى هانم لحظات قصيرة. ولامت نفسها لأنها لم تنبه هانم إلى ما ستقوله للنسوة إذا سألنها.

قالت هانم:

– كان فى قسم الشرطة.

– لماذا؟

صمتت هانم لحظات . تابعت عينى عجبة الواسعتين الحائرتين:

– ضل الطريق بالأمس . فنام فى قسم الشرطة.

مصمصت توحيدة شفتيها. معلنة عن رفضها ما تقولانه.

أسرع عوض إلى البيت. وسارت عجبة وهانم خلفه فى صمت . كان أبوه مستلقيا فوق كنبته المفضلة. قال فى هدوء شديد:

– أين كنت؟

بكى عوض، تابعه الرجل وكأن شيئا لم يحدث.

– قبضوا على بالأمس.

اتجه الرجل بجسده إلى الحائط . كان جسد عوض متعبا وملابسه متسخة . والتراب الأسود يلتصق بوجهه مع الدموع.

عندما دخلت عجبة رمت ملاءتها وضمته لصدرها . كأنها تراه لأول مرة منذ أن غاب عنها . قالت:

– سأسخن الماء لتستحم.

لم يجبها . قال حلمى وهو مازال ينظر إلى الحائط:

– أعدى الطعام له.

– اجل . اجل . لاشك هو جائع.

لم يعلق عوض بشئ جاءت هانم مبتسمة ضمت رأسه لصدرها وقبلته.

فى المساء أحضرت نبيهة بعض الخوخ له. لا لم يتبق من تجارتها . إنما اختارته من أجله حتى عزوز الذى لا يهتم بشئ فى البيت ولا حتى أولاده، صعد الدرجات من أجله. وجلس بجواره . وتحدث معه . سأله عما حدث له. وطمأنه بأن ذلك إجراء عادى وليس فيه خوف.



جاءت محاسن إلى البيت . تابعتها العيون وهى تهبط الجبل بملابسها الأنيقة وقوامها الرشيق. تساءلوا : إلى أين تذهب؟ ظلوا يتابعونها حتى دخلت بيت نبيهة السوداء. ترددت – هى – للحظات أمام الباب، حتى سألتها توحيدة:

– ماذا تريدين؟

– أم عوض.

– أشارت توحيدة بأن تدخل . وعندما اختفت فى البيت. قالت:

– إنها باحثة . جاءت لتدرس حالة الولد عوض.

لم تتبين هانم وجه محاسن أول الأمر . صاحت:

– ماذا تريدين؟

الحارة كلها تعرف حكاية الباحثات اللاتى يجئن لدراسة الحالة الاجتماعية

للأسرة. فقد حدث هذا مرات، مرة عندما دخل متولى الفص السجن. ومرات عديدة لدخول البعض مستشفى الصدر بكوم الشقافة.. لذا ، ظنتها هانم - هى الأخرى - باحثة جاءت من أجل عوض. لكن عندما اقتربت منها تذكرتها:

- أهلا بك.

شدتها محاسن إليها وقبلتها.

فرحت هانم بها فتصرفاتها تعنى أن نفسها حلوة ولا تتعالى على الناس . فتاة فى جمالها هذا الملحوظ . ومكانتها الاجتماعية العالية. وتتصرف معها وكأنها صديقة حميمة. لقد شدتها محاسن إليها وقبلتها ، لم تقرف منها.

- جئت أسأل عن عوض.

صاحت هانم:

- يا عجبة. يا عجبة.

جاءت عجبة وخلفها أولادها جميعا . لم يكن عوض موجودا وقتها. خرج ليبحث عن سعد صديقه قالت محاسن بعد حين:

- أريد أن أسكن بيتكم.

نظرت عجبة إلى هانم مندهشة . فما الذى يأتى بفتاة «شيك» مثل هذه لتسكن فى بيتهم المتواضع؟! بل ما الذى يأتى بها إلى حيهم الفقير هذا؟! صاحت محاسن:

- إننى على خلاف مع أمى . تريد أن تزوجنى من قريب لها لا أحبه.

تلك الحجرة موعودة بالغاضب من أهله والمختلفة مع أهلها. فلقد تركها ساكن منذ أيام كان مختلف مع زوجته وأولاده. فترك لهم كل شئ وجاء ليسكن تلك الحجرة . ولم يتركها إلا بعد أن عرفت عنوانه فجاءت إليه لتستسمحه وتصالحه وتعود به.

قالت هانم:

– لدينا حجرة خالية،، ولو أننى غير مرتاحة لتركك بيت أهلك . فالجو هنا لا يناسبك.

وأكدت عجبة على قولها.:

– ستتعبين هنا . فأنت تعودت على الكهرباء......

فقاطعتها محاسن:

– لن يطول بقائى هنا. أيام قليلة حتى يحس الراغب فى الزواج منى بأنى لا أحبه فيرحل.

كان لابد لمحاسن من ترك شقتها فى شارع «تانيس» بالإبراهيمية . بعد أن قبض عليها بوليس الآداب داخلها. ورصدتها الحكومة . كما أن البوليس يزورها فيها كثيرا من وقت لآخر. حتى توقف حالها..

ففكرت فى التوارى بعض الوقت إلى أن تجد حلا.

ارتدى حلمى ملابسه – فى اليوم التالى – وخرج . ولم يتكلم . منذ أن عاد عوض وهو صامت. لا يتحدث إلا مضطرا . تعرف عجبة حالاته تلك . عندما تراه – هكذا – لا تسأله عن شئ. لذا لم تسأله عن سبب خروجه المفاجئ فى ذلك الوقت المتأخر.

ذهب حلمى إلى مصنع البراميل على «المحمودية».

هو المصنع الوحيد – الآن – فى الاسكندرية، الذى يقبل عمالا غير منتظمين . فصاحبه لا يريد أن يعين عمالا، حتى لا يشغل نفسه بهم: تأمينات اجتماعية، وإصابات عمل ومكافآت.. إلخ.

يتفق صاحب المصنع مع مقاول أنفار . يورد له العمال المطلوبين نظير مبلغ محدد. والعمال والمقاول.. «يخلصوا» مع بعضهم البعض. هو لديه عدد قليل جدا من العمال لا يزيدون على العشرة. ويعملون فى الداخل على الآلات. ولولا أنه فى أمس الحاجة إليهم، لكان جعلهم تابعين لمقاول الأنفار أيضا.

عمل حلمى مرة أو مرتين – لا يذكر – فى ذلك المصنع. يتسلخ ظهره من حمل

البراميل نظير قروش قليلة. فالمقاول لا يدفع لهم كل ما يأمر به صاحب المصنع.

جلس حلمي ملتصقا بالحائط. والعمال الكثيرون ينتظرون المقاول . عندما هل عليهم من أول الشارع أسرعوا إليه . التفوا حوله، فدخلوا المصنع من الباب الضيق. ترك كل عامل بطاقته الشخصية على «البوابة» ويستعيدها بعد انتهاء ورديته.

العامل الذى لا يروق للمقاول يستبعده . ويشير إلى غيره. يحدث - أحيانا - أن يلح عليه العامل المرفوض رغبة في العمل. فيدفعه المقاول فى عنف.

وعندما رأى حلمي دفعه بعيدا عنه وأخذ الذى يليه. ربما أحس بأنه يتكاسل، وغير متحمس للدخول .

سار حلمي حزينا. وعاد إلى عجبة دون شئ. لم تسأله أين كان، وهو لم يسألها عن شئ. وضعت له طعامه فوق كنبته الأثيرة لديه. لكنه أبعده عن الكنبة لينام.

★★★

عاد عوض إلى البيت والظلام يتسلل إلى الحارة الواسعة. والدجاج والبط والإوز يدخل البيوت دون أن يستدعيه أحد . أو يعاونه على ذلك.

صعد عوض الدرج دون أن يحدث عزيزة. وكان دائم المزح معها. سمعها تتحدث مع ابنها وطفلتها الصغيرة تبكى.

دفع باب الحجرة ، فالباب ليس فى حاجة إلى مزلاج. فهو يتحرك بصعوبة ولابد من يد قوية لدفعه بعنف ليفتح. والمزلاج ليس له ضرورة فى ذلك الوقت، فاللصوص لن يجدوا شيئا يسرقونه.

أمه منحنية فوق الوابور تقطع حبات البطاطس المقشرة، والأطفال يجلسون فوق فراشهم ينتظرون الطعام بعضهم نام دون أن يتعشى.

أمه لا تعبير فوق وجهها، منذ أن اشتد عليها الكرب وهى تتحدث عن متاعبها دون عصبية . بل أحيانا تبتسم وهى تشكو.

أخته زينب كبرت الآن، فى السنة الرابعة الابتدائية، بكت فى الصباح رافضة جلبابها المصنوع من الأقمشة التى فسدت طباعتها فى شركة النسيج، ألوانها ملطخة، تشبه إفرازات السمك. تشتريها عجبة بالأقة من «الساعة» المواجهة لعمود السوارى. وتحيكها هانم لها على ماكينتها مستعينة بضوء لمبة الجاز نمرة (٥) قال عوض:

– لماذا تأخرت فى إعداد الطعام؟

– خرج أبوك إلى العمل . لكنه عاد دون شئ . فانتظرت أمى نبيهة لآخذ منها ثمن الطعام.

– وأين أبى الآن؟

– عندما حدثته عن النقود ثار وخرج غاضبا .

اضطرت أخته زينب أن تلبس الجلباب الملطخ بالألوان. بكت البنت. لكن هذا هو الموجود . «وآدى الله وآدى حكمته».

انزوى عوض بعيدا . نام كما هو بينما أمة تتحدث مبتسمة وكأن شيئا لم يكن.

★★★

عندما استيقظ عوض، كان حلمى يغط فى نومه. والاطفال الصغار يتقلبون فوق الأرض. أجسادهم عارية. وأعضاؤهم فوق أعضاء بعض. وعجبة بجوارهم، وجهها مبتسم حتى وهى نائمة.

فتح عوض الباب، صوت تحركه جعل البنت زينب تتململ فى نومتها. بدا جلبابها بألوانه الملطخة.. ووجهها الأبيض القريب من وجه أبيها.

أراد عوض أن يقبلها . ما ذنبها لكى تلبس جلبابا مشوها كهذا وتخرج به إلى الحارة الواسعة . فتعلق النسوة عليه: «ثمن أقته، وسبب إفساد صياغته ، ومن أى

مكان عجبة اشترته؟

ارتدى عوض ملابسه وانحنى تحت السرير الذى ينام فيه أبوه. شد قفته الصغيرة وخرج إلى الشارع. إن لم يتخذ موقفا سريعا، لن تجد الأسرة ماتقتات به.

★★★

أول مرة رأته فيها عجبة بقفته وملابسه المتسخة صرخت:

- عدت ثانية إلى الشقاء؟!

لم يجبها.. أخرج النقود الكثيرة من سترته. وضعها فى حجرها. هل تستطيع أن تمنع أصابعها من الإمساك بها؟

- لكن الشرطة..

- لا تكملى . فكل زملائى يعملون فى هذه المهنة ولم يحدث لهم مكروه.

لانت عجبة . فالنقود كثيرة . وحلمى يخرج ويعود دون قرش واحد.

ما الذى سيفعلونه بعوض ؟ إن أمسكوه ثانية - لاسمح الله - ستأخذ هانم معها وتتسلمه من قسم الشرطة وتتحمل كلمتين من الصول البدين والسلام.

أحس عوض بتغيير فى المعاملة . فعندما شرع فى الاغتسال. أسرعت البنت زينب والبنت الصغيرة هناء. فحملتا صابونته وفوطته وشبشبه.

عادت إليه أهميته فى البيت التى افتقدها أيام بقائه بلا عمل.

تجددت فى ذلك الوقت ملابس البنتين. خلعتا الجلاليب الملطخة بالألوان. وارتدتا جلابيب أخرى جديدة وجيدة.

الشئ الوحيد الذى يفعله حلمى للأسرة هذه الأيام . هو معاشرته لعجبة من وقت لآخر. فبرغم الخلافات الدائمة بينهما - تتحجج - هى بأسباب تقنع بها نفسها. فربما لو فعلت هذا معه يلين ويعمل مثل سائر الرجال. ويكف عن عناده وسبها الدائم أمام الأولاد. ويكف - أيضا - عن ملاحقته للفتيات الصغيرات فى

الطريق .

ويرضى هــو بعـد تصنع العنـاد والرفض . فـحيـاته خـاليـة من أى بهـجة . بلا نقـود أو سـجائر وبلا مـتـعــة تسـعـده. فلمـاذا لا ينسى همـومه ولو لدقـائق معدودات.

ويترتب على ذلك أن تلد عجبة طفلا جديدا. ولدا أو بنتا . المهم أن الولد الأخير الذى جاء . سمته عجبة «سعد» على اسم صديق ابنها.

(٧)

استيقظت الاسكندرية فى ذلك الصباح، فإذا بأغطية البالوعات الزهر فى المنشية ومحطة الرمل مسروقة. أصبحت البالوعات عارية وعرضة لأن يقع المارة فيها.

بعد أن خاب الولد على الألدغ فى جمع بقايا الورش والمصانع. استأجر عربة يد واستعان بولدين آخرين ورفع أغطية البالوعات ورماها داخل العربة. ودفعها ثلاثتهم من المنشية إلى غربال بصعوبة.

ماذا يفعل وأصحاب الورش لم يرتاحا لشكله، فهو يبدو أكبر من سنه بكثير بوجهه الممتليء وجسده المترهل، ألح على أصحاب المسابك والورش، فدفعه عمالهم بعيدا فى ضيق، وهددوا بضربه لو اقترب منهم ثانية.

أوقف على الألدغ العربة اليد الممتلئة أمام بيت عباس الأعور. ونادى بأعلى صوته، والوقت كان بعد الفجر بقليل والصوت يرن ويخترق الفضاء الواسع والذى لايحوشه شىء.

- ياعباس يا أعور. ياعباس أعور.

كلمة «الأعور» اخترقت أذن عباس. أيقظته من نومه. وأيقظت الحاجة - زوجته أيضا. فرددت:

- اللهم اجعله خيرا. إنه كابوس لا شك.

فقال عباس:

- الولد على الألدغ، فلا يستطيع أحد فى غربال أن يقول له «ياأعور» أمامه سواه .

هو أعور حقا. لكن مضى وقت طويل جدا على الوقت الذى استطاع فيه أحد أن يقولها أمامه.

الولد صابر - أكبر أبناء عباس - أمسك سكينا وأراد أن ينزل إليه. لكن عباس يتقى شر على منذ أن طرده من شونته:

- ليس لك شأن به. أنا الذى سأنزل وأقابله.

تعرف الحاجة أن زوجها قد أخذ مال ستيتة العمياء - أم على الألدغ - عباس لم يقل لها هذا قط. لكن الله عرفناه بالعقل. وعباس الفقير الحافى تحول فجأة إلى رجل غني. فمن أين أتى بكل هذا المال؟! لذا، صمتت الحاجة. وتابعت عباسا الذى كان يتصرف فى خوف وهدوء ولم تعهده الحاجة فيه من قبل.

أسرع إلى الفراندة، فتح بابها فى عنف حتى كاد يكسر الزجاج:

- ماذا تريد ياولد ياعلى؟ .

- انزل بسرعة. لدى بضاعة لك.

صاح صابر من النافذة الأخرى غاضبا:

- لماذا لا تنتظر حتى يأتى الصباح؟!

لم يلتفت على الألدغ إليه.. تابع عباس الذى ينظر إليه:

- لا استطيع أن انتظر حتى الصباح.

ونزل عباس اليه. ليس من أجل البضاعة. فلو كسب فيها ألف جنيه ما كان نزل هكذا وفى وقت متأخر مثل هذا لكنه يريد أن يبعد الولد الألدغ عن بيته. وإلا فضحه وجعل الجيران يستيقظون ويخرجون من بيوتهم ليروا مايحدث.

عندما نظر عباس داخل العربة. عرف ما فعله علي. وأحس بخطورة الموقف:

- تريد أن تخرب بيتى ياعلى يا ألدغ.

- لا. بل أريد أن أغنيك، دق الزهر ياعباس بالمرزبة. اصحنه وبعه.

- والحكومة؟

- الحرامى وشيلته.

أخرج عباس من بيته المرزبات التى يمتلكها. كل المرزبات. دق ابنه وعلى والولدان الآخران كل أغطية البالوعات، حتى جعلوا أكبر قطعة فيها مثل العملة ذات الخمسة قروش. ووضعوها ثانية فى العربة. بعد ساعات قليلة أخذها على ومساعدوه وسار عباس وابنه بعيدا. باعوها لمسبك فى الفراهدة يتعامل مع عباس منذ زمن بعيد. ولم يخرج عباس من المسبك إلا بعد أن تأكد من أن الزهر قد دخل النار.

أخذ على الألدغ مبلغا لم يمتلكه فى حياته، وعاد عباس إلى سرير الحاجة ليكمل نومه.

★★★

انطلقت أجراس التليفونات فى أبنية محافظة الاسكندرية تعلن عن الجريمة التى حدثت. السيارات فى طريق الحرية وشارع سعد زغلول وصفية زغلول والنبى دانيال وغيرها من الشوارع الكبيرة. تلف حول البالوعات التى بلا غطاء خشية أن يصطدم العجل بها.

أسرعوا بوضع مقاعد وأشياء قديمة ليلفتوا نظر السائقين والسائرين لما حدث.

تساءل المسئولون. ما الدافع لهذا؟ هل هى محاولة تخريب ليقع الناس داخل البالوعات، ولإظهار عجز الحكومة عن صنع الاستقرار؟ أم أنها عملية سرقة عادية؟

ووصل الأمر إلى المحافظ، فأمر بأن يحل هذا اللغز والرد عليه فورا، لذا، جاء المخبرون إلى غربال يمسكون فى أياديهم الكرابيج السوداني. ويسيرون فى الشارع العمومى والكرابيج مفرودة ليخيفوا بها الناس.

ووقف البوكس فورد أمام بيت عباس الأعور. دفعوه أمامهم - ودفعوا ابنه صابر وبحثوا عن المسروقات. فلم يجدوا شيئا. أمسكوا على الألدغ والولدين الآخرين - المساعدين له - وعددا آخر ليس لهم صلة بما حدث. ساقوهم الى نقطة شرطة غربال. كانوا يضربوهم طوال الطريق. لم يستطيعوا الصبر إلى أن يصلوا مقر نقطة غربال. فهذه العملية سببت الاحراج للضباط ورؤسائهم عاملوهم فى قسوة لتهاونهم.

★★★

لم يبد عوض اهتماما عندما قبضوا عليه وهو يجمع الحديد والنحاس. فهو يعرف ما فيها. البقاء ليلة فى قسم الشرطة، وعرض على النيابة فى الصباح. ثم تتسلمه أمه، بعد أن يسبها الصول ويهددها بأنه سيسجنها إن امسكوه ثانية، ثم تعود به أمه إلى البيت، ليعاود جمع النحاس والحديد من جديد.

لكن هذه المرة الأمر اختلف، فقد وضعوه فى حجز الرجال، رأى هناك على الألدغ يبتسم فى ركن الحجرة فتطل الابتسامة من بين جروح وجهه وتورم شفتيه وأنفه. وبعض الأولاد الذين يجمعون الحديد والنحاس معه. ضربه المخبرون فى عنف هذه المرة. وسألوه عن أغطية البالوعات الزهر، فصرخ وبكى وأقسم بأنه لا يعلم شيئا عن هذه الأشياء. وابتسم الولد على وقال إن عوض لم يكن معهم فى وقت السرقة. لكن وكيل النيابة لم يقتنع، ولم يصدق أنه يأخذ مخلفات الورش والمسابك. وهل المخلفات لها ثمن لكى يجمعه ويتعب فى حمله؟

عادت بهم سيارة الشرطة الكبيرة الممتلئة بكل من عرض على النيابة. رجال ونساء وأطفال. أحس عوض بالوحشة، فالنسوة الموجودات ليس بينهن من اهتمت به مثلما فعلت محاسن فى المرة الأولي.

ظل منتظرا أمه لتأتى لأخذه. لكنها لم تأت. وفوجئ بالشرطى يخرجه هو وعلى الألدغ من الحجز. قال فى ضيق للصول:

– ليست هناك كلابشات على قد أيديهم الصغيرة.

قال الصول:

– تصرف. اربطهما من كميهما.

صاح عوض:

– إلى أين؟

قال الصول وهو يدفعه:

– على السينما ياروح أمك.

شدهما الشرطى وساقهما أمامه. معلنا عن بطولاته وأنه كان يسوق عصابات أمامه. لا أطفالا صغارا مثلهم وأنه عمل فى كل محافظات مصر. ولم يهرب منه مسجون واحد. وانهما لو حاولا الهرب. لن يقدرا ولو حدث – وهذا لايمكن أبدا – فسيعودان بعد ساعة على الأكثر. ولو كانا فى بطن أميهما.

قال عوض:

– إلى أين؟

- إلى بيتكما.

ظن عوض انهم استغيبوا أمه، لأنها لم تأت لأخذه كالمرة السابقة، فذهبوا اليها لتتسلمه فى بيتها. لكن الفزع أصابه لأن الحارة ستراه وكمه معقود فى كم الولد على الألدغ والشرطى يسوقهما.

كان على يبتسم. بل كان يسخر من الشرطى ويقلده وهو سائر. يقلد حركات حاجبيه وشفتيه اللتين يضمهما وهو يتحدث بحماس شديد.

وقفت الحارة فزعة. فآثار الضرب واضحة فى الولدين خاصة على الألدغ. سألته توحيدة:

- ماذا فعلت ياولد ياعلي، ليفعلوا بك كل هذا؟!

ابتسم وقال:

- سرقنا أغطية البالوعات.

صاحت توحيدة فرحة. معلنة للحارة ما قد توصلت إليه أخيرا:

- عوض بن عجبة كان مشتركا مع الذين سرقوا أغطية البالوعات.

تابعها عوض فى صمت ودهشة، ثم انشغل عنها بمتابعة كرش الشرطى المعقود من منتصفه بحزام عريض كاد يخنقه.

لو أراد عوض الهرب لن يستطيع ذلك الشرطى منعه. لأنه لا يستطيع الجرى لخطوات قليلة أمامه.

عندما خرجت عجبة من باب البيت الضيق، ارتمى عوض فى صدرها باكيا. فشد معه الولد على الألدغ قالت عجبة:

- خير ياشاويش.

- النيابة أمرت بإيداع ابنك المؤسسة.

ضربت المرأة على صدرها وبكى عوض، بينما صاحت توحيدة بصوت سمعه سكان الحارة من أولها لآخرها:

- عوض ابن عجبة «حايودوه» الإصلاحية.

قالت هانم فى ضيق:

- وماذا تريد ياشاويش؟

- أن توقع أمه على الأوراق.

وبصمت عجبة على أوراق كثيرة لا تعرف ما بها. وعاد الشرطي بعوض وعلى الألدغ وعجبة بملاءتها غير المحبوكة على جسدها تبكى خلفه وتوصى هانم بأن تكمل إعداد الطعام لحلمى ولباقى العيال.

دار الشرطى بالولدين، وأطفال الحارة خلفهم. وعجبة تحاول أن تطرد الأطفال بعيدا عن الموكب والأطفال يعاندونها ويزومون ويغمغمون ويتصايحون، تمنت عجبة لو خرج الشرطى بالولدين من حوارى غربال. لكن على الألدغ مشكلة. أين أهله لكى يوقعوا أو يبصموا على الأوراق التى جاء الشرطى بها. صفع الشرطى على الألدغ على قفاه:

- آمال أهلك فين؟

قال على بعد تردد:

- عباس الأعور كان متزوجا أمي.

ذهب الشرطى إلى بيت عباس الأعور الكبير. لم يجد هناك سوى الحاجة. قالت:

- إننا لسنا أقاربه.

قال علي:

- لكن المعلم كان متزوجا أمي.

ترددت الحاجة قليلا. ثم قالت للشرطى فى ضيق:

- أين الورق؟

ووقعت عليه بصعوبة، لكى ترتاح من الجمع الذى يقف أمام باب البيت: أطفال ونساء وقليل من الرجال وخوف الحاجة الأكبر من أن ينقلب على الألدغ، ويظهر وجهه الآخر. فيسب زوجها ويفضحها أمام أهل الحارة.

خرج الشرطى بالولدين من الشارع العمومى وسط جمهرة الأطفال. وبعض النسوة اللاتى يسرن مع عجبة يواسينها.

(٨)

تقع المؤسسة الاجتماعية فى شارع ضيق متفرع من «الرصافة» مبنى كبير، يقولون إنه كان قصرا لأحد بشوات ما قبل ثورة يوليو ٥٢، فحولته الحكومة إلى مؤسسة لرعاية الأطفال، يودعون بها الذين يخالفون القانون وهم فى سن لايسمح لهم بالإيداع فى اصلاحية القاهرة.

المبنى محاط بسياج نصفه من الطوب، ونصفه الأعلى من الحديد المدبب، مغطى بصاج مدهون باللون الأسود، ليصعب على الأطفال المعاقبين القفز منه.

سلم الشرطى عوض وعلى الألدغ إلى موظف متأنق، يلبس نظارة زرقاء اللون، وقع على الأوراق ثم صاح مناديا عاملا يشبه المخبرين بطولة الباسق وعرضه ومعطفه الأصفر المفتوح:

- خذهما ياحامد إلى الحلاق.

أزال الحلاق شعر رأسيهما، صاح علي، ودفع يد الحلاق، فضربه الحلاق فى قسوة على ظهره الممتليء وظل على يتململ فى جلسته حتى جرحت ماكينة الحلاقة رقبته. فسال الدم منها فوق ملابسه.

تأفف الحلاق من الحشرات الكثيرة التى نزلت من رأسه، ثم دفعه بعيدا عنه.

ارتديا شورتين أزرقين وقميصين رصاصيين بدون إكمام.

نظر على إلى عوض وضحك طويلا غير مبال بحامد الذى يقف كعملاق بجانبهما:

- شكلك مضحك جدا.

صرخ حامد فيهما، ودفعهما إلى جمع كبير من الأولاد يجلسون وسط الحوش الكبير، وأمرهما بأن يسرعا إليهم. نظر الأطفال اليهما دون اهتمام. كانوا مشغولين بأشياء أهم. فلم يتحرك فيهم أحد. ليفسح لهما مكانا. فجلسا فى المؤخرة خارج الدائرة.

تململ الولد على الألدغ، فجسده الممتليء يعوقه عن الجلوس مقرفصا.

مر الوقت الطويل، وأحس عوض بالجوع. حتى الطعام الذى أتت به أمه ولعلى أخذه حامد مع الأشياء الأخرى التى تخصهما. كما أن الجلوس - هكذا - فى الشمس يزيد من الرغبة فى الارتواء.

أحس عوض بالخوف يخاف من أن يسمعوا صوت تنفسه فيضربونه.

لا شيء يتحرك فيه بحرية سوى عينيه. يرسلهما إلى كل مكان فى المؤسسة. يتابع الشاب الطويل العريض الذى يزيد عمره على السابعة عشرة، ملابسه لا تدل على أنه موظف ضمن الموظفين، وامرأة تشبه الخواجات اسمها «انجيل» تنادى الشاب من بعيد:

- رشاد. رشاد.

والموظفون عندما يأتون ينادونه: رشاد. رشاد.

ينظر الأطفال الجالسون اليه فى رهبة، فهو المسئول الفعلى عنهم - الكل فى المؤسسة يترك له أمر تربيتهم.

الكل منشغل بأشيائه الأخري. يأتون إلى المؤسسة للتسلية ولزيادة دخولهم. دون أن يفعلوا شيئا.

جاء الموظف المسئول عن الأولاد الجدد بعد العصر بقليل. فطالب رشاد. أسرع رشاد إليه:

- أريد الولدين الجديدين.

أسرع رشاد. دفعهما بساقه:

- أسرعا إلى الأستاذ أحمد عبدالعال.

تفحصهما الموظف بعينه الحولاء. وسأل عوض أولا:

- كنت تسرق؟

- لا. كنت أجمع مخلفات الحديد والنحاس.

- تسرقه، أم تجمعه؟

- أصحاب الورش يعطونه لى برغبتهم.

قال الموظف لرشاد:

- قربه منى.

شده رشاد فى عنف رفع الموظف الغطاء عن صدره بحثا عن علامة مميزة، يوصم الضباط بها من يسرقون لتسهيل عملية التعرف عليهم بعد ذلك.

ثم قال لرشاد:

- انت المسئول عنه يارشاد. إياك أن يهرب.

أومأ رشاد. فقد كان قليل الكلام خاصة مع الموظفين.

أسرع عوض ليجلس ثانية بجوار الأولاد فى الحوش. ودفع رشاد على ناحية الموظف، فسأله:

- كنت تجمع الحديد والنحاس مثل زميلك؟

- لا. كنت أسرق أغطية البالوعات من الشوارع.

ضحك الموظف لصراحته غير المتوقعة.

كان رشاد نزيلا فى المؤسسة وهو صغير. ثم وصل إلى السن التى يتحتم فيها اتخاذ قرار معه. إما ترك المؤسسة أو ترحليه إلى إصلاحية القاهرة إذا لزم الأمر. لكن رشاد لم يترك المؤسسة. فقد اعتادها، فطلب من المدير أن يعتبره عاملا بها.

أحس المدير أن تركه بها سيفيد كثيرا. فهو يعتمد عليه فى تأديب الأولاد الذين لايستجيبون للنظام، ولأوامر المؤسسة. ويعتمد عليه - أيضا - فى إعادة الأولاد الهاربين. ويعهد الموظفون اليه برعاية الأولاد وشراء لوازم المؤسسة من خضار وفاكهة. وينام آخر الليل فى المؤسسة كما كان وهو صغير. الأولاد يخافونه. فهو يضربهم. ويعاقبهم بطوابير الذنب. وإجراء التمرينات الرياضية القاسية ويحبسهم أحيانا فى بدروم المؤسسة.

حاول المدير أن يعين رشاد فى المؤسسة لكنه لم يستطع، ورشاد لم يعط لهذا الأمر اهتماما. فهو يكسب كثيرا من الأولاد والموظفين و«يسمسر» فى

الأشياء التى يشتريها للمؤسسة . وتعيينه رسميا لن يعطيه المبلغ الذى يحصل عليه.

★★★

فى الصباح تكون المؤسسة بلا موظفين. الذين يعملون عملا آخر - فى غير المؤسسة - مشغولون بأعمالهم الأخري. وحتى الذين ليس لديهم سوى عمل المؤسسة يأتون قرب العصر. ورشاد هو الحاكم الآمر طوال الوقت. فالعمال الموجودون مشغولون بأعمالهم. حامد بأعمال النظافة. فيختار لها مجموعة من الأولاد يغيرهم كل عدة أيام. والطباخ ومساعدوه عليهم أن يعدوا ثلاث وجبات يوميا . فليس لديهم الوقت لمتابعة الأولاد. وما يفعله رشاد بهم. كما أن هذا ليس عملهم.

يجلس الأولاد وسط الحوش الترابي. ورشاد فى ظل المبنى القريب من الحوش يمسك بعصا طويلة. يهدد الأولاد بأن من يرمش بعينه سيفعل به كذا وكذا. ثم يقف ولد اسمه «بدر» يعرفه عوض وعلى من قبل أن يأتيا إلى المؤسسة. فأبوه يبيع البطاطا الساخنة على ناصية شارع الملك الأشرف بسوق عقداية .

وضبطت الشرطة الولد بدر يبيع الحشيش على قارعة الطريق، رغم عمره الذى لم يتعد الثالثة عشرة.

يدفع أهل الولد نقودا لرشاد وكذلك من يزوره، ويعطى - أيضا - لبدر للانفاق داخل المؤسسة فيعطى الولد النقود لرشاد. أهل الولد تجار مخدرات أغنياء. لذا، يقف الولد ممسكا بعصا ويمر بين الأولاد. يضربهم جميعا دون استثناء.. من يمد يده يضربه على يده، ومن لايمدها يضربه فوق ظهره أو كتفه، أو رأسه إذا ما لزم الأمر.

يسير بدر هكذا والأولاد لا يتحركون. كأن الأمر لايعنيهم فى شيء.. أو كأن الأجساد التى تضرب بالعصا ليست أجسادهم. ورشاد خارج المؤسسة يشاهد المارة من فوق مقعده.

قال على لعوض بصوت خافت:

- سأضرب هذا الولد.

- سيضربك رشاد.

صمت علي. وتحمل ضربات بدر فوق ظهره فى ضيق.

فى المساء بحث «علي» عن بدر فى كل مكان.

يخرج رشاد فى المساء بضع ساعات، يذهب إلى السينما التى يعشقها، وتظل المؤسسة بلا حاكم، فيفعل بدر فى الأولاد ما يشاء.

ابتسم على لبدر:

- اننى اعرفك. أبوك يبيع البطاطا بجوار مدرسة نسيم. أليس كذلك؟

- نعم.

يعرف عوض ما سيحدث. لذلك ابتعد. فهو ليس فى قدر رشاد. لقد رآه يضرب ولدا حتى أسال الدم من فمه ورأسه، كان الولد يلهث . أخذ يزحف قبل قدمه ليتركه.

ابتعد على بالولد بدر خلف المبانى البعيدة والعالية، ووسط الظلام، كان على يبتسم طوال الوقت حتى اطمئن بدر إليه. ثم صفعه فى عنف بيده القوية والكبيرة. والولد بدر ضامر ونحيف. وأى ولد - فى المؤسسة - قادر على ضربه، لكنهم يخافون رشاد وبطشه.

حمله على لأعلى ورماه على الأرض، وكله بجنون فى كل مكان من جسمه حتى أفقده الوعى. وتركه وذهب إلى عوض وهو مازال يلهث:

- ضربته وارتحت.

- ورشاد؟

- لن يرانى ثانية.

عندما أفاق بدر صرخ. فأسرع اليه العاملون فى المؤسسة. كان وجهه متورما والكدمات تحت عينيه وفى جسده كله.

بحثوا عن «على» فى كل مكانٍ لم يجدوه.

(٩)

كل الأولاد – فى المؤسسة – يرتدون الشورت الأزرق المتآكل. والقميص الرصاصى الممزق القديم إلا الولد نادر. فله وضع خاص، ومعاملة خاصة.

هو، فى حوالى السادسة من عمره، جميل الوجه، وجسده يميل للامتلاء تهتم به دادة انجيل – التى تشبه الخواجات. وتمازحه ويمازحها. تضمه اليها وتقبله كابنها.

يرتدى فى المساء بيجامته وشبشبه. يتجول بهما بين أبنية المؤسسة.

يقولون إن أم نادر مات وهو طفل يحبو، وتزوج والده الغنى من امرأة أخري، اكتشفت – بعد الزواج – أن نادر يتبول على نفسه فى الفراش، فأصرت على أن يفارقها حتى لا يفسد فرشها. ولأن الرجل ليس له أقارب يستطيعون احتمال طفل يتبول على نفسه في الفراش – ولأنه – أيضا – قد أحب زوجته الجديدة ولايستطيع أن يرفض لها طلبا. فقد جاء بالولد إلى المؤسسة القريبة من بيته. طالبا من مديرها أن يبقى ولده عنده. وينفق الوالد عليه.

يعطى الرجل لدادة انجيل نقودا. يقولون انها أكثر مما تتقاضاه من المؤسسة، ويوصيها بأن تعد له فراشه كل صباح. وأن تغير ملابسه المبتلة. وأن تخفى سره عن الأولاد الآخرين.

لكل كل من فى المؤسسة يعرف عنه هذا. فإذا ما غضب أحد الأولاد منه. يقول له «يا أبو شخة».

لكن رشاد لايترك هذا الولد «يخرج بطيب» فلابد من عقابه. فوالد نادر يدفع لرشاد أيضا.

يأتى الرجل إلى المؤسسة ببذلته الأنيقة محملا بالهدايا لولده ولبعض العاملين فى المؤسسة.

ويتحدث مع ابنه مداعبا. بينما الولد يسبه من وقت لآخر. لأنه طرده من بيته. ونصر زوجته عليه.

الرجل ساهر مع العاملين فى المؤسسة لوقت متأخر من الليل. ثم يقبل ابنه ويخرج يعود إلى زوجته التى يحبها.

عيب الرجل الوحيد - فى المؤسسة - انه لم يأت قط بهدايا للأولاد المودعين بها. معتمدا على أن العاملين فى المؤسسة سيحمون ابنه من الأولاد. لذا، لم يكن الأولاد يحبونه. وكانوا يتحرشون بابنه نادر رغم علمهم بما سيلاقونه من عقاب على يد رشاد.

★★★

جاء سعد لزيارة عوض بعد أن بلغه الخبر من عجبة أمه.

رآه جالسا وسط الحوش الترابى مع الأولاد، وبدر يدور بعصا، بينهم فيضربهم دون سبب، متسليا لاهيا.

نادى رشاد على عوض، وسمح له بأن يختلى بصديقه بعض الوقت، أخذ يتحدثان كان سعد ممسكا بكتاب لم يبد عوض اهتماما بذلك. فسعد دائما يمسك كتابا لكن سعد قدمه له:

- اقرأه، سيسليك فى ظروفك هذه.

أخذه عوض دون حماس، ود لو أعاده إليه، فذلك لا يصلح هنا. فمن الممكن أن يأخذه رشاد ويمزقه.. أو الولد بدر الذى يستطيع أن يفعل فى الأولاد ما يشاء دون أن يحاسبه أحد.

لكن عوض لم يستطع أن يعيد الكتاب. قرر أن يعيده اليه عن طريق أمه إذا ما جاءت فى الغد. سيوصيها بأن تصونه. تضعه تحت مرتبة السرير. إلى أن تجد سعد وتعطيه له.

جاء أحمد عبدالعال الموظف المسئول عن عوض. كان سعد يرتدى ملابس جيدة ونظيفة، قال عوض فرحا:

- سعد صديقي، هو تلميذ فى مدرسة.

- أية مدرسة؟

قال سعد:

– العطارين الاعدادية.

– جئت متشعبطا فى الترام طبعا؟

–لا، راكبا بتذكرة.

نظر أحمد عبدالعال إلى الكتاب فى يد عوض:

– ما هذا ؟

– رواية التل الأخضر ليقرأها عوض هنا.

أحس الموظف بأن أشياء تحدث لم يحسب لها حسابا من قبل. قال لعوض:

– تجيد القراءة؟

– نعم. سعد يعيرنى كتبا كثيرة لأقرأها.

أمسك أحمد عبدالعال بالكتاب وأخذ يقلب صفحاته، وعوض يرتعش خوفا من أن يطلب منه أن يقرأ أمامه. فهو لن يستطيع فقراءته صعبة. لكن الرجل أعاد الكتاب اليه مبتسما، وربت على ظهر سعد مبديا إعجابه. أحس عوض بالارتياح ويحب شديد لسعد فزيارته – تلك – رفعت من قيمته لدى الرجل المسئول عنه فى المؤسسة. وذلك سيؤدى الى الاسراع بالافراج عنه. وأحس بحب شديد للكتاب.

تحسس ملمسه الناعم. كان كتابا صغيرا. وغلافه أخضر. وكلمة «التل الأخضر» مكتوبة باللون الأبيض (مازال عوض يتذكره وكأنه بالأمس) صفحاته صفراء سميكة الحجم.

لن يعطى الكتاب لأمه فى الغد عند الزيارة لتعيده الى سعد، بل سيتمسك به ويطلب من الموظف المسئول أن يحميه من رشاد ومن الولد بدر. نعم. لن يسمح لهما بأن يمزقاه.

بعد أن انصرف سعد، عاد عوض بالكتاب الى «الحوش» نظر الأولاد اليه فى دهشة. تصفح الكتاب فرحا، وجلس يقرأ بعض الكلمات، وجد صعوبة فى استيعابها، لكنه لم ييأس اقترب من الولد بدر بعصاه،:

– تقرأ يا ابن الكلب، تظن نفسك في مدرسة؟!

يستطيع عوض أن يصرعه، لكن رشادا، ذلك العملاق، ماذا يستطيع معه؟ أمسك عوض الكتاب وأخفاه. ثم أسرع إلى أحمد عبدالعال قبل أن يترك مبنى المؤسسة ويذهب إلى البيت. وجده يستعد للرحيل. كان بدر خلفه بعصاه. فهروب عوض هكذا أمام الأولاد سيهز مكانة بدر أمامهم.

تراجع بدر عندما رأى أحمد عبدالعال أمامه - ووقف خارج الحجرة ليتنصت:

- ماذا تريد ياعوض؟

- بدر يطاردنى بعصاه، يمنعنى من القراءة.

- استدع رشاد حالا.

أسرع عوض، عاد بدر بعصاه منكسا رأسه، لم يطارد عوض عندما ظهر أمامه. وعندما وصل إلى الأولاد وجدهم يتحدثون وكأنهم لم يروا عوض يتحداه ويجرى هكذا.

قال أحمد عبدالعال لرشاد:

- دع عوضا يقرأ كما يشاء.

أومأ رشاد برأسه.. وعاد عوض، قال رشاد فى الطريق معاتبا:

- لماذا لجأت إليه؟

- هو الذى قال لى .

ظن عوض أن رشاد سيضربه. لكنه فوجىء به يربت على ظهره قائلا:

- اقرأ كما تشاء.

عاد عوض إلى الأولاد اللاهين بأحاديثهم، وانزوى بدر بعيدا. يمسك بعصاه فى لامبالاة.

وقرأ عوض ثانية حتى عندما أمر رشاد الأولاد بالقيام لتناول الغداء لم يقم عوض وظل كما هو يقرأ. أحس أن الكتاب يحميه من هجمات رشاد ورعونة بدر. فزاده هذا تمسكا به .

بعد الغداء ، أمر رشاد الأولاد بجمع الورق من الحوش، وحمل

الخضراوات التي جاء بها حامد على عربة كارو ، تقف خارج الدار. وأمر رشاد البعض بكنس الحجرات. لكن عوض بقى كما هو يقرأ. ولم يطلب رشاد منه شيئا.

سالت الدموع فوق وجه عوض حزنا على السيدة «جين كاربتر» بعد أن تركها ولدها وحيدة وسافر إلى اليابان، فعاشت فى الفقر تستجدى الناس إحسانا. تذكر أمه عجية. فهى لاشك تعانى الآن من الحاجة بسبب حبسه فى هذه المؤسسة. فأبوه لايعمل واخوته صغار. سخر بعض الأولاد من بكائه المفاجيء والذى ليس له سبب. فرشاد لم يضربه ولا الولد بدر . فما الذى يبكيه؟! وجاء البعض مهنئا لأنه قهر بدر، شدوا على يده فرحين.

لم يشترك بدر فى العمل - كعادته - لكنه جلس حزينا والأطفال يتحركون حوله غير خائفين منه كما كانوا بل أن بعضهم سخر منه وهو سائر.

★★★

عند موعد النوم كان عوض قد قرأ نصف الكتاب تقريبا. وأحس بلذة كبيرة فى تتبع الأحداث.

مر به رشاد مبتسما فى سخرية. لكنه لم يطلب منه إطفاء المصباح. ولم يأمره بالنوم كما فعل مع باقى الأولاد.

فى الصباح اكتشفوا هروب بدر. قال رشاد انه قفز من فوق السور. لكن الأولاد قالوا همسا وفى حذر:

إن رشاد هو الذى فتح له الباب فى المساء بعد أن دفع له بدر.

وتقرب رشاد من عوض. لم يعد يضربه كما يضرب الآخرين. اقترب منه وهو يقرأ، ربت على ظهره وطلب منه أن يحكى له موضوع الكتاب. كان رشاد أمامه كطفل يسعد لسماع الحكايات ويدهش لها. قال لعوض:

- أنا ليس لى أصدقاء.. اقضى وقتى هنا فى المؤسسة. لذلك لم استطع مغادرة المبنى .

فى أول إجازة لعوض، سأله رشاد:

- ستذهب الى السينما مع اصدقائك؟

- نعم.

- هل يمكن أن أذهب معك؟

واتفقا على اللقاء.. قابله عوض مع صديقيه سعد وسيد بن توحيدة أمام باب سينما الهمبرا من ناحية شارع كلية الطب. كان رشاد مرتبكا خجولا. بعكس تصرفاته مع الأولاد داخل المؤسسة.

بعد الخروج من السينما ذهبوا إلى قهوة فى محطة الرمل. حكى رشاد عما يحدث فى المؤسسة (الذى يذكره عوض الآن بوضوح، وهو حديثه عن عزيز الموظف الأنيق الذى تسلمه هو والولد على الألدغ من الشرطى فى أول يوم جاءوا فيه إلى المؤسسة).

قال رشاد:

إن عمل عزيز الأصلى هو مدرس تربية فنية فى إحدى المدارس الإعدادية (كان مسموحا فى ذلك الوقت الجمع بين وظيفتين حكوميتين، حتى صدر قانون العاملين عام ١٩٥٩ الذى منع ذلك) .

دفع عزيز رشوة لمسئولين كبار فى الوزارة ليعينوه فى المؤسسة بجانب عمله فى المدارس من أجل «مزاجه» ولو ضغطوا عليه لعمل دون أجر. بل سيوافق أيضا لو طلبوا منه أن يدفع جزءا من راتبه نظير الحضور الى المؤسسة. فهو معروف على مستوى وزارة التعليم بميله إلى الأولاد، ولقد عاقبته الوزارة من قبل ونقلته الى الواحات. ثم سعى للعودة الى الاسكندرية ثانية. ووجد ضالته فى المؤسسة. فالأولاد سهل الايقاع بهم. فهم يفرحون بالمال والهدايا. كما أنهم ليس وراءهم من يدافع عنهم. فمهما اشتكوا لن يسمعهم أحد. بعكس أولاد المدارس التى يعمل بها. فمن الممكن أن يكون أحدهم ابن مسئول كبير «يقلب» الدنيا عليه، وقد يرجعه ثانية إلى الواحات، أو يؤدى الى فصله أو حبسه.

لم يعترض أحد فى المؤسسة على تصرفات عزيز. الكل راض بما يفعل. فعندما يدخل من الباب يهرع الأولاد فرحين مرددين: «بابا عزيز.. بابا عزيز»

كالقطط الضالة عندما تتجمع حول من يرمى لها ببقايا الطعام. يعطيهم عزيز الطعام. والحلوى، ويجمعهم فى مرسمه ليعلمهم الرسم.

يدفع لإنجيل لكى «تحمى» الأولاد الذى يختارهم. بالماء الساخن والصابون، وتنظفهم له فيضاجعهم فى مرسمه،

الوحيد الذى يريده عزيز ولم ينله هو الولد نادر، فالولد جميل ومريرب. لكن أنجيل تحبه وتصر على حمايته . وتردد لعزيز دائما:

– مادمت – أنا – هنا، لن تناله.

والولد نادر غير فاهم لما يحدث. ويسأل أنجيل من وقت لآخر:

– لماذا تبعدينني عن «بابا عزيز» انه يحبنى ويقدم لى الهدايا الكثيرة، اننى أحبه أكثر مما أحب أبى.

(١٠)

تأكد لدى توحيدة ما ظنته فى الولد عوض، فهو لص ما فى هذا شك ، يسرق فى الأتوبيسات وإلا ما سبب تكرار القبض عليه وإيداعه الإصلاحية هكذا؟!

وأقسمت بأن تمنع ابنها سيد من مصاحبته . ولم تنتظر عودة عوض من الإصلاحية، فأسرعت إلى أمه معلنة أن ابنها مادام قد دخل الإصلاحية فلايصلح لأن يكون صديقا لابنها.

فقالت عجبة بهدوئها المعهود:

– ابنى – بعيد الشر – لم يذهب إلى الإصلاحية . بل هو فى مؤسسة كالمدرسة تماما.

صاحت توحيدة بعد أن ضحكت ساخرة :

– مدرسة . والا كلية ؟!

وعادت عجبة ذات يوم مع عوض ابنها، كان يرتدى بيجامة بيضاء أخذتها عجبة معها بعد ان اخبرها بالأمر بأن أحمد عبدالعال – المسئول عنه فى المؤسسة – قد أمر بعودته إلى البيت . على أن يأتى لزيارة المؤسسة فى اليوم الخامس من كل شهر .

يومها صاحت توحيد من مكانها ساخرة :

– أهلا ياسى مدرسة .

ألقت البنت الزينة بحجر نحوهما ، لولا أن تفادته عجبة للبس فى بطنها . صرخت عجيبة :

– لعنة تلعنك يا بنت يازينة . لماذا يا ابنتى؟

قالت البنت فى حدة :

– حتى يترك أخى فى حاله.

قال عوض من شدة ضيقه :

– أنا لايشرفنى أن أصاحب أخاك.

ووقفت توحيد تريد أن تفترسه . لولا أن أخذته أمه وأسرعت به إلى حجرتها.

صرخت توحيدة وصرخت ابنتها الزينة وتوعدتا.

بكى عوض فى البيت . فضمته زوجة خاله هانم لصدرها . وبكت أمه من أجله:

– لاتهتم بأحد . أحمد أفندى راض عنك وبالخطاب الذى أعطاه لك ستعمل فى شركة الغزل وجاءت محاسن التى تسكن الحجرة العليا من البيت . ووضعت يدها فوق شعر رأسه القصير وقالت :

– شكلك الآن أحسن بكثير.

قالت عجبة :

– أجل . لقد سمن فى المؤسسة.

وأكملت هانم :

– كان «شايل» الهم هنا . وكان يشقى من الفجر.

محاسن صغيرة ، ظنتها عجبة أول الأمر آنسة لم تتزوج . وأدعت محاسن أنها تزوجت ولم توفق . وأن طليقها مقتدر ويدفع لها مبلغا كل شهر تعيش به.

ذهب سعد إلى بيت توحيدة عندما علم بما حدث . رحبت الزينة به وكذلك توحيدة التى قالت :

– ابتعد عن الولد عوض. فقد يسبب لكما المتاعب.

صاح سعد :

– عوض طيب . وكل ما فعله هو له للحديد والنحاس ليساعد أسرته.

عارضته توحيدة . لكن البنت الزينة . التى تعطى اهتماما كبيرا لسعد . قالت لأمها وهى تنظر إليه فى وله:

– سعد فى مدرسة ويعرف أكثر منا .

وخرج سيد وسعد . تقابلا مع عوض . ذهبوا إلى حديقة الخالدين . وكأن شيئا لم يحدث بين عوض وأسرة سيد.

★★★

سيد أكثر الثلاثة طولا . بشرته تميل للسواد ، مثل سائر النجعاوية.

وعوض أقصرهم وأكثرهم نحافة . وشعره مجعد وأنفه كبير.

يرتدى سيد ملابس أنيقة وغالية الثمن ، تشتريها له أمه بكثرة.

ذهبوا إلى الحديقة التى أنشأتها حكومة الثورة حديثا أمام مسجد القائد إبراهيم ومبنى الصحة العالمية. الحديقة بها تماثيل نصفية لأعلام الإسكندرية الخالدين : سيد درويش وعبدالله النديم ومحمد كريم .. وبائع شاى أسود يشمر بنطلونه حتى منتصفه ويتحرك فى خفة . وامرأتان روسيتان تجلسان فى الشمس الدافئة . إحداهما تميل للامتلاء ووجهها يزداد احمراراً كلما ضحكت . والأخرى نحيفة وتمسك طفلا . تعدل ملابسه من وقت لآخر.

الروسيات يتواعدن بكثرة هذه الايام . يستمتعن بشمس مصر المشرقة. فأزواجهن يعملون فى السد العالى وترسانة الاسكندرية وبعض المشاريع الأخرى . يسكنون فى مبان جديدة فى شارع النصر . الذى أقيم حديثا قريبا من باب الجمرك رقم ١٠.

قال سيد :

– امرأة روسية جميلة.

تبتسم المرأة وهى تحدث زميلتها . ولم تنظر ناحيتهم قط . وكأنها لاتراهم . قال سعد:

– ذكرتنى هـذه المرأة بالحلم الذى حلمته بالأمس .. امرأة متزوجة من قريب لى . بلت شفتيها بلسانها وقبلتنى . وعندما استيقظت وجدت سروالى مبتلا.

ضحك سيد قائلا :

– تبولت على نفسك؟

– لا ، كان ذلك من أثر الحلم ، وأدركت بعدها أننى قد أصبحت رجلا .

أسرع طفل المرأة النحيفة ناحيتهم . سيد بن توحيدة كان أكثرهم جرأة ، اندفع نحو الولد ليحدثه ، الولد يبتسم ويتكلم بطريقة لم يفهموا منها شيئا . لكنه كان يريد أن يبقى معهم ، لولا أن جاءته أمه وأخذته . حدثته . وأشارت إليهم . لم تكن تعنفه . بل ابتسمت لهم وسارت به ناحية زميلتها.

حكى سيد عن طريقة شد الجلد . وقال إنه يفعلها كلما استحم فى طشت أمه توحيدة وأن أمه وإخوته يخرجون . ويتركون له الحجرة ليستحم . فدورة المياه لاتصلح للاستحمام أبدا .

شرح سيد لهما الطريقة : لابد أن تستحضر فى ذهنك امرأة تحبها أو تعجب بجمالها . وتتخيل أنك تقضى معها أوقاتا سعيدة.

سأله سعد عن المرأة التى يتخيلها دائما فى مثل تلك الظروف . فقال على الفور : موزة أخت متولى الفص .

عندما جاء الولد الصغير إليهم هذه المرة لم تتبعه أمه . واكتفت بمتابعته من بعيد وهى تبتسم . ودخل الولد وسطهم . جلس بين سيد وسعد وردد كلمات غير مفهومه .

وضحكت المرأتان . وازداد وجه التى تميل للامتلاء احمرارا . كانت شهية . قال سيد لسعد:

– أعرف أنك تميل للممتلئات أسرع إليها لتحدثها ما دامت تعجبك.

– وكيف سأتفاهم معها ؟

– بالانجليزية ألم تدرس فى المدرسة الانجليزى؟!

لكن عوض صاح محذرا :

– المباحث تهتم بالروسيات . وتراقبهن خشية أن يعاكسهن أحد . فنحن فى حاجة إلى رجالهن هذه الأيام .

كان عوض يفكر فى حديث سيد عن شد الجلد . وكلما تابع وجه المرأتين الروسيتين يتذكر محاسن التى سكنت الحجرة المجاورة لحجرتهم. ود لو أسرع إلى البيت الآن. لايريد أن يسمع حديثا من سعد أو سيد . ولا أن يتابع الروسيات أكثر من ذلك.

★★★

ما أن دخل عوض البيت حتى صاح فى أمه التى كانت تتحدث مع زوجة خاله هانم أمام باب حجرتهم:

- أريد أن أستحم .

دهشت المرأة فقد استحم في المؤسسة بعد أن أعطت أمه لدادة أنجيل ربع جنيه كاملا . فسمحت له بأن يستخدم الحمام ذا الماء الساخن والبارد والذى تحمى فيه الولد نادرا الأثير لديها .

تخيل عوض محاسن بجسدها الفارع الشديد أمامه عارية، تناديه وتخفى ما بين ساقيها ثم تكشفه له فى تدلل. كما كانت تفعل مع المخبرين فى قسم الشرطة.

كاد يصيح فرحا من مكانه مبلغا أمه وزوجة خاله وربما محاسن أيضا. بأنه قد بلغ سن الرجولة . وأنه فلح فى عملية شد الجلد التى حكى سيد له عنها .

وعندما تقابل مع سعد سأله عما فعل . فقال سعد أنه فشل فى ذلك فهو دائم الشرود. ولا يستطيع أن يتخيل امرأة لمدة طويلة .

باتت هذه المسألة شغل عوض الشاغل. خرجت أمه مع زوجة خاله هانم وخاله عزوز كان فى الوردية فى الشركة . وبقى هو وحده فى المنزل .

خرجت محاسن من حجرتها أمامه . ضحكت بصوت مرتفع ربما ليعرف أنها موجودة معه . خرج هو اليها . هذه المرة ليس وجلا كالمرات السابقة وجدها تحمل إناء مملوءا بماء استعداداً للاستحمام داخل حجرتها . قالت :

- وحدك فى البيت ؟

- أجل . أمى وخالتى هانم فى الخارج .

أسرع ليحمل الماء عنها . ضحكت. انحناءاتها فوق الإناء تكشف عن صدرها الأبيض .

المرأة تستخف بك . تظنك مازلت صغيرا . قامتك القصيرة ونحافتك يعطيانك عمرا أقل . لا تعلم المرأة أنك قد بلغت عمر الرجولة . وأنك إذا ما شددت جلدك بالصابون . وتخيلت امرأة جميلة مثلها . . تحولت إلى مارد

جبـــار قـــادر . ولا تعـــلم المـــرأة أيـــضـا . أنك استعنت بـهـا هـى عندمـا فعلت ذلك .

دخلت محـاسن حـجرتهـا . وأغلقت بـابهـا أحس عوض برغبة فيـهـا . فـخـرج من حـجـرته . وسـار أمـام حـجـرتهـا قلقـا . وضـع أذنه علـى البـاب المغلق سـمـع صـوت احتكاك الكوز بالطشت وهـى تنقل الماء إلى جسدهـا .

وسـمـعها تترنم بأغنية لم تتـضـح كلماتهـــا . عاد إلى حجرته مسـرعـا . لكنه لم يرتح . دافـع داخله يدفعه اليهـا . خـرج ثانية وجـــد سـلم نبيهة المتنـقل امامه. فـحمـلـه وسـار به الى حـجـرة مـحاسن. وصـعـد فوقـه أطل من شـراعة البــاب الزجاجية . رآها تستحم عارية فى الطشت . وتدعك جسدها بلوفة وصابونة .

عندما نظرت نحوه أسرع هابطا . كاد يقع. ارتطمت قدمه بالأرض. فأحس بألم شديد. حمل السلم وأعاده إلى مكانه .

عندما قابلته بعد ذلك قالت ضاحكة :

– كبرت يا عوض .

عرف عوض طريق باعة الكتب القديمة . اشترى بعضها . وصعد إلى حجرة نبيهة الخالية الآن. وقرأ ناسيا كل شيء حوله .

جـاء على الالدغ نادى عليـه من الشـارع . سـمـعـه عـوض من مكانه فأسـرع اليـه بالكتـاب منذ أن هرب على الالدغ من المؤسسة لم يتـقـابل مع عوض سـوى مرات قليلة سريعة .

– تفضل يا على .

– علمت أنك خرجت من المؤسسة نهائيا .

– نعم .

– يقولون إنه من النادر حدوث هذا .

– الحمد لله .

نظر على الى الكتاب مندهشا :

- تقرأ كتبا الآن ؟!

- نعم تفضل يا على .

- سأذهب الى الحاجة - زوجة عباس الأعور - تعالى معى .

الح على أن يأخذه معه ليتحدثا معا فى الطريق .

- بحثوا عنك في المؤسسة بعد ضربك للولد بدر .

عندما دخلا البيت كانت الحاجة نائمة . فهى تنام عادة فى ذلك الوقت . لكى تستطيع السهر عندما يأتى زوجها فى المساء . البيت كبير وهادىء. البنت حياة السوداء الممتلئة - التى جاء بها عباس من الصعيد لتخدم زوجته - تتحكم فى البيت الآن تقابل عمال عباس الذين يأتون لأخذ بعض لوازم العمل، أو لأخذ الطعام لعباس وأولاده . تصيح حياة فيهم : انتظر هنا . امسح الحذاء قبل أن تدخل . والعمال يخافونها . فهى خادمة - حقا - لكنها تستطيع أن تؤلب عليهم المعلم .

كريمة - ابنة عباس - لا تضع يديها في عمل البيت تقف أمام المرآة . تضع الدبابيس فى شعرها الناعم المسترسل على ظهرها العارى.. وتلبس البنطلونات المحزقة . وتسمع أغانى نجاة وشادية وعبد الحليم حافظ وتقرأ قصص الحب تقابل صديقاتها التى تعرفت عليهن فى المدرسة الاعدادية والتي تركتها دون أن تكمل السنة الثانية . قالت حياة بعد أن رأت عليا الألدغ وعوض معه :

- ماذا تريد يا على يا ألدغ ؟!

دفعها على فى صدرها البارز . قالت وهى تنظر الى عوض فى استخفاف .

- وما هذا ؟!

ارتبك عوض . لكن على لم يهتم :

- أين الحاجة ؟

- أنت تعرف انها تنام فى هذا الوقت .

- وكريمة ؟

- وما شأنك بها .

لم يهتم بها ، ذهب الى عوض :

- اجلس وخذ راحتك . ستأتى حياة لنا بالطعام . فأمى كانت متزوجة عباس الأعور قبل أن تموت .

لم يجبه عوض بشىء . فهو يعرف هذه القصة وكل سكان الحوارى الثلاث والشارع العمومى يعلمون بما حدث كان عوض مرتبكا . حديث حياة وتصرفاتها معه جعلته يشعر بالخوف من أن يطرده أهل البيت هو والولد على الألدغ .

وجاءت كريمة . لم تستدعها حياة، إنما هى سمعت الأصوات فجاءت لتعرف المتحدث .

عوض لا يعرفها . انشغل بمشاكل أبيه الذى لا يعمل وأمه التى تلح فى طلب المال ، والشرطة التى تطارده، ولم ير كريمة التى أينعت الآن. كانت صغيرة جدا منذ سنوات قلائل .

- أهلا بك .

الفانلة الرقيقة التى تلبسها تكشف عن ظهرها الأبيض والشعر الأسود المسترسل فوق الجبهة فترفعه بأصابعها الرقيقة :

- أنت صديق على ؟

البنت طيبة . لذا لم تسأله عن المؤسسة التى أصبحت وصمة عار فى حياته. هى لا شك لا تعرف قصتها . أو تعرف لأدبها امتنعت عن ذكرها له . ففتاة رقيقة مثل هذه ، لا يمكن أن تقدم على جرح كبرياء أحد .

تلك الزيارة الطارئة والتى لم تكن على البال ، اشعلت نار الحب فى قلب عوض.

عندما عاد إلى البيت ظل محملقا فى سقف حجرة جدته نبيهة . وكريمة تتبختر أمامه ببنطلونها المحزق والفانلة الرقيقة التى تكشف عن الظهر. فكر فى أن يطلب

من أمه أن تسخن الماء له ليستحم . لكنه امتنع عن ذلك . فكريمة رقيقة ولا يصح ان يقحمها فى أشياء سخيفة كهذه . إنها لا تصلح إلا للحب والجلسات فى الحدائق وبين الورود .

منذ أن خرج عوض من المؤسسة وهو يرتدى البيجامات النظيفة والقمصان. لن يعود أبدأ الى جمع الحديد والنحاس . يكفى ما ناله من ذلك . لكن بعد مقابلته لكريمة احس احساسا آخر لا يستطيع تفسيره .

فكر فى حاله . أنه يقرأ الآن بسهولة . سعد حببه فى الكتب والقراءة لو تقدم عوض لمعهد ليلى سينجح .

آه لابد من أن يكون شيئا آخر أمام كريمة الرقيقة .

عاملته البنت بود . وطلبت منه أن يأتى ثانية . لكن عليا الألدغ يختفى عن الحى . أحيانا – بالشهر والاثنين . ولا يأتى اليه إلا بالمصادفة . وهو لا يستطيع أن يذهب الى بيت كريمة وحده . الكل سيندهش بل من الممكن ان يطردوه . فما الدافع للزيارة ، وهو ليس صديقا لأبناء عباس ولا يتصل بهم بصلة قرابة ؟

فى الكتب سحر عجيب . بسببه غير أحمد عبد العال موقفه منه فى المؤسسة. بل كانت القراءة هى القوة التى صرع بها الولد بدر ورشاد . وكانت هى السبب المباشر فى خروجه من المؤسسة .

قال له رشاد :

– أنت الوحيد منذ سنوات طويلة الذى خرج بهذه الكيفية . وبتوصية بأن تعمل فى مصنع .

وبالكتب أعجبت كريمة به وحدثته ، وطلبت منه زيارتها ثانية .

سيذهب فى الغد لمقابلة المهندس الذى أرسله اليه أحمد عبد العال ، ليشغله فى المصنع . بعدها سيذهب إلى كريمة .

(١١)

دهشت توحيدة عندما علمت أن الولد عوض أصبح عاملا فى مصنع غزل كرموز .

ابنها سيد مازال يعمل مع عمه يأخذ منه الفانلات ويطوف بها على المقاهى. يسافر بها إلى الاسواق الريفية القريبة من الاسكندرية : كفر الدوار وأبو حمص والبيضا وغيرها . لكنه يعود بنقود قليلة . يأكل الوجبات الثلاث فى الشارع . ويدخن ويشرب الشاى . هذا غير ما يدفعه للمخبرين لكى يتركوه يبيع فى الاسواق، ما يكسبه يضيع . يتبخر . وعمه يشكو منه : ثمن الفانلات يتناقص . وكفاية على أخى لأتحمله لا أستطيع احتمال ابنه ايضا .

يعود سيد إلى أمه لاعنا هذه المهنة . يردد دائما أمامها . متى سيتوب علينا ربنا من هذه المهنة ؟

الولد عوض الذى قبض عليه البوليس وسجن ، وحذرت ابنها من أن يصادقه، يعمل الآن فى عمل ثابت ومضمون ، وله مستقبل . لا . لابد أن تجد عملا لابنها مثله . بيع الفانلات عمل على كف عفريت . لو مرض ابنها لن يجد ما يأكل به . لكن المصنع له مكافأة وإذا مرض يعالجونه ، وأجره لا ينقطع .

– مارأيك لو عملت فى مصنع الغزل ؟

يضيق هو بفانلات عمه . عمل لا يرتاح له . الشرطة تطاردهم فى كل سوق. يسبونهم . ويرمون – أحيانا – ما معهم فى الطريق أو فى عربات الازالة ويعود دون شىء .

– وكيف السبيل إلى ذلك ؟!

– الذى تعرف ديته اقتله .

هكذا تفعل توحيده الآن . الذى بيده التعيين تدفع له . وإذا كان لا يأخذ مالا ، فهديه بسيطة وكل شىء يبقى تمام .

وعمل سيد كما أرادت أمه . كانت ورديته هى وردية عوض . لكنه يعمل فى عنبر بعيد عنه . الأجر لا يكفى سيد . لكن أمه سعيدة به . تعطيه من مال تجارة الدخان ما يشاء . المهم أن يصبح عاملا فى مصنع وبراتب ثابت .

★★★

يأتى سعد ليسأل عن سيد . يقف خارج البيت . يحمر وجهه خجلا عندما تحدثه توحيدة تمازحه تشده الى البيت تهتم به . فهو ابن ناس طيبين ، ومازال يدرس فى المدرسة . قليلون هم الذين يكملون دراستهم فى الحارة .

البنت الزينة يركبها ألف عفريت عندما يأتى سعد . تجرى خجلة . تمشط شعرها الأكرت . تغير فستانها وتنظر إلى المرآة . تضع المساحيق الخفيفة . وتتحدث فى رقة مصطنعة ، تدهش سامعيها .

أصرت فى آخره مرة أن تصبغ شعرها باللون الأصفر ، الذى ينسجم مع لونها المائل للسواد تتابع توحيدة هذا باهتمام .. الزينة اكبر من سعد بكثير. الولد جسده ممتلىء وعفى . ويبدو أكبر من عمره . يقول سيد عنه :

– سعد هذا الذى يبدو خجولا امامكم ، يعرف نساء كثيرات .

توحيدة لا تصدقه . فليس من الممكن أن يفعل هذا وهو فى خجله الواضح امامها .

حضور سعد إلى البيت أدى بالتالى إلى حضور عوض إليه ايضا . لم تصدق توحيدة اذنيها وهى تسمع سعد يدعوه للدخول كأنه يدعوه لبيته . احست بالضيق. لو كان أحد غير سعد فعل هذا لواجهته غاضبة . فبأى حق يدعوه هكذا، لكن من أجل سعد صمتت وقالت بعد ذلك .

– أهلا .

تركت الحجرة لهم ليأخذوا راحتهم . والبنت الزنية محتارة تسير بجوار الحجرة . تردد لأمها بصوت خافت .

– ما الذى جاء به الى بيتنا ؟!

فى كل مرة يأتى فيها سعد . تدخل الحجرة وتجالسه، تحدثه عن تمثيليات الإذاعة التى تسمعها فى الراديو. وتحدثه عن الفتيات اللاتى دخلن المدارس الإعدادية فى الحارة . إنهن قليلات . بعضهن يتعامل معها فى كبرياء وتعال ، لأنها غير متعلمة تقلد مشيتهن ساخرة . فهن يسرن شامخات رافعات انوفهن لأعلى . ينظرن الى أعالى البيوت . فتصطدم أقدامهن بأكوام الزبالة فى الحارة . فيتأففن . ويمسكن بأنوفهن .

لكن حضور عوض هذا أفسد كل شىء . جعلها غير قادرة على الاقتراب من الحجرة .

لقد جاء عوض – هو الآخر – مضطرا ولولا شدة احتياجه لسعد ما اقترب من بيت توحيدة فهو ما زال يذكر ما فعلته به . لكن كريمة شغلت كل تفكيره . سعد هو الوحيد الذي سيفيده فى ذلك الموضوع . فهو يقرأ كثيرا. والكتب مليئة بقصص الحب المماثلة .

جن عوض فى عقله وذهب إلى بيت عباس الأعور دون على الألدغ ودون سبب واضح ومقنع . كانت الحاجة نائمة . حياة لم ترحب به . ودهشت لحضوره . ثم أتت كريمة من حجرتها . شعرها متعقود من الخلف .. وبلوزتها بسيطة عليها رسوم على الصدر . وحزام عريض فى الوسط . ارتبك عوض. تصب العرق من جبتهته العريضة التى تشبه القبة . قال :

– أحضرت لك بعض القصص .

– شكرا لك أحس بالملل منذ أن تركت الدراسة . أمى تنام فى هذا الوقت . وأنا أحاول النوم لا أستطيع . إنها تتحدث معه الآن فى خصوصياتها .

– تفضل ارتاح .

- إننى أعرف باعة الكتب وسأشترى لك بعضها .

- إذا ما ذهبت اليهم خذنى معك . وسأشترى مثلك .

لم يصدق نفسه . فهى تحبه مثلما يحبها ما فى هذا شك . فها هى تعرض عليه أن تخرج معه..

قابلها فوق الجبل . سارا معا كان مبتسما فى حياء . من يره سيعرف أنه يحبها ، وفرح لأنه تسير بجواره . لكنها لم يبد عليها أى تغيير . ترفع خصلة الشعر عن عينيها بأصابعها وتسير في رشاقة ، حدثته عن الروايات الغرامية التى تفضلها : غادة الكاميليا وما جدولين وغيرهما . كان خائفا من التجربة . ود لو دعاها لشرب زجاجة قازورة فى محل عام . لكنه لم يستطع . خاف أن ترفض أو تغضب ومرت التجربة دون مشاكل . لم يرهما أحد معا .

الروايات التى اشترتها وهى معه . جعلته غير قادر على زيارتها . فما حجته الآن وهى لديها ذخيرة منها تكفيها لشهور قادمة .

تلك كانت مشكلته التى جعلته يبحث عن سعد ، ويجاسر ويأتى إلى بيت توحيدة ليقابله رغم ما بينهما من كره متبادل .

★★★

اللى معاه قرش محيره ، يجيب حمام ويطيره . هكذا كان عباس الأعور، الفلوس كثيرة من تجارة ورق الدشت . ومن دكانة الخردة الذى يديرها ابنه صابر لذا كان يقيم الحفلات لأقل سبب، فجأة يقرر أن يقيم ذكرا، أمام بيته ويوزع الأرز باللبن على كل الموجودين . ويحضر المنشدون والمقرئون .

أو أن يأتى إليه أى عريس فى الحارة طالبا منه أن «يلبس» عنده ويفرح عباس لهذا فيأمر عماله بالاتفاق مع كهربائى الحى . ليعلق فرع نور على الشرفة وفوق باب البيت . ويأتى العريس إلى البيت ، يستحم فى حمامه ذى الماء الساخن والبارد . ويرتدى ملابسه عنده . وتكون فرقة عوالم صغيرة فى انتظاره وهو واصحابه على حساب عباس الأعور . يقضى العريس ساعات قليلة ثم يذهب بعد

ذلك الى مكان عروسه حيث يقام الحفل إما فى المسرح أو فى صوان مغلق امام البيت .

فى حفلة من هذه الحفلات حضر الأربعة سعد وسيد وعوض وعلى الالدغ الذى قرر ان يقضى الليلة فى الحارة معهم ، لم يفكر فى مكان محدد يقضى فيه ليلته فكله محصل بعضه ، كثيرا ما نام فى اقسام الشرطة مرة لأن المخبرين لم يعجبهم قفطانه الشديد الاتساخ او لشعره الطويل المهوش والمتسخ ايضا . أو لأن اغطية البالوعات المصنوعة من الزهر قد سرقت مرة أخرى . ماله هو ومال هذه الأغطية . لقد فعلها مرة واحدة وأحس بأنها لا تساوى مشاكلها . فكف عنها . كما أنه لم يعد يتعامل مع عباس الأعور الذى كان يبيع له الزهر المسروق . ولا يذهب إلى شونته بعد أن ضاق بتصرفات ابنه صابر معه .

يخرج على الألدغ من قسم الشرطة غير قادر على السير بقدميه المتورمتين من شدة الضرب ليعترف بالسرقة او ينام فى قهوة خبينى التى ليس لها باب وصاحبها يغطى واجهتها بقماش قديم متآكل من بقايا اقمشة الفراشين الذين كانوا يستخدمونها فى الافراح والمآتم منذ وقت طويل .

يسمح صاحب المقهى لأمثال على الألدغ - ممن لا يجدون مأوى للمبيت - بالنوم على الدكك والمقاعد للصباح نظير ما يدفعونه ثمنا للطلبات .

ظهرت على المسرح امرأة سوداء ذات تقاطيع زنجية . وجسد ملفوف . كانت تتأوه بطريقة تثير الغرائز تفتح فمها بطريقة تجعل الرجال يهبون من فوق مقاعدهم صائحين .

عباس الأعور ينظر اليها مبتسما فى تثاقل . فجأة قام على الالدغ من بين زملائه وأخذ يرقص وهم يصفقون له . كان يهتز كراقصة محترفة . ثم رفع قفطانه فكشف عن ساقيه المثلثتين وسرواله الممزق والمتسخ والذى لم يخلعه منذ وقت طويل . فضحكت النسوة اللاتى ينظرن من الشرفات والنوافذ. ثم رفع قفطانه اكثر حتى خلعه عن جسده . ورماه فوق العالمة السوداء . فتأففت ورمته

على المـشاهدين فى أسفل فجرى البعض خشـية أن يصيبه . وصرخ البعض فزعا .

ورقص على الألدغ بجسـده العارى وفانلته الممزقة من كل جانب . عندما أحست الراقصة بأن اهتمام المشاهدين قد انصرف عنها وانصب كله على على الألدغ فنزلت عن المسرح . وسارت اليه ورقصت معه . وهو غير منتبه لها . كأنه فى حالة وجد . غير واع لما يحدث حوله .

رقصت معـــه . واقتربت منـــه أكثر . حاول أن يضمها اليه . فأفلتت من بين يديه القوتين . لكنه أسرع وضمـها اليـه فى قـوة . خافت منه . وكاد الفـزع يظهر على وجهها . لكنها تغلبت على خوفها . وضحكت ورقصت وهى عائدة الى المسرح .

أشار صاحب فرقة العوالم الى اصدقاء على بأن يأخذوه وينهوا ما حدث فجاءوا بقفطانه وألبسـوه إياه وأجلسوه بجانبهم . فكان يقف من وقت لآخر ويصيح، . ثم يصمت وكأنه لم يفعل شيئا .

بعد أن أنهت الراقصة السوداء رقصتها . طلبت من أحد الحاضرين أن يأتى لها بذلك الولد البدين الذى كان يرقص . فذهب سعد وسيد ابن توحيده اليها . فعلى غير قادر على السير من أثر البيرة التى شربها . قالت العالمة لهما :

– أنا اسمى توحة . أريد أن يعمل زميلكم معى .

– ماذا . يعمل طبالا ؟

قالها سيد فى سخرية . فقالت :

– لا . يحمل لى حقيبتى من حفل لآخر . وسأدفع له مبلغا كبيرا .

قال سعد :

– سنخبره بهذا عندما يفيق .

اعطتهما الراقصة كرتا باسمها فيه عنوان بيتها . ليأتى فيه على الألدغ ويقابلها .

(١٢)

يتقابل سعد مع صديقيه عوض وسيد ابن توحيدة يقضون معظم الوقت معا. إذا ماكان سيد فى وردية الساعة الحادية عشرة . يظل معه طوال اليوم . خاصة أيام الإجازة الدراسية . التى يكون سعد فيها متفرغا من كل شىء سوى صديقيه

يذهب سعد مع سيد الي مصنع غزل كرموز . يدخل المصنع مثله مثل باقى العاملين الداخلين واليه فى موعد دخول الوردية . يقابل هناك عوض الذى يستعد للخروج من المصنع حيث أنهى وردية عمله التى تبدأ من الساعة الثالثة بعد الظهر .

عمال المصنع كثيرون . الخفراء الواقفون على الباب لا يستطيعون تمييز العمال من الأغراب .

يخرج سعد بعد ذلك فى موعد الانصراف مع عوض .

يكره سيد ابن توحيدة وردية الساعة الثالثة . لأنها تحرمه من البنت حياة خادمة عباس الأعور فهو يذهب اليها وقت العصر تقريبا، الوقت الذى تنام فيه الحاجة زوجة عباس – وتكون كريمة فيه عادة خارج البيت. او مشغولة في حجرتها تقرأ .

يتقابل ، بعد ذلك الثلاثة معا. يتساءلون : هل من الممكن أن يتفرقوا. أن يذهب كل منهم فى طريق . قال عوض :

– لن يفرقنا سوي الجيش .

التجنيد فى الحارات الثلاث (حارة نعمان وبسطاوى والنجعاوى) له وضع مقارب لوضعه فى الارياف. فهو عادة يكون فاصلا بين رعونه الشباب والدخول فى طور الرجولة والجدية . كثيرون فى الحى افترقوا عن بعضهم البعض بعد التجنيد، وانشغل كل منهم بعالمه الجديد .

من الممكن ان يعود المجند بعد فترة تجنيده . فيجد الدنيا حوله قد تغيرت،

زملاؤه بعضهم قد تزوج وانشغل بحياته الجديدة. وبعضهم أنهى دراسته وانتقل إلى حى آخر .

كما أن التجنيد ينقل الشاب إلى عالم آخر متغير . يريه اشياء جديدة عليه لم يرها من قبل . يعاشر هناك شبابا من كل قرية ومدينة فى مصر . ويسافر الى مدن ، لولا الجيش ما انتقل اليهما أو رآها قال سعد لعوض :

– ما الذى ذكرك بالجيش الآن ؟

قال سيد :

– عوض سيجند فى القريب ، فقد حان موعده .

أومأ عوض برأسه .

– أجل . فقد جاء شيخ الحارة إلى البيت أمس .

وقف مندوب التجنيد فى بيت نبيهة السوداء .بجسده العملاق ووجهه الممتلىء. حتى كاد يختنق داخل الطرقة الضيقة ، ونادى على عوض .

مازالوا فى غربال يسمونه. شيخ الحارة ويتشاءمون من دخوله بيوتهم. فوجدوه داخل البيت يعنى أن شابا سيفارق اهله ، وسيسافر الى بعيد، ولن يعود إلا بعد وقت طويل .

كما أن عجبة تعرف أن المجندين لا يحصلون علي أجورهم من أماكن عملهم طوال فترة التجنيد . ويتناولون فى الجيش راتبا لا يكفى نفقاتهم لأيام معدودات. هذا غير الأعباء الكثيرة التى يحتاجونها . من سفر وانتقالات .

عندما علمت كريمة بأن عوض سيدخل الجيش. أرسلت اليه كتبه . حملتها اليه البنت حياة ، وتركتها لأمه عجبة .

ذهب عوض اليها . والكتب معه .

– واضح أنك لم تنته من قراءتها .

– قرأت بعضها .

– خليهم عندك . وسوف آخذهم بعد أول إجازة لى .

صافحته مبتسمة .

- تروح وترجع بالسلامة .

أحس عوض بالفرح عندما تركت كريمة مدرستها . فقد كان يخشى اتساع الهوة بينه وبينها . غنى والدها وبيته الكبير الذى يشبه القصر . فإذا أكملت تعليمها ستحصل على مؤهل دراسى . وهو ليس لديه شىء .

بذلك يكون الفرق الوحيد بينه وبينها هو غنى والدها . وذلك يستطيع عوض السيطرة عليه . فمن الممكن أن يقبله والدها زوجا لها ، خاصة عندما يحس بأن ابنته تحبه .

عندما انطلق قطار الجنود المسافر الى القاهرة . كانت أمه وزوجة خاله هانم ومحاسن يقفن فوق الرصيف بكت عجبة ولوحت له بيدها . وكذلك فعلت هانم . لكنه يتذكر سوى كريمة . راها تقف وسطهن . تبتسم له وتلوح بيدها الرقيقة .

لماذا لم تأت لوداعه . تمنى لو رآها حقيقة . وعندما تخطى القطار الرصيف، أحس بأنها فى آخره تشير اليه كما يحدث عادة فى الأفلام العربية .

★ ★ ★

تحرك عوض فى أناة وحذر . فصف الضباط المقيمون فى المعسكر ينامون على أسرتهم الواطئة ..

سار بجوارهم فى هدوء شديد . خشية أن يزعجهم . وإلا قاموا وضربوه .

أحدهم كان يقضم سندوتشا . صاح فى كبرياء :

- ولد أريد أن أشرب .

أسرع عوض . فلابد من التحرك طوال فترة التدريب بالخطوة السريعة .

أكثر ما أتعب عوضا فى هذه الفترة هو تنظيف دورات المياه . فالجنود يقضون حاجتهم فى أى مكان فيها ولا بد من التنظيف بالايدى المجردة .. دون الاستعانة بأية ادوات أخرى .

البعض كان يتقيأ ويغمى عليه . فكانوا يضربونه حتى يفيق . ويأمرونه بمعاودة المحاولة ثانية .

الغريب أنهم يقولون إن هذا من التدريب .

★★★

كان عوض متعبا. ليس من طوابير الجرى وحدها، ولا من التدريب المستمر المتعب ولكن آلاما شديدة تقطع فى بطنه. حتى أحس بعرق بارد ينز من جسده كله. ربما أن الماء الذى يشربونه غير نقى ...

أو أن الطعام به شيء غير عادى .

كان النوم يداعب جفنيه واسترخاء لذيذ يسيطر علي جسده كله. وصوت البروجي يدعوهم الى ارض الطابور لم يكن يعرف تفسير ذلك النداء ، فهو لم يستوعب أنواع النداءات بالبروجى . واسرع عندما رأي زملائه يسرعون .

وقفوا صفوفاً . بعضم مازال يكمل ارتداء سترته. وقائد المعسكر بقامته القصيرة وكرشه البارز يقف غاضبا وحوله كل الضباط الكبار الموجودون فى المعسكر وقتذاك . والضباط الأقل رتبة يقفون أمام وحداتهم .

وصاح قائد المعسكر. قال إن هذا الاجتماع من أجل مشاهدة عقاب جندى زميل لهم . دأب على التغيب عن المعسكر . ولقد اعطاه القائد أكثر من فرصة دون طائل .

وجاءوا بالجندى كان ممتلئا وقويا. بشرته سمراء وطويلا . بدا من بعيد فى صورة لا تسمح له بأن يكون جنديا .فقد كان أكبر من السن المعتاد للتجنيد .

سار الجندى دون أن يلتفت إلى أحد. لم يكن مقيدا. وجنديان مسلحان عن يمينه وعن يساره يمسكان بذراعيه .

وقف فى موقع يستطيع أن يراه منه كل الموجودين فى المعسكر بوضوح . خلع الصول عنه سترته ورماها فوق الأرض . ثم خلع فانلته الداخلية. فظهر جسده الاسود . كان يلمع من العرق . ثم امسك الصول بذراعيه وشدهما فى عنف خلف

ظهره وقيدهما بالحديد .

اقترب أحد الجنود من الصول واعطاه قطعة بنية تشبه قواقع البحر. او عظام ابو جلمبو . او ربما قطعة بلاستيك . فلم يتضح معالمها من بعيد . خاصة ان الظلام بدأ يتسلل الى ارجاء المعكسر .

نظر الشاب اليها وارتعد ، لا شك هو يعرفها فقد ارتعش جسده وبكى ، ثم صرخ . وحاول الابتعاد عنها اهتز جسده كله بين ذراعى الجنديين اللذين جاءا به . وأسرع آخر لمساعدتهما فى السيطرة عليه .

امسكوه ثم اعادوا الى مكانه .

نظر الصول الى الجنود الملتفين حول المشهد . وحرك ذلك الشىء الذى لا يعرفه عوض للآن . إلى كل ناحية ليتأكدوا منه . كان كالحاوى او الساحر الذى يؤكد على معجزة سيقوم بها أمام نظارته .

ثم وضع ذلك الشىء الغريب فوق ثدى الشاب. فارتعد وحاول الرجوع إلى الخلف . لكن الجنديين صداه ودفعاه ناحية الصول .

امسك الصول ثدى الشاب الأيسر بطرفى فى ذلك الشىء. فصرخ الشاب وذعر . وأخذ يشرئب لأعلى ويزوم . ويتململ . ولم يستطع الجنديان امساكه، ومنعه من التحرك فأسرع آخرون معهما لمساعدتهما ...

وفعل الصول ما فعله فى الثدى الآخر . كان يمسكه بفكى الآلة العجيبة . والشاب يصرخ صراخا لم يسمعه عوض من قبل . ويحرك ساقيه محاولا الهروب. ثم وقع على الارض مغشيا عليه. فأمرهم القائد بحمله. ثم اكمل خطبته . موضحا ان الألم الذى تحدثه هذه الالة العجيبة فى الثديين لا يعادله ألم قط ، وأن هذا العذاب سيكون من نصيب من يتغيب .

داهم ذلك المشهد عوض وهو نائم. أراد أن يوقظ من بجانبه ليسأله عن حقيقة ماحدث. هل رآه مثله؟ أم أن عوض وحده الذى شاهده؟، وما نوع هذه الآلة العجيبة. وهل حقاً بينهم جندى أسود بهذا الوصف؟. أم أن الأمر لم يكن سوى حلم جثم على أنفاس عوض من أثر التعب الذى يلقاه فى التدريب؟!

(١٣)

فى أول اجازة لعوض سار فى الصحراء الشاسعة لمدة طويلة. كان فرحا لأنه سيعود إلى غربال . إلى أمه واخوته وأبيه، وإلى كريمة التى لم تبعد صورتها عن خياله طوال الوقت .

شكله تغير كثيرا ، شعر رأسه القصير كشف عن الحجم الرأس غير العادى. كما أن وجهه قد شحب . فظهرت انفه الكبيرة وازداد وجهه سوادا . ليس مهما فكريمة تحبه فى الصورة .

اقترب من الحارة . واجهته الحدايد الثلاث . كم هى عزيزة عليه تذكر سعدا وسيد ابن توحيدة كان يقف معهما امام هذه الحدايد. يتابع النسوة فى البيوت المجاورة . يشاهدونهن داخل حجراتهم .

ابتسم للحارة وهو يهبط الدرجات البازلتية السوداء . وكأن الحارة شىء يحس امامه. وسوف تستقبل ابتسامته بابتسامة مثلها .

درجات المسجد الرخامية الملساء خاوية . حتى دكان بخيت الحلوانى مغلق. ها قد عدت من الجيش يا ناس . لماذا لا أراكم امامى . ؟!

ليس له الآن سوى عجبة أمه . كانت منحنية – كعادتها – فوق وابورها خارج الحجرة . قريبة من السلم .. صاحت المرأة فرحة عندما رأته .. وضمته لصدرها . شم فى يديها رائحة البصل الذى كانت تقطعه بسكينها ...

كنبة أبيه المفضلة خالية. لعله احس بالخجل بعد ذهاب ابنه الى الجيش، فخرج ليبحث له عن عمل .

احك يا امرأة عن كل شىء . عن اخبار سعد صديقى . هل يأتى الي ا لحارة فى غيابى . والولد سيد ابن توحيدة واخته الزينة .. ماذا يفعلان ؟ احك عن كل شىء عن البنت كريمة . هل جاءت اليك للسؤال عنى ؟

بعد أن استحم وتناول طعامه سار فى الحارة وحده. مر أمام بيت عباس لعله يرى كريمة . لكنه لم يرها. ونظر إلى بيت توحيدة لم ير أحدا.

كلهم اتفقوا ضده وتباعدوا عنه . ارادوا ان يبقى وحده وهو فى شوق اليهم .

سأل عن سعد فى بيته . قالوا إنه خرج . لو وجده لكان اخذه معه إلى السينما على حسابه . أى سينما فقد اشتاق الى ذلك .

عاد الى الحارة ثانية . فلن يجد لذة فى دخول السينما وحده ولا فى أى عمل آخر يعمله وحده . تردد قليلا ثم دخل بيت توحيدة . نادى بصوته الضعيف المخنوق. طلت الزينة برأسها . جسدها كله كان داخل الحجرة . ابتسمت . ربما لمنظرة الذى لم تعتده ..

– سيد موجود ؟

– أجل . تفضل

ظل فى مكانه إلى ان خرجت توحيدة .

– تعالى يا عوض . سيد نائم . لكن سأوقظه لك .

سار مرتبكا . خجلا .. لقد جاء الى هذا البيت عدة مرات كلها برفقة سعد . اول مرة يجرؤ ويأتيه وحده .

البنت الزينة مازالت تبتسم . ضحكت توحيدة .

– الجيش واضح فى وجهك لقد ازدادت سوادا

واكملت الزينة :

– ونحافة أيضاً .

جاء سيد ببيجامته كان فرحا به .

سيد سيجند بعد عام تقريبا .. فعوض اكبر منه بسنة واحدة، لذا تحسس سيد رأسه . شعره الطويل الذى يمشطه بالصابون ليصفر، ويعتنى به ، سوف يقصونه – هكذا – عندما يجند .

– ذهبت الى سعد فى بيته . لم أجده .

– لعله يستذكر لدى زميل له .

– كيف حالك ؟

– بخير

– وكريمة ؟

– تريد أن تطمئن عليها . رأيي أن تنساها .

ارتعد عوض .معنى هذا أن شيئا جديدا حدث فى غيابه .

– ماذا حدث ؟

– انتقلت الى شاب آخر الولد حسن ابن عزيزة .

– أراد عوض أن يهرب من البيت . لا يريده أن يتحدث عن باقى القصة. لابد أن يبحث عوض عن آخرين غير سيد ليسألهم . فقد يكون سيد متحاملا عليها.

سيدخل بيت عباس الأعور لأى سبب. ولو اضطر سيدخل دون سبب. المهم أن يعرف الحقيقة منها .

منذ أن جند وهو يحلم بيوم الإجازة ليلقاها . قاله سيد :

– تعلم أننى ألتقى بالبنت حياة خادمتهم . وأعرف كل ما يحدث فى البيت .

دخلت توحيدة بصينية الشاى . الزينة كبرت ، ولا بد ان تبحث توحيدة لها عن زوج .

لقد رشحت لها اكثر من شاب لكن لم تجد من يصلح لها منهم . ليس امامها – الآن – سوى عوض . هو حقا أقل عمرا منها. وشكله مش ولا بد. لكنه هو المتوفر الآن ، يعمل عملا ثابتا . وبعد ثلاث سنوات سينهى جيشه ويكون جاهزا للزواج . فالشاب في غريال عادة يتزوج بعد أن يحصل على شهادة المعاملة العسكرية .

خرجت توحيدة الى ابنتها الزينة .

– الولد عوض احلو .

– اتمزحين لقد ازداد سوءا .

– الولد مستقيم . ويهتم بعمله .

– ماذ تقصدين ؟

– لا أقصد شيئا .

تابعتها الزينة غاضبة . فهى تعرف امها جيدا .

وشردت توحيدة فى مشروعها الجديد . اسرة عوض فى حاجة الى المال وتوحيده لديها منه المزيد ام عوض وابوه لا يمتلكان المال الكافى للانفاق على اسرتهما ولا على مصاريف سفر عوض الى الجيش.

ومصاريفه الأخرى هناك ..

★★★

اضطر عوض ان يتناول الشاى .. ارتشفه وهو شارد ، أحس بأن طعمه مر . كان تفكيره خارج الحجرة احاسيسه كلها تبحث عن كريمة وعما حدث لها فى غيابه لذا الح على الصول فى الجيش لكى يحصل على اجازة وفعل المستحيل حتى وافقوا واسرع لكى يصل مبكرا ليراها .

قبل أن يكمل عوض شرب كوب شاى ، قال لسيد :

– اريد ان اسير فى الحارة اشتاق اليها .

– سأخرج معك .

كانت كريمة تقف فى الشرفة . لم تعر عوض اهتماما . كأنها لا تعرفه بل نظرت اليه فى تثاقل .

ما الذى غيرها هكذا . الولد حسن ابن عزيزة شكله حلو ولديه من المال الكثير. يرتدى ملابسه علي الموضة . ويهتم بشعره .

– سيد سأذهب لمقابلتها .

– هذا خطر عليك .

– لن اهتم .

وقف سيد في مكانه . اسرع عوض الى الباب الحديدى الكبير . صعد الدرجات القليلة امام البيت . كان باب الشقة مغلقاً دفعه عوض. لو قتله عباس الاعور أو احد اولاده لن يهتم ، المهم أن يصل الى كريمة ويعرف منها ما حدث ..

قابله وجه حياة الأسود الممتلىء قالت فى لغة ممطوطة وفى استنكار لحضوره هكذا:

– نعم ؟

– كريمة موجودة ؟

تركته أمام الباب وسارت وهى تنظر إليه فى استخفاف من وقت لآخر، وظل هو فى مكانه متماسكا، مهما كانت نتيجة اللقاء، فستكون أقل مما يلاقيه الآن من حزن وقلق عليها .

جاءت كريمة . إنها تعرف مقدار جمال رقبتها، لذا تلبس البلوزات العارية الظهر والصدر .

– عوض . حمدا لله على سلامتك .

– أريد أن أتحدث إليك .

– لاأريد كتبا جديدة إننى مشغولة هذه الأيام.

كانت تتحدث فى هيام شديد .

– تذهبين كثيرا إلى عزيزة الخياطة.

صاحت فزعة بعد أن أدركت مايريد أن يقول:

– ماذا تقصد ؟

– حقيقة ما يقولونه عن علاقتك بحسن ابن عزيزة؟

– وما شأنك أنت . أنا حرة أفعل ما أشاء.

ثم ابتعدت عنه خطوات، إيذانا بانصرافه. تردد – هو – قليلا ثم أسرع فى المسير. قالت:

– سأرسل كتبك إلى البيت مع حياة .

قبل أن يصل الدرجات القليلة أمام الباب الحديدى. سمع صوت غلق باب حجرتها فى عنف ظل واقفا أمام الدرجات، أحس بالدموع تحاول أن تنفر من عينيه، لكنه تذكر سيد الذى يتنظره فى الخارج فتمالك ..

وابتسم رغما عنه . لكن توتره كان واضحا . قال سيد:

– هل أساءت مقابلتك؟

– بالعكس . رحبت بى كثيرا .

ردد سيد لنفسه .. «ليس مهما» فحياة ستحكى لى عما حدث.

ثم أحس سيد أن عوض يريد أن يهرب منه، فابتسم وسار تاركه وحده.

★★★

بعد أن اجتاز عوض «الجبل» فوق حارة نعمان أطلق العنان لدموعه. وارتاح لأنه لم يقابله أحد معارفه.

لو دخل السينما بمفرده، سيبكى فى الظلام ولن يستطيع متابعة الفيلم، ستواجهه كريمة فى كل ركن من الشاشة ستمثل له فى الظلام.

تقوده ساقاه إلى حيث لايدرى، اقترب من حى «اللبان» لماذا لا يذهب إلى محاسن، أجل . فليس هناك سواها، لقد تركت بيتهم منذ سنوات، ومازالت تتردد عليهم، تأتى محملة بالهدايا لأطفال هانم زوجة خاله، ولإخوته، تدعى أمام أمه وزوجة خاله أن المال الكثير هذا يأتيها من إيراد قهوتها .

هى تمتلك القهوة حقا، لكن ذلك ليس عملها الأساسى، عملها هو إدارة البيت المجار للقهوة والملىء بالنسوة والمخنثين.

انشغل بعض الوقت عن كريمة بمتابعة ماحدث لمحاسن منذ أن تركت بيتهم، هل تعرف هانم – التى تصادقها أكثر من أمه – حقيقة عملها؟

إلى الآن، لا يجد عوض اعتراضا على دخول محاسن بيتهم، لا من هانم ولا منه من أى فرد فى البيت أتكون الهدايا التى تأتى بها دائما هى التى أعمت عيونهم عن حقيقتها ؟

تجلس محاسن فوق المكتب فى ركن القهوة . والساقى يضع الماركات أمامها .

– أول اجازة لك؟

– نعم .

– شدت مقعدا بجوارها :

– فيك الخير ياعوض .

سعيدة هى حقا لأنه زارها . الساقى يضع الماركات على المكتب دون أن يحدثها، وهى لاتنظر إليه. تخرج النسوة من البيت . يتثاءبن. يقتربن من محاسن، ويهمس فى أذنها . «فتومى» برأسها وتتمتم بكلمات قصيرة.

– لك وحشة ياعوض . كنت فى بالى أنت وهانم وعجبة أمك.

هى ليست فى حاجة إلى هانم أو عجبة، فقد اغتنت، وبيت نبيهة السوداء لم يعد يناسبها، رغم ذلك مازالت تودهم وتصادقهم، عندما تأتى تحدث الجميع حتى عزوز – زوج هانم – الذى لا يتحدث مع أحد .

– أول مرة أجدك تجلسين على المكتب .

– شغل القهوة كثير . ولابد من متابعته .

تذكر عوض يوم أن دخل قسم الشرطة لأول مرة، والمخبر الشاب «يزنقها» فى الحائط ويلتصق بها. مازالت المرأة جميلة . جسدها لم يمتلىء ولم يجرب الحمل والولادة والرضاعة .

– اطلب لك سحلبا ؟

– لا . شايا .

– كبرت ياعوض .

مشاهدة النسوة الداخلات إلى البيت والخارجات منه أنسته مافعلته كريمة معه. لكنها تعود ثانية لتطفو فوق خياله بصورتها .

– عوض . ماذا بك . تريد نقودا ؟

ومدت يدها وأخرجت النقود من الدرج.

– أنت فى الجيش الآن ومحتاج.

– لا . أريد امرأة من هؤلاء .

غضبت محاسن . صاحت به فى صوت سمعه كل رواد المقهى:

- لا .

لم يجبها عوض بشىء.. نظر إلى أسفل حزينا .

- لا أستطيع أن أفعل هذا معك فأنت مازلت أمامى عوض الصغير الذى قابلته فى قسم الشرطة.

- لكنى فى حاجة واحدة إننى أعيش مشكلة الآن .

ضحكت بصوت مرتفع حتى ازداد ارتباكاً، وتمنى أن يقوم ويبعد عنها، أحس بأنها ستحرجه أمام الجميع .

- ماذا . تريد أن تنسى فتاة تحبها ؟

- نعم .

ضحكت بصوت مرتفع، ثم قالت فى هدوء بعد أن أحست بأنه يكاد يبكى من تصرفاتها معه:

- لو نسيتها بواحدة ستحتاج الى أخرى لتنسى الثانية.

غضب وأراد أن يمشى. سارت محاسن معه بضع خطوات حتى خارج القهوة ودست فى يده المال :

- خذ فأنت فى حاجة الى المال الآن .

أراد أن يمتنع . لكنها ألحت.

أخذ المال وسار، فقد كان فى حاجة إليه فعلا.

(١٤)

كريمة وحدها فى البيت، ليس الآن فقط، لكن فى كل وقت.

لعبة العشاق المتكررة وصلت بها الى حالة ميئوس منها، فبدأت تسبب لها قلقا بدلا من أن تسليها وتمتعها . والدها – عباس الأعور – منشغل بعمله ، وانشغل أكثر هذه الأيام بأصحابه – تجار ورق الدشت – يسهر معهم لوش الصبح . لا تراه كريمة لأيام عديدة . يخرج فى الصباح وهى نائمة، وعندما يعود مساء تكون نائمة أيضا .

وأمها مشغولة بشيئين مهمين فى حياتها : الأول النوم، فهى تنام حيث يصحو الآخرون، والثانى هو بحثها عن طريقة تعيد بها زوجها إليها، تنفق الأموال الكثيرة على الدجالين والمشعوذين، وتسافر من أجلهم الى دسوق والصعيد والواحات، فإذا ما سمعت عن امرأة ورجل سره باتع تسرع إليه وتعطيه مايريد، مهما كان ذلك كثيرا .

وحياة منشغلة بالولد سيد ابن توحيدة، يأتى إليها، تقابله على السلم، وأحيانا فى الداخل أجل. فقد رأتها كريمة مرة فى الداخل، وتمنت لو جاءها شاب مثل حياة، كانت ستدخله الشقة مثلها وقتها، لم تكن تعرف من تريد لم تحدد، عوض يحدثها فى هيام، يظنها تحبه، تحس بارتعاشة يده وهو يصافحها، فتضحك فى داخلها، إنها لاتستطيع احتماله لدقائق معدودات، فكيف ستحبه وستسمح له بدخول بيتهم، والبقاء معها فى حجرتها والحاجة أمها نائمة، وحياة منشغلة، وحتى لو لم تكن حياة منشغلة، فلن تستطيع البوح بشىء، وقتها فكرت – كريمة – فى حسن ابن عزيزة، ربما لأنه كان آخر شاب رأته يمر تحت الشرفة، لفت نظرها ببنطلونه المحزق، وبطريقة سيرة الراقصة .

لم يكن حسن بن عزيزة من النوع الذى تفضله، فقد ترك المدرسة بعد السادسة الابتدائية وعمل مع والده، فى الورشة، هو حقا يكسب كثيرا، ويرتدى ملابس خيرا من بعض الذين مازالوا يدرسون فى مدارس الحكومة لكن كونه غير متعلم كان يبعده عنها .

قابلته كريمة فى بيت عزيزة - زوجة أبيه - أطالت النظر الى وجهه . الولد وسيم . شعره يميل الى الاصفرار، وعيناه عسليتان .

حدثها عن أغنية عبد الحليم حافظ التى كانت منتشرة وقتذاك، خسارة، خسارة، فراقك ياجارة، وغناها بصوته الجميل، وتكلم عن عبد الحليم الذى رفض أن يكون مقلدا للمطربين المشهورين الذين سبقوه، وشق لنفسه طريقا خاصا به.

تذكر كريمة أن حسن ذكر اسم مغن . تنساه هى الآن - قال إنه رغم حلاوة صوته، قنع بتقليد عبدالوهاب وعمل موظفا فى شركة يمتلكها عبدالوهاب لإنتاج الأفلام، فانتهى ذلك المطرب، ولم يحقق ما كان الناس يتوقعون له.

اللقاء ، مع الأسف، لم يطل . فقد جاءت عزيزة وقالت فى جدية شديدة:

- حسن، ادخل حجرتك.

وأطاع حسن، منظر سيد ابن توحيدة، وهو يضم البنت حياة اليه - داخل البيت - أثارها، تمنت لو فعل حسن معها هذا فى حجرة عزيزة.

انتظرته بعد ذلك فى شرفة بيتهم، كانت حياة تقف بجانبها، تعرف كريمة موعد عودته مع والده، من الورشة .

بينما الرجل يسير حاملا حقيبته الصغيرة خلف ظهره، رمت كريمة بمشبك غسيل، فوقع فوق كتف حسن، كاد مشبك الغسيل أن يقع فوق رأس الرجل الكبير.

نظر حسن الى أعلى، فهمت حياة أن كريمة قد أعجبت به، وأنها قبلته حبيبا جديا .



- دنيا ..

هكذا ردد عباس الأعور فى أسى، وهو يمسك كوب البيرة فى الشقة التى يسهر فيها مع أصدقائه الجدد - تجار الورق الدشت - فكلهم كانوا يعملون عنده، كانوا صبيانه، يقفون إذا ما رأوه آتيا نحوهم، وقتها لم يكن يجسر أحدهم على أن يفكر فى مصادقته، أو التباسط معه، الآن يجلسون معه ويسامرونه.

ذلك البدين ذو الوجه المنتفخ، يضع ساقا فوق ساق أمامه رغم قصر ساقه

والصعوبة التي يجدها في ذلك .. لكنه يريد أن يشعر عباس بأنه أصبح معلما مثله. وأنه يبيع للشركة مثلما يبيع عباس .

مات رئيس الشركة الذى كان عباس - مع تاجر آخر - يتعاملان معه، نعم، من سوء حظ عباس مات فجأة، لم يكن عجوزا، كان متفاهما معهما ، لايورد للشركة سواهما، ويدفعان له عشرة جنيهات - عمولة - على كل طن يورد لمخازن الشركة .

كان الرجل يبدأ عمله اليومى بطلب كشوف التوريد من المخازن، ليطمئن على المبلغ الذى سيتقاضاه منهما، وأيضا ليحاسبهما، «فقد كان يأخذ حقه بالكامل، لم يكن يترك حتى القروش القليلة» .

على مدده وضع عباس الطوب والحيوانات الميتة داخل بالات الورق الدشت، وأكدت لجنة الاستلام أن الورق المورد من أحسن الأصناف وأغلاها، وأن البضائع خالية من المواد الغريبة والرطوبة .

من يستطيع الاعتراض، ورئيس الشركة، الذى يتحكم فى مصائرهم، موافق على كل شيء، والذى يعادى هذين الموردين يعاديه هو شخصيا .

كل التجار الذى يجالسون عباس الآن كانوا يأتون ببضاعتهم إليه، أو يورد منها - رأسا - الى الشركة باسمه، ويدفع هو لهم مايريد أن يدفع، سيذهبون والمصنع لايقبل بضاعة إلا من عباس والتاجر الآخر زميله.

لكن ذلك الموت العجيب لعب لعبته وأخذ الرجل من الدنيا، فجاء إلى الشركة رجل غريب الأطوار، لايعرف مصلحته، إنك تقابل فى حياتك الكثيريون أمثال هذا الرجل، الطريق السهل أمامهم، فيتركونه ويختارون الأصعب، فعندما زاره عباس مع التاجر الآخر وعرضا عليه العرض الذى كانا يفعلانه مع رئيس الشركة المتوفى صاح فيهما وغضب وأراد أن يطردهما من مكتبه قال:

- أنتما عندى مثل أى تاجر آخر.

رجل غاوى متاعب .. أيهما أصلح له ، أن يتعامل مع اثنين فقط على استعداد تام لتوريد أية كمية تحتاجها الشركة، أم يقابل كل من هب ودب؟

أيهما أليق ؟ أن يدخل مكتبه اثنان فى ملابس جيدة ونظيفة، أم يفتح مكتبه للحفاة والذين تفوح من ملابسهم رائحة العفن والزبالة .

لكن لله فى خلقه شئون، الرجل أرسل خطابات الى كل تجار الدشت، حتى الذين لايمتلكون مكابس تضغط الورق وتلفه بالشنابر وتحوله الى بالات متماسكة، وحدد موعدا للقاء معه فى مسرح الشركة .. وقال إنه فتح باب التوريد على مصراعيه، كل من لديه كمية يأتى بها ولو فى جونية.

أول مرة يسمع عباس عن توريد الدشت الى شركة كبيرة ومحترمة فى جونية تزن كيلوات قليلة . والورق فيها غير مكدوس فذلك سيعطى الحق للذين يجمعون الورق من الشوارع بأنفسهم، أن يبيعوا للشركة مثلهم مثل التجار الكبار.

فى الاجتماع أخرج الأولاد الحفاة سجائرهم، ودخنوا أمام عباس وأمام التاجر الآخر – زميله – أجل . دون خوف ودون احترام. وأخذوا ينفثون دخانهم فى وجهيهما، وبعضهم دخن الحشيش عينى عينك.

قال التاجر الآخر لعباس بعد الاجتماع:

– العملية عيلت . وظاطت، وأنا لا أستطيع أن أتعامل بهذه الطريقة. لهذا سأنسحب وأترك هذه المهنة .

أجل . هو يستطيع أن يتركها ويرتاح من عجرفة وشذوذ ذلك الرئيس الجديد للشركة، ويرتاح من هؤلاء الأولاد الحفاة العفنين. فقد ارتوى الرجل، اشترى عمارات فى أماكن عديدة من الاسكندرية، وأولاده أسسوا الشركات فى مجالات عديدة، لكن عباس أضاع أمواله فى أشياء فارغة غير ذات قيمة، المرأة الفلاحة التى تجلس أمامه فى دخلة البيت، وهو يتابعها من فوق جونية الورق نصف الممتلئة.

اشترى لها عباس كل مايحتاجه بيتها لسنوات عديدة : السمن الصعيدى كان بالصفيحة المسنكرة التى تكفيها من العام للعام، واللحم والطيور والفاكهة، وكل ملابسها وملابس زوجها وأولادها، ولم يأخذ منها سوى الجلسة التى لم تكشف له فيها إلا عن جزء قليل من فخذيها، وابتسامتها الساحرة من بعيد.

وأضاع الأموال الكثيرة على لاشيء لدرجة أنه أعطى توحيدة أرضا مقابل لقاء جنسى واحد ، تعيش فيها بعد أن بنت فوقها بيتها القائم للآن.

وأولاده ليس لديهم سوى عملهم فى الشونة ودكان الخردة. ولو أغلق الشونة سيبقون فى البيت كأمهم وأختهم كريمة.

ليتهم اتخذوا طريقا آخر، وكان ساعدهم بماله، مثل أولاد التاجر الآخر - زميله - الذى يكتفى الآن بجلسة فى الشمس على قهوة الكريستال التى تطل على البحر المالح . يلعب الطاولة ويتحدث مع زملائه ويضحك، ثم يعود بتاكسى أو سيارة أحد أولاده الى البيت، ويكمل يومه هناك بين أولاده وأحفاده وعباس وحده مع هؤلاء ، ذلك اليابس ذو الوجه المتسع دائما، والذى لم يتغير قط. وكأن الماء والمنظفات جميعها لاتجدى معه، فقد التصقت الأوساخ بوجهه وصارت جزءا منه، ذلك فى أول مرة تسلم فيها شيكا من الشركة، جلس بجواره فى البنك، منتظرا دوره للصرف، وأمسك الشيك وأخذ يهوى به ناظرا اليه فى شماتة يريد أن يقول له «محدش أحسن من حد» أنا أيضا تصرف لى الشيكات، وأتعامل مع البنك مثلك.

اغتنوا بفضل رئيس الشركة الجديد غريب الأطوار، الأموال الكثيرة عرفت طريقها الى ملابسهم جاءه أحدهم قائلا :

- استأجرنا شقة فى «الإبراهيمية» .

- من الذى سيتزوج ؟

ضحك طويلا من بلاهة عباس وصاح :

- إننا نسهر فيها . ونشرب ونـ ...

وألح عليه بأن يأتى لزيارتهم فيها، وهاهو عباس قد لبى النداء وجاء ليعذب نفسه بنفسه .

لكن الحشيش أنساه أساه، ووجه الحاجة الممتلىء، وجسدها الذى يتحرك الآن بصعوبة .

تجلس ولاتريد أن تقوم، تخدمها البنت حياة وهى جالسة فى مكانها.

أكواب البيرة مثلجة. والكباب وباقى أصناف المزة أمامه.

مد عباس يده . أرادوا أن يشعروه بمقدار التحول الذى حدث . فأسرفوا فى شراء الأشياء.

بعد انتهاء الجلسة والسهرة، تبقت كميات كبيرة من المزة، كباب وجبنه رومى، الخ .. فقال عباس :

– أعطوها للبواب .. بدلا من رميها فى الزبالة .

قال ذلك الذى كان يدخل الشونة حافيا، وضربه عباس يوما لأنه كان يضيف الماء على الورق لكى يزيد من وزنه قال :

– لاتعطوه للبواب، لأنه قد يتعود على ذلك .

لايدرى عباس من أين جاءته تلك الحكمة . المهم أنهم رموا كميات كبيرة من الطعام الغالى الثمن فى الزبالة.

(١٥)

توقف التاكسى أمام بيت عباس الأعور، وخرج منه شاب ممتلىء وطويل، يرتدى قبعة ساعده سائق التاكسى فى حمل الهدايا الكثيرة والثقيلة، وضعها أمام باب البيت الحديدى الواسع :

خرجت البنت حياة لترى الخبر، ففوجئت به أمامها قال :

– ساعدينى فى حمل هذه الأشياء.

أسرعت وحملت معه .

– ألا تعرفيننى ؟

لدغته الواضحة كشفت عنه فصاحت :

– على الألدغ .

ابتسم لها وسارا معا .

لم تصدق الحاجة أن على أصبح هكذا ، أما كريمة فضحكت طويلا، منظره بالقبعة يثير الضحك وكأنه مهرج فى سيرك :

– ولماذا القبعة ؟

– زيادة فى الأناقة .

حكى للحاجة ماحدث :

البنت السوداء العاملة التى عمل معها حاملا لحقيبتها، متنقلا بملابسها من حفل الى آخر، أحبته، نعم اكتشفت فيه مواهب دفينة تخفيها تصرفاته اللاهية وعدم اهتمامه بملابسه ومظهره، جسده القوى أغراها كانت تصيح وهى نائمة تحته متلذذة :

– عرفت الكثير والقليل لم أقابل رجلا بفحولتك .

لم يهتم باطرائها، مايشغله أن يجد مكانا يبيت فيه، ولقمة تملأ كرشه المتسع، لكن المرأة كانت أكثر كرما مما يظن، فقد أطلعته على حقيقة عملها الذى تكسب منه أكثر من الرقص، فلديها، مصنع صغير فى «اللبان» لغش النظارات، تختم النظارات العادية بخاتم الماركات العالمية المعروفة والمستوردة والغالية الثمن.

ذهب على معها الى المصنع، قابل الأولاد الكثيرين الذين يطوفون بالنظارات على المقاهى والمحلات .. ولدى العاملة ورشة أخرى لغش الأصواف التى تختم بالماركات الإنجليزية المعروفة . وبمرور الوقت أصبح على هو المسئول عن كل هذه الأعمال .

صاح على فجأة :

– لم أعد أنا على الألدغ .

ضحكت الحاجة، فمازالت طريقته فى الحديث تثير الضحك :

– أجل من يستطيع أن يقول إنك «ألدغ» ؟

– اسمى فى سوق ليبيا «على واتكو» (١).

تنهدت الحاجة فى أسى، الأشياء سرعان ماتتغير، من كان يظن أن على ابن ستيتة والذى لا يعرف أحد اسم والده، سيأتى عليه يوم يجد فيه بنطلونا يستر به نفسه، فإذا به الآن يمتلك الآلاف . وزوجها الذى كان يلعب بالفلوس لعب، يأتى المال اليه بصعوبة، شركة الورق تعيد اليه السيارات المحملة بالبالات، بحجة أنها غير مطابقة للمواصفات .

منذ أن عرض الرشوة على رئيس الشركة والكل يضطهده هناك ترجع السيارات المحملة كما هى، فيخسر ثمن الورق، زائد أجرة الفرز والكبس والتحميل والنقل .

لم يعد زوجها يجلس فوق جونية الورق نصف الممتلئة ليتابع المرأة الفلاحة، والمرأة أيضا لم تعد تجلس فى مكانها ربما لأن الجلسة قد أصابتها بالروماتيزم فى المقعدة، أو أنها كبرت على تلك الجلسة التى لم تعد تليق بها، أو لعلها أحست بأنه لم يعد غنيا كما كان ولاحظت تناقص عدد السيارات التى تأتيه بورق الدشت، وتناقص عدد سيارات النقل التى تحمل البالات الى شركة الورق.

والحاجة أيضا امتنعت عن البحث عن المنجمين والسحرة لتعيد زوجها اليها، فقد عاد إليها، لكن بعد أن فقد كل شىء.

---

(١) اسم ماركة صوف مشهورة

قال على ضاحكا :

– لقد جئت لأدعوكم الى حفل زفافى .

ضحكت كريمة أكثر .

– ومن التى ستتزوجك؟

– توحة الراقصة التى أعمل معها .

★★★

عزم عباس على أن يضع أعصابه فى ثلاجة، وأن يتحمل رئيس الشركة الجديد الذى يعاديه، والذى يعيد ورق الدشت الذى يورده للشركة دون باقى الموردين.

تجربة عباس فى التعامل مع الشركة طويلة، بدأها من الصفر، منذ أن كان يضع جوانى الورق فى الخرابة . وتطور الى أن أصبح أكبر تاجر ورق دشت فى الإسكندرية .

يعرف عباس أن كل رئيس شركة جديد يعادى المقربين من الرئيس السابق له، وذلك الرجل كان فى الشركة أيام الرئيس السابق، ويعرف العلاقة التى بينه وبين الرئيس الذى مات .

لم يقصد عباس أن يتطور الخلاف، ويميل الى حد الشجار، لكن ذلك كله حدث، ولايدرى كيف حدث .

الذى يذكره جيدا أن رئيس الشركة صاح وضرب زجاج مكتبه فى عنف قائلا:

– أخرج من مكتبى .

أفاق عباس . بعد أن وصلت الأمور الى حد لم يكن يتمنى أن تصل اليه، فالشركة هى الوحيدة – الآن – التى تشترى الدشت، وبدونها لن يكون تاجرا، ولن يكسب شيئا .

خرج عباس دون قول، ورئيس الشركة يرتعش من الغيظ .

فى اليوم التالى أبلغه أحد الموظفين الذى يتعاملون معه، ويبلغونه بما يحدث أولا بأول، أن رئيس الشركة قد أصدر أوامره بعدم التعامل معه نهائيا .. ذلك

معناه أن يبيع عباس للتجار الآخرين الذين يتعاملون مع الشركة، ويبيع هو لهم، ويدفعون له بالسعر الذى يحددونه، وأن ينتظر فى ذل إلى أن يتعطفوا ويدفعوا له ، وإن لم يعجبه يضرب دماغه فى الحيط .

جاءه ذلك الخبر وهو فى شونته بشارع ٨ فنادى على ابنه صابر قائلا:

– اهتم بالأمور هنا، فسوف أعود إلى البيت .

أحس بتعب فى جسده كله . وعاد الى البيت وسط دهشة الحاجة ودهشة كريمة ابنته ودهشة حياة الخادمة فهولا يعود الا مساء، حتى فى المناسبات المهمة يعود متأخرا أيضا .

جلس عباس فى الفراندة وأخذ يدخن فى شراهة، مهما حدث فلن يبيع ورقة واحدة لهؤاء الأولاد العفنين يكفى مايلاقيه من شماتة لأنهم أصبحوا مثله «يبيعون للشركة» ويحصلون على شيكات يصرفونها من البنك أجل ، سيخزن ورقه فى الشونة الى أن يحين الوقت المناسب لبيعه، فقد يموت ذلك المدير السيىء كما مات الرئيس السابق – صديقه – أو أن ينقل الى شركة أخرى، أو تحدث أشياء جديدة تغير الأوضاع، أو – بالأصح – تعيدها الى ما كانت عليه.

عباس لديه من المال مايكفيه لشراء البضاعة من عملائه وتخزينها، لكن لو طالت المدة ماذا سيفعل ؟ كما أن المشكلة ليست فى النقود، إنما الأهم هو الدكان الذى سيخزن فيه بضاعته، ولابد أن يكون مكانا أمينا، فالورق عندما تشتد عليه حرارة الشمس يتحمص من لهيبها ويسهل عليه الاشتعال .

رمى عباس سيجارته نحو حارة نعمان زافرا .

ليس مهما فلديه بيوت عديدة فى غربال، يبيع وينفق الى أن تنقشع الغمامة وتزول الغمة، ويبحث عن مخازن أخرى أكثر أمنا .

(١٦)

الاجازة قصيرة تقاس بالساعات لا بالأيام، وسوف يسافر فى الغد ، قالت أمه:

– مالك ياعوض أنت مريض .

– لا . لكن حزين لأننى عائد الى الجيش .

دست أمه فى يده مبلغا من المال :

– قد جاءت توحيدة، وأوصتنى أن أعطيه لك.

– لماذا؟

– تقول إنك مثل ابنها .

كله إلا توحيدة لقد كانت تعاديه وتحرض نساء الحارة ضده، خوفا من أن يفسد ابنها سيد، فما الذى غيرها هكذا؟

– لا أريد منها نقودا .

قالت أمه مبتسمة :

– خذها ياعوض أنت فى حاجة اليها .

– لكنها توحيدة .

– المرأة غيرت معاملتها معك ومعنا، ربما تريد أن تزوجك ابنتها.

– فال الله ولافالك .

الزينة ؟ ياه . إنها لاتحبه. يعرف هو هذا جيدا من تصرفاتها معه منذ أن كانا طفلين، وهو يمقتها .. عندما يراها فى الطريق يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم دون أن يحس .

لا . أمه فكرها راح لبعيد جدا.

★★★

قبل أن يقوم بإجازته بأيام قلائل، صفعة الجاويش فى عنف حتى بكى، حاول عوض أن يتماسك فلم يستطع، ضربه هكذا دون سبب، فقد استعدوا للذهاب الى منطقة «ضرب النار» لاجراء التمرين هناك .

في كل مرة يذهبون فيها يحمل جندى مقعد للجاويش وآخر يرفع المائدة الصغيرة على كتفه، وآخر يمسك الشمسية التى تقى الجاويش الشمس.

عندما قال الجاويش : «شيلوا الحاجة» أسرع الكل إليها فى حماس شديد محاولا نيل شرف حملها، لكن عوض لم يتحرك، من سوء حظه لمحه الجاويش، فقد كان قريبا منه، فساءه إلا يهتم بأشيائه مثل سائر الجنود، وألا يتهافت على حملها تبركا. فصفعه قائلا :

– تستكبر على حمل أمتعتى وأشيائى؟

الصفعة كانت شديدة، كادت تسيل الدم من أنفه، وأقسم الجاويش – يومها – أن يحمل عوض المائدة وحده، وهى أثقل الأشياء التى ستنقل الى أرض «ضرب النار» وعادة يحملها جنديان معا ..

حمل عوض المائدة وسار بها صامتا والدموع تتساقط على وجهه.

سار الشاويش منتصرا فرحا لأنه أذله.

فى «أرض اطلاق النار» جلس الجاويش أمام المائدة، وتحت الشمسية، والطابور أمامه.

ذلك الجاويش غاية فى النحافة، يقول إن ذلك نتيجة لمغامرة عاطفية، فقد كان فى الماضى ممتلىء الجسم قويا، كان يحمل جبلا لو أراد، والنسوة يتنافسن من أجله، لكن إحداهن أحبته بجنون، ولأنها أجمل من الآخريات فقد فضلها عليهن جميعا، واستجاب لحبها، كانت تغار عليه من الهواء الطلق الذى يمس وجهه.

وهو أغرته صحته غير العادية وقوته، فلم يرد امرأة أو فتاة أرادته، فضاقت المرأة به، وزاد غيظها .. فوضعت له نقطة من دم حيضها فى الحساء الذى أعدته له من يومها وهو فى النازل وكل يوم يزداد نحافة وخابت معه كل الوصفات وكل العقاقير الطبية .

وعندما أخبر أحد الأطباء بالحقيقة قال له :

– دم الحيض الفاسد تخلل كل خلايا جسمك، وركن داخل العظام، ولن تجدى معك العقاقير كلها .

اطلق الجنود الطلقات قاصدين الهدف، كان عوض أكثرهم تسديدا، «هكذا اشتهر في المعسكر» عند العودة لم يقترب أحد من المائدة الثقيلة،فالكل يعرف أنها من نصيب عوض، واكتفى الجاويش بنظرة تحد. تأبطها بعدها عوض وسار بها.

★★★

كان لابد من الزواج بالزينة . حقيقة هو أمر غريب لمن يعرف أن الزينة كانت ترميه بالطوب وتسبه لكى يبتعد عن أخيها سيد كى لايفسده بعد أن تأكدوا من خبر القبض عليه وإيداعه المؤسسة الاجتماعية، لكن قد تزول الدهشة ويصبح الأمر عاديا إذا ماتتبعنا ماحدث بدقة، فعوض لاتكفيه ماهية الجيش لأيام قلائل، وقد تنفد أحيانا بعد سهرة واحدة فى قهوة أو سينما.

وعجبة لم تعد تجد من يقرضها لكى تعطيه ، وتوحيدة نقودها كثيرة من بيع الدخان الذى تشتريه من زبالى الحى ، فتعطى أمه مبلغا من المال كل مرة يأتى فيها عوض اجازة، المبلغ كبير يكفى مصاريفه ، وتنفق عجبة منه على البيت.

أحس عوض بما تريده توحيدة فى كل مرة يذهب فيها الى بيتهم تحكى له قصصا مختلفة. الزينة لديها ذهب يصل إلى ألف جنيه وربما يزيد . يابخت من سيتزوجها ولديها ملابس وأطقم للسرير وأشياء أخرى كثيرة، تتحدى أى فتاة فى غريال تمتلك مثلها، وأن الخاطبين يأتون تباعا، لكن البنت لاتريدهم ، قلبها مشغول بواحد فقط جعله الله من نصيبها.

لكن البنت الزينة كما هى، عندما يزورهم تعرض عنه وتبتعد، سمع بأذنيه توحيدة وهى تلح عليها بأن تذهب لتغتسل وتغير ملابسها المتسخة هذه، كل ذلك لم يكن يعنيه فى شىء فهو لايحبها ولايريدها كل مايريده نقود أمها، لكى تستر حياته وحياة أمه .

يعود عوض الى بيته، يبتسم فى سخرية مما يحدث يقابله وجه عجبة المبتسم

دائما، والبنت زينب التى كبرت الآن، وعادت الى ارتداء الملابس المطلخة الألوان، والتى تشتريها لها أمها بالكيلو من «الساعة» بجوار عمود السوارى.

البنت انكسرت نفسها .. ووالده يعمل على قدر جهده، يعود بأموال قليلة لاتكفى، تحدثه أمه وهى تبتسم رغم الأسى:

– أحضر لك العشاء ؟

– تناولته مع سيد ابن توحيدة .

– تغيرت توحيدة فى معاملتها كثيرا .

يندس بجسده كله تحت الغطاء، لايريد أن ترى أمه جزءا من وجهه، كى لاتحدثه فهو يعرف أنها تمهد للوصول الى ماتريد، الزواج من الزينة هو الحل.

★★★

استيقظت الحارة فى ذلك اليوم قبل موعدها فقد جاء واحد من شارع ٨ صائحا فى عباس الأعور وهو يقف على أرض حارة نعمان : «الورق الموجود فى الشونة اشتعل» .

خرج عباس بقفطانه الذى ينام به وأسرع أولاده خلفه والعديد من أهل الحارة، أسرعوا الى مكان الشونة بآلات الورق المتراصة فوق بعضها البعض والتى تشبه عمارة عالية، يتصاعد منها النار. الداخل الى شارع ٨ من أوله – يستطيع أن يرى النار بوضوح، رغم أن الشونة فى آخره، من ناحية شارع النيل.

القطط والكلاب والعرس التى تتخذ البالات مأوى لها، أسرعت مذعورة وسط النار، بعضها كان مشتعلا مما وزع النيران فى أماكن أخرى بعيدة.

ضجت البيوت المجاورة للشونة، وعباس الأعور ليس لديه حل . شركة الورق ورئيسها رأسه وألف سيف ألا يقبل منه ورقة واحدة، وكرامة عباس لاتسمح له بأن يبيعه لتجار كانوا يستجدونه وينتظرون منه إحسانا .. الشمس تنقع طوال الوقت والأيام فى بالات الورق حتى حمصته وأحالته الى تراب قابل للاشتعال. حذرة أحد الجيران – الظاهر أنه على علم بهذه الأشياء – من أن الورق قد يشتعل فجأة،

ودون كبريت أو أى مادة مشتعلة، فالشمس الحامية كفيلة بأن تتفاعل مع الورق الجاف وتشعله .

لم يصدق عباس وقتذاك، ولم يتحرك، فهو ليس لديه مكان يضع فيه بالات الورق، ولو حرق بعضه سيريحه من عناء التخزين.

وقد تحققت نبوءة الرجل، واحترق الورق دون كبريت، أو عقب سيجارة . أو أى مادة أخرى مساعدة . أخذ الجيران يرمون النار بالماء، من فوق الأسطح ومن الشرفات . وحل الذعر بينهم . فقد تشتد النيران وتصل الى بيوتهم فى لحظات .

ووقفت الحاجة بعباءتها السوداء وقامتها الكبيرة . وسط الشارع، وكريمة روالبنت حياة بجانبها كثيرا ماطلبت الحاجة من عباس أن يحنى رأسه قليلا، وأن يذهب الى المدير الذى يعاديه ويستسمحه ويعتذر إليه، فقد يصفو الرجل ويلين، أو يتنازل ويبيع ورقه للتجار الذين يتعاملون مع الشركة رأسا، لكن الرجل أصر على موقفه حتى احترق الورق، ولم ينتفع به أحد، هذا غير الفضيحة، والمشاكل مع الجيران والبوليس .

تقف المرأة الفلاحة التى أنفق عباس عليها الكثير - أمام باب بيتها تضحك وتشير إلى النيران وتتحدث وعندما صاح أحد الجيران فى عباس مهدداً بأنه سيبلغ الحكومة لكى تزيل هذه الشونة من وسط المساكن، أيدته المرأة وقالت:

- زوجى فى البوليس ، وسيتخذ جميع الإجراءات لغلق الشونة.

نسيت المرأة كل ماقدمه عباس اليها .

حين جاءت عربة المطافى كانت النيران قد أتت على كل بالات الورق، والقليل المتبقى منها فسد من أثر النيران والماء الكثير .

وعاد عباس وحده، فلابد أن يكمل ارتداء ملابسه . ليدلى بأقواله فى قسم شرطة كرموز التابعة له الشونة.

(١٧)

بعد زواج عوض من الزينة، انتقل إلى شقة فى غيط الصعيدى شقة واسعة من أربع حجرات، وأثاث لم يكن يحلم بأن يمتلك جزءا منه.

نام عوض فوق السرير ذى الثلاث مراتب. أحس بأنه يغوص داخل القطن. والزينة متزينة بشكل مغالى فيه. وذراعها الرفيعتان السوداوان يطلان من خلال غلالة هفهافة حمراء تلبسها.

تتفاعل المرأة معه جنسيا ولا ترده، لكنها فى غير ذلك تكاد تخاصمه :

ظن أول الأمر أنها تخجل منه. فكثيرا ما تحدث مثل هذه المواقف فى أيام الزواج الأولى. لكن الزينة ظلت كما هِى . لا تبدأ الحديث معه ألا نادرا . وإذا ما حدثها تجيبه فى اقتضاب. وفى ضيق وملل ولا يذكر أنها نادته باسمه قط. توجه إليه الحديث دون أن تذكر اسمه . وإذا ما ذكرته امام أحد تعنيه بكلمة «هو».

حتى العلاقة الجنسية بينهما فاترة بعد أيام قلائل. وتقدم - هى - عليها بحماس أقل: كان يسير في الحارة ذاهبا إلى بيت أمه. وهو مرتد بيجامته البيضاء التى اشترتها له توحيدة ينظر سكان الحارة إليه ويتهامسون. يبتسم هو للاشىء . فهو يعرفها يدور فى رءوسهم . يقصدون أنه تزوج وربح من مسألة الزواج: شقة تدفع توحيدة إيجارها . وملابس وأثاثاً فاخراً . وربما لو أراد نقودا ستعطيه .

عجبة أمه فرحة لزواجه هذا . لكن والده ينظر إليه فى أسى. وعندما رآه – هذه المرة – آتيا ببيجامته البيضاء، حمل الرجل حذاءه. لبسه خارج الحجرة حتى لا يسمع ما تقوله امرأته لابنها.

★★★

تحدث عوض مع توحيدة علي انفراد :

– لن أظل هكذا إلى آخر العمر. أريد أن أعتمد على نفسى.

– ومن اشتكى لك ؟!

– أريد أن تساعدينى كى أبيع واشترى .

– والشركة التى تعمل بها ؟

– سأبيع للعمال هناك.

– وما الذى تريده منى ؟

– رأس المال، سلفة وسأردها لك .

مصمصت توحيدة شفتيها . ظنته – أول الأمر – يرفض مساعدتها له ولابنتها. فاذ به يريد المزيد يريد مساعدتها للبيت . والمال أيضا.

لكن توحيدة وافقت، فهو لديه فكرة عن التجارة منذ أن كان يعمل مع والده فى بيع الفاكهة والأشياء المستعملة التى كان يشتريها أبوه من سوق العطارين.

كل شىء يباع في الشركة العمال بالآلاف فى حاجة إلى ملابس لهم ولأسرهم: بنطلونات وقمصان وأقمشة وأحذية. والدفع عند قبض المدة، مرتين فى الشهر.

لم تهتم الزينة بذلك . فهى لم تحضر الصفقة التى تمت بين زوجها وأمها. ولا تعرف عنها شيئا كل ما تعرفه أنه عوض يدخل ببضائع كثيرة ويخرج بها وقت ذهابه للمصنع ويملأ بالأشياء الكنبات والأرض تتقابل الزينة مع هذه الأشياء بضيق، تحس بالاختناق، تنظر إليه فى احتقار. وتندس تحت الغطاء لاعنة اليوم الذى وافقت فيه أمها على الزواج منه.

اهتمت توحيدة بعد ذلك بتجارة عوض. فهى ظنت الولد يريد أن يبتزها. وعندما رأت البضائع. قالت نزوة وستزول، وسيعود كما كان. لكن البضاعة اتسعت وكثرت الأموال فى يديه.. وبعد أن بنت توحيدة له لوزوجته شقة فى بيتها، خصصت حجرة فى الدور الأرضى لبضائعه التى يتاجر فيها.

توحيدة هى الوحيدة التى تهتم به. سيد ابنها غير راضٍ عن أفعال أمه. كيف تعطى أموالها لذلك الغريب . وابنتها – التى هى فى نفس الوقت زوجة عوض – غير راضية أيضا. وتردد من وقت لآخر :

– خسارة فى جنته .

وزوج توحيدة ليس له دور في البيت . وليس له الحق فى أن يبدى رأيه لها بالقبول ولا بالرفض.

★ ★ ★

قال عوض لتوحيدة :

– العمال كثيرون جدا. وفى حاجة إلى أحذية كثيرة. لو أجد مكانا لاشتريت مكبسا وصنعت الأحذية هنا في البيت .

– تعرف صناعة الأحذية ؟

– أنها ليست صنعة . المهم المكان.

– ألا تصلح هذه الحجرة ؟

– لا . أريد دكانا مستقلا .

ظلت توحيدة مهمومة بأمر الدكان الذى يصلح لوضع مكبس الأحذية. وأيضا، ليخزن فيه بضاعته ويتقابل فيه مع عملائه.

كل الدكاكين فى الحارة مسكونة، ولا يمكن أن يتخلى سكانها عنها. فالكل مستقر ومرتاح فى مكانه لا تدرى توحيدة ما الذى ذكرها بعباس الأعور، الرجل لم يعد يذهب إلى شونته فى شارع ٨ منذ شب الحريق فى ورقه.

يقولون إنه لم يعد يتاجر فى ورق الدشت، ولا فى أى شىء آخر. بيوته الكثيرة تتناقص . يبيعها بيتا بيتا برخص التراب. ليحافظ على المستوى الذى يعيش فيه هو وأسرته . خاصة الحاجة التى اعتادت أن تظهر – أمام نساء الحارة – بالعظمة والكبرياء. وأن تقف المحتاجات صفا واحدا أمام باب البيت فتعطى كل واحدة مبلغا من المال. هذا غير الطعام الذى تلقيه فى الزبالة كما هو. حتى يحكى الزبال (وهو واحد من أهل الحى) عما يلاقيه فى الزبالة.

والبنت كريمة التى اعتادت على ارتداء ملابس لا ترتديها واحدة في الحى، ماذا تفعل الآن وحالة أبيها فى النازل يوما بعد يوم.

ماذا لو أخذت ، توحيدة جزءا من حديقة بيتهم الكبيرة وحولتها إلى دكان لعوض.

الحديقة مهملة الآن. وأصبحت عبئا على البيت. مملوءة بالزبالة والذباب والحشرات الأخرى.

لكن عباساً سيعارض. فهو منذ أن أخذت أرضه وبنت عليها بيتها وهو يتعامل معها بحذر.

وعندما أرادت أن تشترى بيتا من بيوته الكثيرة – التى يبيعها لكل من هب ودب – عارض ذلك . وقال:

– كله إلا أنت ، فأنا مازلت متذكراً أرضى التى أخذتيها منى دون شيء.

لم تيأس توحيدة. فقد تعلمت أن تحقق ما تريده، مهما كلفها هذا. ليس أمامها الان سوى الحاجة ستحدثها. وتبعد لها وتقرب لها الأمور حتى توافق.

(١٨)

بدأت عملية إزالة الحشائش، وخلع الشجيرات من حديقة عباس الأعور استعدادا لعمل دكان بجوار الباب الحديدى ليتخذ، عوض مخزنا لبضاعته التى اتسعت.

وقفت كريمة فى الشرفة تبكى. فبعد أن كانت تطل من الشرفة على الحديقة. سترى بعد ذلك دكان عوض أمامها، وسيواجهها بوجهه الذى لم تعد تستطيع احتماله. لا تدرى كيف احتملته فى الأيام السابقة.

وتوحيدة تجلس فوق مقعد من مقاعد قهوة أبو دومة، تشرف على عملية نقل طين الحديقة إلى سيارة نقل كبيرة. وعوض يقف بجوارها يحدثها.

تعرف توحيدة أن الأسرة بحالها غير راضية عن مساعدتها لعوض هكذا. لكن توحيدة مقتنعة بما تفعل.

عندما طلب عوض منها بعض المال ليتاجر فى الملابس مع العاملين فى الشركة بالتقسيط . خافت من أن يأخذ المبلغ وينفقه على لاشىء. لكنها قالت لنفسها: ليس مهما . هى مرة وإن طلب مرة ثانية لن تعطيه. لكن الولد خيب ظنها. فتوسع فى تجارته فى مدة محدودة. ودت توحيدة لو كان ذلك هو سيد ابنها.. ولقد حاولت كثيرا مع ابنها دون طائل. سيد يضيع وقته مع الولد سعد الذى مازال يدرس فى المدرسة يتابعان النسوة والبنات «فوق الجبل» ويتحدثان عنهن فى نشوة.

★★★

بكت الحاجة فى الداخل. عندما رأت ابنتها كريمة تبكى، صاحت الحاجة فيها:

– ما الذى يبكيك. كل البيوت حولنا فيها دكاكين. كما أن الحديقة أهملت فى الفترة الأخيرة وامتلأت بالحشرات والحيوانات الضالة.

أما عباس فقد جلس فوق سريره يدخن فى عصبية. ويزوم من وقت لآخر فى أسى .

شرد طويلا فيما حدث له طوال حياته، منذ أن جاء حافيا إلى قريبه مرسى

العربجى.. وجمع الورق وباعه.. وتزوج ستيته العمياء وسرق نقودها التى مازال يعيش من خيرها . فقد تاجر بها حتى اغتنى . قابلته توحيدة وقتذاك. أخذت شونته التى بدأ بها حياته. وكانت قدم السعد عليه. كانت أول أرض يمتلكها فى حياته ولذلك لم يستطع نسيانها.

ومازالت توحيدة تطارده. ها هى قد أخذت جزءا من بيته الذى ينام فيه. والذى كان كالسراية . كأن نجمة فى السماء مرتبطة بتوحيدة.

ألحت الحاجة عليه بأن هذا هو الحل للخروج من الأزمة المالية التى يمر بها. ستدفع توحيدة مبلغا لا بأس به. هذا غير إيجار سيدفعه زوج ابنتها أول كل شهر.

زبائن عباس الذين كانوا يبيعون له الورق، تبادعوا عنه . يتعاملون – الآن – مع تجار غيره. وهو أنتهت صلته بتجارة ورق الدشت. مثل زميله التاجر الآخر الذى يقضى وقته في قهوة الكريستال أمام كورنيش البحر. يلعب الطاولة حتى الظهر. ثم يعود إلى أسرته ، يجالسهم.

زميله هذا ابتعد عن هذه المهنة باختياره. وليس مضطرا مثله. ابتعد عنها بعد أن استعد لها.

المشكلة التى تطارد عباس الآن هى على الآلدغ. أجل على الألدغ الذى أصبح قريبا من عباس يزوره كثيرا . يدخل بيته ويجالسه . بل وتكون له جمائل عليه. فيكثر من تقديم الهدايا بعد أن أحس أن عباس لم يعد يمتلك شيئا. المشكلة أن على هذا كلما ازداد بدانة، ازداد شبهاً بأمه. فلو أغمض عينيه مثلما كانت هى، لصار صورة مطابقة لها. وذلك يعذب عباس . فستيتة تتحرك أمامه كلما رأى على يتحرك. والذى يعذب عباس أكثر أن الحاجة تفكر فيما يفكر فيه عباس. فقد لمحت له بذلك. قالت له في وقت ثورتها عليه : إنه عملك . جاء ليطاردك.

★★★

حلم من أحلام عوض يتحقق أمامه. طالما تمناه وهو يسير مع أبيه يجر حذاءه

حاملا طابق المانجو وقتها كان يود لو امتلك دكانا. تقف فيه عجبة، تمسك «المنشة» الخوص تهش بها الذباب من على الفاكهة، وتقف أخته زينب أمام أقفاص الفاكهة.

قال لوالده :

– تعال يا أبى لترى دكانى. البنائون يعملون فيه . إنه دكانك قبل أن يكون دكانى .

لكن والده دفعه عنه . وسار بعيدا .

فى الجيش كان معظم الشاويشية المتطوعون يعملون أعمالا أخرى خارج الجيش. أحدهم يتاجر فى السمن والجبنة والبيض. وأحدهم يمتلك مصبغة كبيرة فى بلده يديرها شقيقه. والجاويش الشديد النحافة الذى وضعت له المرأة نقطة من دم حيضها فى الحساء يمتلك مصنعا للبلاط فى بلده.

كان يتحدث عن ذلك كثيرا . وهو «يوقفهم» «داخلية». سيقانهم تتجمد من طول الوقفة وهو يتحدث عن غناه. وأنه ليس فى حاجة إلى راتب الجيش. مصنع البلاط يدر عليه دخلا كبيرا . لكنهم – فى الجيش – لا يريدون تركه. ولابد له أن يكمل المدة التى اتفق عليها معهم أول ما جاء متطوعا .

وقتها كان عوض يحلم بأن يصبح مثله. وظل وجه ذلك الشاويش اليابس يطارده. كان يراه دائما قبل أن ينام على كنبة عجبة. وذراعه خلف ظهره فى كبرياء. وحديثه عن مصنع البلاط يطن فى أذنى عوض.

لماذا لا يمتلك شيئا مثل ذلك الشاويش؟.. أسيمر من هذه الدنيا دون شىء مثلما مر والده ؟

إنه الآن يود لو قابل ذلك الشاويش. هو حقا أساء معاملته فى الجيش. لكنه أفاده. جعله يفكر فى الغنى مثله. لذا، عوض لا يضمر له شرا . كل ما يريده منه الآن أن يلقاه ليجالسه. يحكى له عن أحلامه عن تضحيته بزواجه من الزينة غير الجميلة والتى لا يحبها ولا هى تحبه. وذلك من أجل المال. ومن أجل أن ينقذ أسرته من الجوع.

يعرف ذلك الشاويش ما حدث له. وإلى أين وصل بمصنع البلاط الذى يمتلكه.

فكر عــوض مــرة فى أن يذهب إلي البلدة. يســأل هناك عن الشــاويش المصوص، التى وضعت له عشيقته دم الحيض فى حسائها. سيعرفونه هناك بلا شك . فالكل يعرف حكايته تلك.

لكن عوض خاف من أن يجده قد مات من أثر فعلة عشيقته. أو إذا ما وجده. يسيء الرجل معاملته.

وأحس عوض – بعد ذلك – أن تلك الرغبة كانت نزوة مجنونة من نزواته.

من كان يصدق أن يصبح عوض غنيا هكذا. يمتلك دكانا ممتلئا بالبضائع: ملابس جاهزة وأحذية وأطقم أسرة، وسجاجيد ونجف.. إلخ.

هى أموال توحيدة حقا ، لكنه يحسن استغلالها، هو لم يسرقها.. ولن تغضب عليه كما غضبت عشيقة الشاويش عليه، والحمد لله، فقد تعددت توحيدة السن التى يمكن أن تحيض فيه.

وأحس عوض بقشعريرة فى جسده . فالزينة ممكن أن تفعلها ، أجل، لكنها لا تعرف قدرة هذه النقطة على الايذاء، وإلا كانت فعلتها.

لقد انشغل عوض عن سيد صهره الآن، وعن سعد صديقه القديم. وعندما جاءا إليه فى الدكان لتهنئته لم يطردهما. وإن كان يود ذلك قابلهما فى ترحاب وأهلا وسهلا . لكنه انشغل عنهما قام إلى عماله الذين يطوفون ببضاعته على المقاهى والدكاكين والمنازل. وانشغل بحساباته الكثيرة. حتى أحسا بالضيق وبأنه قد تغير. ولم يعد يصلح لوقفة «فوق الجبل» والحديث فى السياسة ومتابعة النسوة هناك.

أموال عوض كثيرة الآن ، فلم ينس أمه وأخوله. كان يدخل عليهم قبل أن يدخل بيته.

– الأموال كثيرة يا أم عوض . خذى منها ما تشائين.

ويردد أبوه من فوق كنبته المفضلة :

– بل هى أموال امرأتك .

لا أحد يحفل بما يقول، وكأنه لم يقل شيئا . كأنه قال هذيان . فيكمل عوض حديثه مع أمه السعيدة بما حققه ابنها من نجاح.

★★★

ذهب عوض إلى سوق ليبيا فى المنشية. حيث تباع البضائع المستوردة: ملابس وأجهزة منزلية وأدوات زينة. حتى الأدوية المستوردة تباع هناك.

بعض عمال شركة الغزل التى يعمل عوض بها يريدون راديوهات صغيرة، ومكاوى كهربائية وخلاطات.. إلخ هو لم يسبق له التعامل فى هذه الأشياء . ولا يعرف أسعارها ولا طريقة بيعها. فقرر أن يسير فى السوق ويأخذ فكرة .

بينما هو سائر وسط الأزقة الضيقة الملتوية ، قابله على الألدغ ببذلته الأنيقة. لم يعرفه عوض أول الأمر لكن عليها عرفه. فشده من ملابسه:

– ولد ياعوض،

وأسرع إليه. ضمه لصدره فرحا:

– على . ماذا تفعل هنا ؟

– أننى أمتلك محلا قريبا من هنا .

دهش عوض . فكيف استطاع أن يصل إلى هذا بسرعة. فالمحلات فى سوق ليبيا تدفع فيها مبالغ كبيرة جدا خلو رجل.

– ملكك المحل، أم ملك توحة زوجتك ؟

شده على فى عنف :

– لابد أن تأتى معى لتشرب القهوة وسأحكى لك كل شىء.

سار عوض معه. وضع على ذراعه الثقيل والممتلىء فوق كتفيه النحيلتين:

– زوجتى توحة أعطتنى أول الخيط. وأنا أكملت .

الدكان ممتلىء بالملابس الكثيرة. وخارجه صفوفا من الأجهزة الكهربائية.

– كل هذه الأشياء ملكك ؟

– وأنت ياعوض . ماذا تفعل ؟

– فى شركة الغزل. أبيع وأشترى هناك.

– لذا ، فتحت دكانك فى بيت عباس الأعور .؟

عمال على كثيرون. يتحركون دون أن يستأذنوه فى شىء. فهم يعرفون ما يفعلون . قدم أحدهم زجاجة مرطبات إلى عوض. قال على :

– إذا ما احتجت لشىء، أنا ودكانى فى الخدمة . أنت حبيبى منذ كنا أطفالا.

أمسكت يد عوض بزجاجة المرطبات. لقد اختارت العالمة على الألدغ. أعجبت بجسده الحيوانى القوى وأدخلته عالم التزييف: النظارات والأصواف فتحول بعد ذلك إلى تاجر كبير فى سوق ليبيا .

حقق ما شاء عن طريق توحة العالمة.

وأنت ياعوض مثله. اخترت الطريق الصعب. الزينة ابنة توحيدة التى ظن الناس كلهم فى الحارة أنها لن تجد لها زوجا. لدمامتها ولسمعة أمها السيئة.

أجل. أنت أعطيت أكثر ما أعطى على الألدغ. على الأقل توحة أحبته. أو – على الأقل – أعجبت برجولته لكل الزينة لم تحبك. ولن تحبك.

ليس مهما . المهم أنه بعد الزواج بأيام قليلة جمع عوض ملابس كثيرة كانت تمتلكها زوجته. وكانت ترتديها قبل الزواج . سألها :

– أتريدين هذه الملابس ؟

– لا .

– يمكن أن أعطيها لأخواتى البنات ؟

مطت شفيتها . فالأمر لا يعنيها فى شىء. فهى لن ترتديها ثانية. وقد ترميها . أو تعطيها للزبال فرحت البنت زينب المسكينة، قد كبرت وصارت فى مقتبل العمر، ولابد أن تلبس مثل سائر البنات.

قال عوض لعلى الألدغ :

– هل تأتى توحة إلى هنا ؟

– هى لم تعد تعمل شيئا. لا الرقص ولا غيره.

– لماذا ؟

– أرادت أن تلحق بآخر عربية فى القطار. لحقت نفسها قبل أن تحرم من الخلفة. أنجبت ولدا وبنتا .. وتفرغت – الآن – لتربيتهما.

– أنجبت ياعلى ؟!

ضحك طويلا :

– ما الغريب فى ذلك، الحمار يمكنه أن ينجب .

ثم ضحك ثانية حتى سعل، ثم أكمل فى هدوء .

– أننى لا أهتم بشىء فى البيت ، هى تقوم بكل الأشياء. أحيانا لا أرى الولد ولا البنت لأيام عديدة.

حمل عوض لوازمه التى اشتراها على له . صاح على فى عامله:

– اهتم به . اقض حاجته حتى لو لم أكن موجودا أنه عشرة عمر .

(١٩)

تابعت «توحيدة» الولد سعد وهو يصعد السلالم إلى شقة الزينة مساء كاللصوص .

دهشت لأنه يصعد إليها دون أن يمر عليها - كعادته - تصرفاته تلك جعلتها ترتاب فيه . ما الذى جاء به فى ذلك الوقت المتأخر ، وزوج الزينة فى عمله بوردية الليل ؟! أيكون بينه وبين الزينة شئ ؟

ضربت توحيدة على صدرها فزعة . ماذا ؟ أتتكرر المأساة ثانية ؟ أو كما يقولون «تطلع البنت لأمها» .

لقد عانت توحيدة من عشقها لحسان - شقيق زوجها - وخرجت من المسألة دون أن تجنى سوى الحسرة والأسى : هى الآن تلعن فى نفسها زوجها وشقيقه وكل عائلته . لم تأخذ منهم سوى الندم على ما فات . لو أعطت ما أعطته لحسان من حب واهتمام ، إلى رجل يقدرها ويعطيها بقدر ما أعطته ، لصارت الآن أكثر ثراء . لكنها أخطأت ، ولم تصب الطريق السليم .

صعد الولد إليها مساء . أيكون ......

لا حول ولا قوة إلا بالله . هى أحبت حقا . لكنها لم تخطئ مع حسان .

إن بعض الظن إثم . أيكون الولد سعد قد صعد إليها من أجل سبب آخر بعيد عن العشق ؟ ربما لكن ، مادام الطريق مستقيما ، فلماذا يتحرك فيه وكأنه جاء ليسرق ؟

فتحت توحيدة باب حجرتها . ستصعد إليها لترى بنفسها ما يحدث وتتأكد . لو كان بينهما شئ . سيظهر على وجهيهما . سيبين . وستعرفه توحيدة من أول وهلة .

لكن البنت الزينة عنيدة . وقد يعلو صوتها وتفضح - البنت - نفسها . ويعرف الناس المستور .

أجل . فى الغد ستحدثها عن خطورة هذا . ستلفت نظرها .

سيد - ابنها - فى الجيش الآن . لو علم بهذا ستكون مشكلة . فسعد أقرب

أصدقاء ابنها سيد إليه، زفرت توحيدة فى ضيق . زوجها ينام مع فانلاته التى يطوف بها على المقاهى والدكاكين . ينام فى الحجرة البعيدة . الرجل - الآن - يؤثر السلامة . فيبتعد عن توحيدة . وينام وحده . هى لم تطرده . ولن تطرده إنما تصرفاتها معه تعنى أنها لا تريده لها زوجا . والرجل أدرك هذا ، وتعامل معها على أساسه .

لقد قبلت توحيدة . أن يتزوج عوض من ابنتها على مضض . وذلك عندما ضاقت بها السبل مع كل من رشحتهم للزواج منها . لم يتبق لها سواه .

ابعدت هذه الفكرة عن رأسها أول الأمر وذلك الخاطر السخيف . لأن عوضا ليس وسيما . والبنت دائمة السخرية من شكله . لكن بعد أن عرفته توحيدة وعاملته ، أحست وأيقنت ويمكن أن تبصم بالعشرة أنه خير من سعد الذى تحبه ابنتها . ومن كل الذين رشحتهم للزواج من ابنتها . فهو رزين عاقل يعطى لبيته كل اهتمامه . ولا يضيع وقته فى العشق الذى أضاع من توحيدة السنوات دون طائل .

الولد سعد ، الذى تفضله الزينة على زوجها عوض ، مازال يدور فى الحوارى بلا عمل . مازال يدرس ويتحدث عن الممثلين والممثلات . وعن أسماء كثيرة لا تعرفها . لكنه - للآن - لم يكسب مليما . ولا يعطى للأموال أهمية .

بلهاء ابنتها الزينة . لكن للعشق أحوال تفرض نفسها على العاشق وتقيده .. توحيدة أدرى بهذه الأحوال . فقد جربتها ، ولن تحس بسخف ما تفعل إلا بعد أن يزول ذلك التأثير السحرى .

★★★

تدهورت أحوال عباس الأعور . ولم يعد كما كان . بيوته باعها لكى يحافظ على الصورة التى اعتادت الناس أن تراه فيها . الملابس الغالية الثمن . والعربة الحنطور التى تقف طويلا أمام باب بيته حتى ينزل والحاجة رغم علمها بأن النقود

التى ينفقونها تأتى من بيع البيوت الصغيرة المتناثرة فى غربال . والتى يمتلكها زوجها . وأن الرجل وأولاده لا يأتون بقرش واحد أبيض أو أحمر . رغم علمها بكل هذا مازالت تحافظ على عاداتها : تلقى بالطبيخ كما هو - بلحمه - فى الزبالة . لكى يحكى الزبال عما يلاقيه فى زبالتها .. وأكثرت من دخول أقفاص الفاكهة التى تأتى رأسا من الوكالة ، لكى يحس أهل الحارة بأنها مازالت غنية كما هى ، وتوقف زوجها عن التجارة ليس بمشكلة . فالمال كثير والحمد لله .

وعندما تحدث وفاة فى الحى ، ترسل أقفاص الفاكهة كل خميس لمدة ثلاثة أسابيع . تضع فى القفص التفاح الأمريكانى ، وباقى الفواكه الغالية جدا . والتى لا تدخل بيوت كل سكان الحارة . ولا تستطيع أى امرأة أخرى - فى الحى - إرسالها لأهل المتوفى .

وعندما عرضت عليها توحيدة أمر ذلك الدكان ، المستقطع من الحديقة ، وافقت الحاجة ورحبت . فليس من المعقول ألا يدخل البيت سوى النقود التى تأتى من بيع البيوت .

★★★

عندما جاء على الألدغ محملا بهداياه طالبا يد كريمة ، قام عباس مستأذنا لأنه لم يصل العشاء للآن .. ودخل حجرته وأغلق بابها عليه وبكى من عين واحدة . فكيف يحتمل كل ما يحدث .. أيزوج كريمة ابنته لعلى الألدغ الذى كان يمشى حافيا . ؟!

قالت الحاجة معترضة :

- لكنك متزوج يا على ؟

- وما المانع . أنا رجل مقتدر . لقد اشتريت محلا كبيرا فى شارع سعد زغلول . دفعت فيه نصف مليون جنيه .. سآخذكم فى الغد لتشاهدوه.

جاء على الألدغ بسيارة كبيرة يمتلكها . وكريمة تتمنى أن تمتلك سيارة . أى سيارة . وها هى السيارة أمامها الآن يمكن أن تمتلكها . وتقودها بنفسها لو أرادت .

– ماذا قلت يا حاجة ؟

– الذى يريده الله سيكون .

فرحت الحاجة . على أصبح غنيا بطريقة لا يصدقها أحد . محل فى سوق ليبيا أمامه أكوام كبيرة من أجهزة التسجيل والتليفزيونات والراديوهات القيمة . ثم دكان كبير فى شارع سعد زغلول يبيع فيه التحف ومنتجات خان الخليلى للسياح .

يستطيع على أن يسعد البنت التى خاب أملها بعد أن افتقر والدها هكذا . ولا تعرف الحاجة ماذا ستفعل بهم الأيام . والنقود لا تأتى من التجارة والبيوت تتناقص وستنتهى فى القريب .

قال على لكريمة التى لم تبد اعتراضا على عرضه :

– ماذا ترين لو خرجنا الليلة لأعشيك فى أغلى محل فى اسكندرية ؟

نظرت إلى أمها . قامت الحاجة من مكانها ودخلت حجرتها . وتبعتها كريمة . وظل على وحده يدخن السجائر مبتسما . البنت حياة تتابعه فى حيرة . لقد كانت تعامله فى سخرية وتستهزئ به . لكنها ترى الآن الأوضاع مختلفة . الأسرة كلها تحترمه وتعمل له ألف حساب .

بعد قليل جاءت كريمة مرتدية رداء الخروج . لقد أذنت لها الحاجة بأن تخرج معه . بل كانت هى أكثر حماسا منها .

(٢٠)

عندما داهمت قوات الشرطة شقة عوض بحثا عن سيد ابن توحيدة . كان عوض يرتدى ملابسه استعدادا للذهاب إلى عمله . لم يكن يعلم وقتها أن وراء هذه الحملة سراً يتصل بزوجته الزينة .

السيارات كانت كثيرة حول البيت . لا تتناسب مع عملية قبض على مجند متغيب . لكن عوض لم يعط لهذا اهتماما فهم يأتون - أحيانا - بقوة أكبر من اللازم لأخذ غرامة من تاجر بسوق الخضار ، خشية أن يتحرش بهم التجار الكثيرون هناك . وكذلك الحال فى الأحياء الشعبية المكتظة بالسكان .

وتكشفت لعوض الأشياء . بدأ الأمر بحديث عابر بين امرأة من الحارة وأمه عجبة . أن سيد تشاجر مع أمه وأخته ، فأرسل إلى رؤسائه فى الجيش رسالة يخبرهم فيها بأنه لن يعود إلى المعسكر إلا بعد أن يغسل عاره ، ويقتل أخته التى على علاقة آثمة مع رجل غير زوجها .

ضحك عوض أول الأمر . ألم يجد سيد ذريعة لتبرير تغيبه عن وحدته بالجيش، سوى اتهام أخته ؟!

واتضح لعوض أن ذلك الادعاء من سيد ، والذى جاء عفويا ، كان حقيقة .. آخر شئ يفكر فيه أو يخطر بباله أن تكون هناك علاقة بين الزينة وسعد .

هو يعرف سعد جيدا . يعرف ما يحبه ويكرهه . الأطعمة التى يفضلها . والممثلون الذين يفضلهم ويتابع أفلامهم ويتحدث عنهم كثيرا . يعرف أى أنواع النساء التى تثيره . هو حقيقة ميال للجنس وله نزواته الغريبة أحيانا . لكن لا تصل أبدا إلى الزينة . فهى أخت صديقه سيد . وزوجة صديقه الآخر عوض . والاثنان هما أقرب صديقين له فى ذلك الوقت . كما أن الزينة ليست جميلة . ولا تغرى أحدا بعمل علاقة معها . ولولا حاجة عوض الشديدة إلي المال ، وإنقاذ أسرته من الجوع . ما كان وافق أبدا على الزواج منها .

انشغل عوض بتجارته . لابد أن يكون غنيا مثل على الألدغ . الذى رافقه فى صغره . ومثل الجاويش الذى قابله فى الجيش والذى كان يمتلك مصنعا للبلاط . وها هى الفرصة قد جاءت إلى عوض . وقد لا تأتى ثانية .

أموال توحيدة الكثيرة بين يديه وتحت أمره . سيأخذها ويجعلها رأس ماله . يتاجر بها كما يشاء .

لم يكن يعلم وقتها أنه طرف فى الموضوع . وأن حلمه بأن يكون غنيا ألهاه عما يحدث فى بيته . وأنه قد ترك الزينة حتى عشقت سعد.

★ ★ ★

عاد عوض بعد الساعة الثانية عشرة مساء . من الوردية التى تبدأ فى الثالثة وتنتهى فى الحادية عشرة .. الطريق بين مصنع غزل كرموز وبيته لا يستغرق أكثر من ربع ساعة على الأكثر . لكنه تأخر كثيرا . تحدث مع بعض عمال المصنع . أصروا بأن يأتى لهم بملابس لأولادهم . أحذية وبنطلونات . وقمصان . فالعيد على الأبواب . وليس لديهم ما يشترون به من السوق .

لاحظ العمال أن عوض لا يبتسم كعادته . وأن هناك أشياء تشغله .

ظن أحدهم أنه قد احتد مع بعض العمال ، تأخروا فى سداد الأقساط المستحقة عليهم . (وذلك يحدث كثيرا) .

كانت الزينة مستغرقة فى النوم . وابنها الصغير نائم فى حضنها . زفرت قبل أن تفتح الباب . فطفلها ينام بصعوبة .

– إيه . تأخرت فى فتح الباب .

أحست بعدم الرغبة فى الرد عليه .

خلع حذاءه وهو ينظر إلى الطفل النائم :

– أعدى لى العشاء .

تثاءبت . ثم أسرعت لتعد العشاء له . سار خلفها :

– ما أخبار سيد ؟

– مازال فى سجن الوحدة ، ينتظر المحاكمة .

– أراد أن يكون سفاحا . أعجبته حكاية السفاح الذى ظهر منذ سنوات قليلة فى المنطقة .

أحست هى أن طريقته فى الحديث معها متغيرة . وأنه يريد أن يستفزها :

– الولد نام بصعوبة . وأنا متعبة . سأترك الطعام على النار ، وأكمل أنت الباقى .

– لم أكن أظن أنك طرف فى الموضوع .

– أى موضوع ؟

– القتل المزعوم الذى هددك سيد به .

– ليس لى شأن بشئ .

حقيقة ، عوض اغتنى . وامتلك محلا . ولديه عمال كثيرون يعملون تحت إمرته. لكنه مازال ضعيفا أمام الزينة . ماذا لو علمت توحيدة بما يقوله لها . ستثور عليه – لاشك – رغم تعاونها معه ، ومساعدتها له . فهى لن تسمح له بإهانة ابنتها .

– اذهبى لتنامى . سأعد أنا العشاء لنفسى .

ماذا يفعل الآن ؟. كل الناس في الحارة يحكون عما حدث . أيطلقها ويرتاح ؟ لكن توحيدة . ستطالبه – حينذاك – بأموالها . ستأخذ دكانه . ومدخراتها التى يعمل بها . ولن يستطيع أن يبقى فى الحارة بعد ذلك . سيطردونه . مثلما طردوا أباه من «غيط الصعيدى» .

سمع صوت غطيطها آتيا من الحجرة البعيدة وهو يأكل . ود لو قام وخنقها وارتاح .

لم يقترب النوم من جفنيه . وهى أمامه بطفلها . لقد ضاقت عليها الأرض . فلم تجد سوى سعد صديقه لتقيم معه علاقة .

★★★

ارتدى في الصباح ملابسه وهى نائمة . كان متعبا . عيناه حمراوان . فلم ينم لحظة واحدة ..

قابله دكانه المغلق بالباب الصاجى المدهون . والبنت كريمة تقف فى الفراندة تتابعه في تحد . لقد ازدادت كراهيتها له منذ أن اقتطع جزءا من حديقتها وصنع فيها دكانه .

احست كريمة بأن أمها قد خافت من توحيدة . فوافقت على ذلك . وأحس هو بأنه قد انهزم أمام كريمة فاقتطاع جزء من حديقتها ليس إذلالا لها كما كان يظن ويعتقد، وليس ردا على موقفها منه وتفضيلها لحسن بن عزيزة عليه . فقد عالجت الزينة الموضوع . ووضعت له نهاية . فهو لن يكون منتصرا أبدا . لا على كريمة ولا غيرها . ولن يكون مهما ، مهما أحرز من نجاحات فى التجارة أو غير التجارة.

سار فى الحارة . كان يردد سعد أن العلاقة بينهم هو وعوض وسيد لن تنتهى أبدا، ولن يستطيع أحد – مهما كان – أن يفرق بينهم .

ابتسم عوض رغما عنه ، فقد ذهب سيد وسلم نفسه فى وحدته وسعد لم يعد يجئ إلى الحارة بعد أن انكشف أمره مع الزينة . يعنى «خربها وقعد على تلها» .

وحسن ابن عزيزة لم يعد يتابع البنت كريمة بجانب دكان البقال بعد أن علم بأمر زواجها من على الألدغ . الكل يتباعد عنك يا عوض . يتركونك لمصيرك . تستقبله وحدك . وتتدبر أمرك وحدك .

ليس أمامه الآن سوى محاسن . أجل .. هى التى تستطيع أن تحل مشاكله . لكن . أيذهب إليها فى ذلك الصباح الباكر ؟! ولم لا ؟!

★ ★ ★

كانت محاسن تقف أمام قهوتها ، والنسوة فى البيت المجاور للقهوة يتحركن بملابس البيت : قمصان هفهافة ، وجلابيب عادية . بدت وجوههن متعبة وشاحبة بدون أدوات التجميل .

عندما رأت محاسن عوض أمامها ، أحست بأنه متعب وأنه فى حاجة إليها .

اقتربت منه . عامل قهوتها مازال يمسح البلاط ويرشه بالماء ، ومحاسن تتابعه من بعيد .

ابتسمت لعوض (لم يرها عوض دون ابتسام . حتى وهى فى قسم الشرطة يوم القبض عليه كانت تبتسم).

المقاعد متراصة فوق بعضها . لتخلى المكان للمسح والتنظيف . شد عوض مقعدا له :

– أجلس يا عوض . سآت إليك .

تحدثت مع عامل قهوتها ثم سارت بمقعدها :

– إيه يا عوض ، وكيف حالك ؟

أراد أن يبتسم فلم يقدر . أراد أن ينطق فلم يستطع .

امرأة – من البيت المجاور للقهوة اقتربت من محاسن . ظنت لديها أحد الزبائن جاء مبكرا . فأرادت أن تبكر به . وعندما وجدته عوض أشاحت بيدها وسارت .

– آسف يا محاسن جئت مبكرا .

– تأتى فى أى وقت تشاء .

جاء الساقى بالشاى ، قالت له :

– عد به . عوض سيتناول إفطاره معى .

قال عوض :

– لا أستطيع .

– لم أفطر يا ولد . وستتناوله معى .

أحس برغبة فى أن يضع رأسه فى صدرها ويبكى . كما فعل فى قسم الشرطة منذ سنوات طوال .. فضحته دموعه . انسابت فوق وجهه فجأة :

– ماذا بك ؟

وضعت وجهه فى صدرها . فأحس بالراحة وأجهش فى البكاء .

تابع عامل القهوة المشهد من بعيد . فابتسم . ظنهما يمزحان معا . كما يحدث دائما أمامه .

– عوض . كن رجلا .

مسح وجهه مسرعا .

– ماذا بك . اختلفت مع الزينة ؟

– لا .. الزينة لم تكن لى . زواجى منها خطأ كبير .

– لقد تزوجتها لكى تستقر .

– لكن . لم أحبها أبدا .

– المهم . أن تحبك هى .

– هذه هى المشكلة . هى أيضا لا تحبنى . وأعتقد أنها لن تحبنى أبدا .

صمتت محاسن لحظات لتستجمع ما ستقوله له . لكنه فاجأها قائلا :

– محاسن . لم تحبنى امرأة سواك .

ضحكت :

– أنا يا عوض؟.

– أنت الوحيدة التى أحس بحنانها .

جاء عامل القهوة بالإفطار . وضعه فوق المائدة بينهما .

– مد يدك .

امتدت يده ، أحس بالراحة لأنه قال لها ما قاله . نسى ما حدث بينه وبين الزينة . ذلك ما كان يبحث عنه منذ زمن بعيد دون أن يدرى . أحب كريمة لكنها لم تهتم به . والزينة لفظته بعد أن تزوجها .

– محاسن . إننى امتلك محلا الآن . وتجارتى فى اتساع .

– ربنا يزيدك .

– وأريد أن أتزوجك .

ضحكت طويلا . ظنها ستسخر منه كما فعلت كريمة . وستأتى بالنسوة لكى يشهدن ذلك الموقف الساخر .. لكنها تركت اللقمة من يدها ورجعت بجسدها إلى مسند المقعد وشردت .

تحدثت محاسن فى صوت هادىء ودون ابتسام :

- وزوجتك ؟

- لن أتركها . فأمها شريكتى فى التجارة .

- وتريدنى أن أترك القهوة وأعيش معك بعيدا عن هنا ؟

- كونى كما تشائين . المهم أن أتزوجك .

أعادت اللقمة إلى فمها . وابتسمت . وشردت ثانية .

(٢١)

عندما سمعت توحيدة من أحد الزبالين الذين يبيعون لها الدخان ، أن عوض تزوج على ابنتها صعقت . وأكدت أن فى الأمر خطأ ما . وأن عوض لا يمكن أن يتزوج على الزينة مهما حدث .

لكن ذلك الزبال أكد ما سبق أن قاله . وأكد أيضا أنه مستعد أن يريها البيت الذى يسكنه مع زوجته الجديدة فالبيت يقع فى قسم «الزبالة» الخاص به فى الابراهيمية .

أرادت توحيدة أن تخفى هذا عن ابنتها . فهى واثقة من كذبه . فقد تكون تلك المرأة عميلة تتعامل مع عوض . تبيع له الاشياء ، أو تشترى منه . فهو لا يفكر سوى فى تجارته وكيف ينميها . ولو وقفت امرأة فى دكانه أمامه عارية . فلن يهتم بها ، سيعطى كل اهتمامه لما اشترته منه .

لكن ذلك الزبال الثرثار حكى للزينة أيضا . فضحكت قائلة :

– عنده حق . فهو وسيم . والنسوة تطارده .

ثم أكملت فى أسى :

– يحمد ربنا . أننى وافقت على الزواج منه .

لكنها – فى اليوم التالى – لم يكن لها شاغل سوى هذا الموضوع . ولم تتحدث فى شىء سواه . تذكرت ادعاءاته الكثيرة بالسفر هذه الأيام . وبياته خارج البيت من وقت لآخر . وهذا لم يكن يحدث من قبل .

قالت لأمها :

– أريد أن أرى زوجته .

– يابنتى أنا لا أصدق هذا الكلام .

لكن الزينة أصرت .

ذهبت أمها معها مضطرة . أشار الزبال – الذى أبلغهم الخبر – إلى البيت من بعيد .

دقت الزينة باب الشقة ، وأمها تحاول أن تبعدها عن الباب :

– يا بنتي هيا بنا .

فتح الباب . ووقفت محاسن أمامهما بقامتها المديدة . كانت ترتدى روباً أحمر. وشعرها معقود من الخلف المرأة رغم كبر سنها مازالت جميلة وشهية ، أحست الزينة بامتعاض .

– شقة عوض حلمى ؟

– تفضلى .

سارتا إلى الداخل . قالت الزينة :

ـ إننا أقاربه . نريد أن نوصيه على ملابس وأحذية لأولادنا .

ـ آسفة . هو فى الخارج .

أخذت محاسن تفكر .. فهى قد رأت المرأتين من قبل . ولا تذكر أين . رددت لنفسها قد تكونان قريبتاه حقا ، ورأتهما محاسن فى الحارة أيام كانت تسكن هناك . فمعظم السكان هنا أقارب .

قامت محاسن لتعد لهما الشراب . وقالت الزينة فى ضيق وهى تقاوم دموعها :

ـ أرأيت ؟

أمها لم تجبها . كانت تتابع الشقة وما فيها .

عادت محاسن بالأكواب . وهى ترحب بهما من وقت لآخر .

قالت الزينة وهى فى طريقها إلى الباب للخروج مع أمها :

ـ قولى له « عمتك وابنة عمتك» .

★ ★ ★

قابل عوض على الألدغ مساء . جلس أمام دكانه فى سوق ليبيا . صاح على فى عامله بصوت مرتفع . وسبه ضاحكا . وعندما جاء زبون للشراء لم يتحرك على. فعماله يسرعون إلى الزبون . ويبيعون له دون تدخل من على . قال عوض :

ـ الزينة وأمها اكتشفتا زواجى من محاسن .

ضحك على قائلا :

- ذلك سيريحك كثيرا .

- كيـف ؟؟

- إنك قلق وخائف من أن تعلم الزينة . وها هى قد علمت . فماذا سيحدث ؟

- إنها ثائرة . ولا تكف عن الصراخ .

- دعها تصرخ حتى ترتاح .

ما الذى تريده الزينة منه . تزوجته مضطرة (هكذا تقول له كلما تشاجرا معا) وأعلنت أنها نادمة على ذلك . وعندما يريدها تأتى إليه زافرة . ووجهها مقتضب . ولولا ولعها بذلك . ما جاءت إليه أبدا ، كما أنها فضلت عليه سعد الذى لم يعمل للآن . ومازال يأخذ مصروفه من أبيه . فلماذا تغضب لأنه تزوج . فلتتركه يفعل مايشاء مادامت لا تحبه .

عوض - فى الحقيقة - لا يخافها هى، لكنه يخاف من أن تواجهه بتوحيدة . وهو يخجل منها لمواقفها معه .

قال على الألدغ ضاحكا :

- أنت تعطى للموضوع أكثر مما يستحق . فأنا سأتزوج على زوجتى ، وكل شئ معد الآن . الشقة التى سأتزوج فيها والأثاث . أيام قلائل وسأتزوج .

- وما موقف زوجتك ؟

ضحك أكثر :

- هى تعرف كل شئ وحقيقة هى أعطتنى الكثير . ولولاها ما كنت فى هذه «الأملة » التى أنا فيها الآن . لكنها تعرف مدى حبى لكريمة .

- أكنت تحكى لها ؟

- قلت لها إن عباس الأعور سرق مال أمى واغتنى . وأن زواجى من ابنته الجميلة المدللة هو حلم حياتى . قلت لها هذا أيام كنت خادمها ، أحمل حقيبتها وأدور وراءها من حفل لآخر . وإذا ما أرادتنى تنادينى وتأمرنى بأن أفعل كذا وكذا . وأطيعها صاغرا . كنت ككلب تربيه لكى يقضى بعض حاجاتها التى تسعدها وتتلذذ بها . أتظن من أجل رد الجميل ، أترك حلم حياتى فى أن أصاهر

عباس الأعور وأتفوق عليه ؟!

صمتا للحظات . ثم عاود على الألدغ الكلام :

ـ كما أن زوجتى لم تسء إلى فى شئ . وزوجتك أهانتك . لو استطعت أن تطلقها فعجل بذلك .

ـ هى التى تطلب الطلاق بإلحاح .

ـ طلقها . ولو تريد الولد سعد فلتجرى خلفه لتعرف وقتذاك أيكما أصلح لها .

ـ أجل . سعد لا يستطيع أن يتزوجها أبدا . فهو يعيش فى الأحلام وسيظل هكذا .

ـ تلك فرصتك لكى تنتقم منه ومنها . أتركها . لكى تعرفه على حقيقته .

عاد عوض إلى محاسن . هى مازالت تدير قهوتها . وتدير البيت المجاور له . ورجال بوليس الآداب يأتونها . يأخذون رواتبهم منها . فهى تحمى النسوة . وتتعامل مع القليل من الرجال الذين يحرسون القهوة والبيت . ويحمون النسوة .

النسوة اللائى يعملن معها . يعرفن قدرها . قد تعاملن مع معلمات قبلها . لم يرتحن لأحد مثلما يرتحن لها . فلم يهاجم بوليس الآداب بيتها للآن . فهى ـ منذ صغرها ـ وهى تجيد التعامل معهم .

لم يطلب عوض منها ألا تتعامل مع الزبائن الذين يريدونها . لكن هى اتخذت هذا القرار من نفسها قبل أن تتزوج عوض كان تعاملها فى ذلك الموضوع قليل جدا . قد يمر شهر ولا تتعامل خلاله مع زبون واحد . فالأموال كثيرة من إيراد القهوة ومن إدارة البيت المجاور للقهوة . لكن بعض الزبائن يلحون ويشترطون بأن تكون هى المرأة التى يتعاملون معها . وكانت توافق على مضض وبمبلغ كبير جدا .. لكنها الآن بعد أن تزوجت عوض امتنعت عن ذلك مهما كان الزبون مهما . ومهما كان المبلغ كبيرا .

يرتاح عوض فى بيت محاسن . يشرد . فيجد عجبة ومحاسن هما المرأتان

اللتان أحبتاه من دون كل نساء العالم . فعندما كان يذهب إلى محاسن فى قهوتها مع سيد ابن توحيدة وسعد ، كانت محاسن تهتم به أكثر من زميليه (وذلك لم يكن يحدث إلا معها) وعندما حاول سعد معها . نهرته . وصاحت فى عوض :

- قل لزميلك أن يبطل هذه الأفعال .

ظن سعد أنه يقدر أن يتعامل معها بدون نقود . مثل بعض النسوة اللائى عرفهن من قبل .

ذلك ما جعل عوض يرتاح للبقاء معها .

يعلم عوض أن الناس يتهامسون عليه الآن . يقولون إنها أكبر منه سنا . وإنها كانت تتعامل مع من يدفع ومازالت ترتدى قفطانها الرجالى وتدير قهوتها . ليس مهما . المهم انه وجد امرأة تحبه بعد طول انتظار . وذلك ليس سهلا .

لقد أحب عوض كريمة . أحبها بصدق . أكثر من حب حسن ابن عزيزة لها . وأكثر من حب على الألدغ الذى سيتزوجها فى القريب . مازال عوض يذكر سخرية كريمة منه وهو يجلس على البلاط العارى يأكل فى نهم كالحيوان . وضحكها العالى عليه عندما كان يهرش شعر رأسه بأصابعه الملطخة بالطبيخ من وقت لآخر .

لو استجابت كريمة لعوض لأعطاها عمره كله لو أرادت . لكن كريمة سخرت منه . واختارت الأكثر جمالا . ثم الأكثر مالا الآن .

(٢٢)

لم يصدق سعد الخبر أول الأمر . حقيقة أن الموت علينا حق .. لكن عوض كان يتحرك أمامه منذ أيام قلائل . وكان يبدو فى كامل صحته . فكيف مات؟

أتكون حادثة ؟

عندما عاد سعد إلى بيته أخبرته أخته كاملة بذلك وبكت . فهى تعرف عوض. كان يزورهم فى البيت كثيرا .

أسرع سعد إلى حارة نعمان . كان السرادق يبدأ من أول الحارة ، ويكاد يصل إلى بيت عجبة أمه والجالسون على قهوة أبو دومة يتحدثون عما حدث :

ـ اتخطف عوض خطفا .

ـ ماذا حدث له ؟

ـ تشاجر مع زوجته .

كانت الزينة تضع الوابور امام باب البيت . وأمها توحيدة تجلس فى دخلة البيت أمام ابنتها .. قرفصت الزينة فى الحارة . أخذت ترفع السمك المغطى بالردة فوق صفيحة على الوابور لتشويه .

السمك كثير . لها ولأمها . والوقت يمر مسرعا وهى لم تنته من شيه . تقطع الأم الطماطم والجرجير .. والفلفل بكميات كبيرة . ستتناول الغداء مع ابنتها الزينة . والباقى ستبقيه لعوض ، ولزوجها عندما يعود .

تململت الزينة فى جلستها . فانكشف ساقها حتى الركبة . الرجال الجالسون على قهوة (أبو دومة) تابعوا ساقها التى تزداد عريا وقتا بعد وقت . القميص الهفهاف يكشف عن الذراعين . فإذا ما رفعت السمك لأعلى ظهر ما تحت إبطها .

تابع عوض هذا من بعيد . شاهد العيون التى تتابع جسد امرأته فى نهم . وهم يتحدثون بسخرية . يعرف عوض مثل هذه الأحاديث . سيذكرون الآن ما

تردد عن علاقتها بسعد .

أسرع إلى زوجته غاضبا . لكنه لم يحدثها وتحدث مع أمها :

- كيف تسمحين لها بأن تكشف عن جسدها - فى الحارة - هكذا ؟

لم تجبه توحيدة . أحست بأنه محق فيما يقول . ومن حق الزوج أن يغار على زوجته . بل إن الزينة يجب أن تفرح لهذا . فالرجل رغم زواجه من أخرى ، مازال يحبها ويغار عليها .

لكن الزينة لم تفرح . ولا تدرى توحيدة ما الذى يغضبها . فتحدثه قائلة :

- وما شأنك أنت ؟

سمعتها النسوة الجالسات أمام بيوتهن . والواقفات فى النوافذ والشرفات . قالت توحيدة لابنتها :

- الرجل لم يخطئ يا ابنتى .

قامت الزينة وازداد صراخها :

- إننى خير من زوجتك الأخرى . والكل يعلم ماذا تعمل .

اقتربت توحيدة منهما :

- اخز الشيطان .

- ماذا فعلت يا أمى . إننى جالسة محتشمة أمام بيتى .

صوت صراخها الحاد أفقده رشده . فأسرع إلى الوابور وأطاح به . قلب كل السمك . فتناثر الذى اكتمل شيه ، والموضوع فى الماء المتبل بالثوم والبهارات . فارتفع صراخ الزينة . وسبته وسبت أمه عجبة .

صعد إلى شقته . أحس باختناق . لم يجد من ينقذه . تخدر جسده وأصبح عاجزا عن الحركة . والزينة ليست فى الشقة . هى – مازالت – مع أمها – مازالت تبكى وتصرخ وسبته وتلعن أمها التى كانت السبب فى الزواج منه . ورددت :

- لقد فضحنى فى الحارة واتهمنى فى شرفى . ألا يذهب إلى زوجته الأخرى المومس والتى تدير بيتا للدعارة .

الاختناق يزداد . والرغبة فى جرعة ماء تزداد . والصوت يتلاشى بطيئا بطيئا. يتحول بعد ذلك إلى أنين .

عندما صعدت الزينة إلى شقتها مساء . لمحته ينام فوق سريره . بكامل ملابسه . لم تلق إليه بالا نامت بعيدة عنه . قبل أن يتزوج محاسن . كان فى مثل هذه الأحوال يأتى إليها ويصالحها . فتتثاقل عليه قليلا . ثم تستجيب له . لكن بعد زواجه من محاسن لم يعد يريد الاقتراب منها . لذا ، لن تنتظره . ستنام حتى الصباح . وإن جاء فسترفضه . ستقول له إنها مشغولة بالولد الصغير . ستحاول إثارته .

لم تكتشف موته إلا فى اليوم التالى وبالمصادفة .

كانت ذاهبة إليه لتستفزه وتعاركه . لكنه لم يتحرك . لاتدرى أى هدوء هذا الذى هبط عليه ..

ردد بعض الجالسين فى قهوة (أبو دومة) . إن ذلك ليس كل الحقيقة . وإن الأمر أبعد من حكاية شى سمك فى الشارع . قالوا هذا . بينما صراخ الزينة يأتى من خلف السرادق :

- لم تكن الزينة هى السبب المباشر فى موته .

- كيـف ؟

- الموضوع قديم . فعوض يعانى من تعب فى القلب منذ سنوات طويلة ربما منذ الصغر . ولم يكتشف هذا إلا مؤخرا . رغم ذلك لم يرحم نفسه . تزوج من الزينة الشبقة والتى لا ترتاح وتهدأ وتنام إلا إذا اجتمع معها . ولم يكتف بهذا . فتزوج امرأة أكبر منه . والمرأة العجوز تمص الرجل مصا . كما أنها مومس سابقة ومجربة . وتعرف أفانين العشق وبدعه .

لكن آخرين لم يقتنعوا بكل ما قيل . وأكدوا أن ما سيقولونه هو الحقيقة ولا شئ غيرها :

منذ أسابيع قليلة تشاجر عمال عوض مع تاجر قبطى فى شارع حافظ قبطان القريب من غربال . يتاجر منذ سنوات طويلة فى السجاجيد والأكلمة

والأدوات المنزلية الأخرى . بدأ الرجل سريحا يحمل الأكلمة فوق كتفيه ويبيع فى البيوت بالتقسيط إلى أن اغتنى وافتتح محله هذا . وأصبح له عمال كثيرون .

عمال عوض شاهدوا عمال ذلك الرجل يدخلون بيتا ، يتعاملون مع سكانه . فتشاجروا معهم . قالوا :

ـ تعاملكم مع هؤلاء السكان سيضيع علينا نقودنا ، المدينين بها .

كبرت المشاجرة حتى وصلت إلى الدكان فى شارع حافظ قبطان . فحطم عمال عوض دكان الرجل القبطى .

ورموا بضاعته إلى الطريق . فاتسخت الأكلمة والسجاجيد . وتحطمت الأدوات الكهربائية من نجف ومكاوى وخلاطات . حتى زجاج المحل حطموه .

واشتكى التاجر القبطى إلى البوليس . فجاء ضابط نقطة غربال إلى حارة نعمان . ثم جاء ضابط المباحث من القسم الكبير . قسم محرم بك . خشية أن تكبر المسألة ويقع الأقباط مع المسلمين .

المخبرون أخرجوا عوض من دكانه . رآه الضابط فى ملابسه الانيقة والخاتم الكبير فى اصبعه . فلم يرتح له . خاصة أن عوضا تحدث مع الضابط فى تحد أثار الضابط . فعوض يقرأ الآن كل الجرائد .

ويعرف حقوقه . وشاهد أفلاما كثيرة . يسأل فيها المتهم الضابط عن تصريح النيابة . وأشياء من هذه الضابط صفع عوض على قفاه أمام زوجته وحماته وباقى نساء الحارة ورجالها وأطفالها .

أجل . ضربه على قفاه . والضرب على القفا . عيب . فهو يذهب بهيبة الرجل ووقاره .

ولم يستطع عوض أن يأخذ حقه من الضابط ، ويعيد لنفسه هيبتها ووقارها أمام كل سكان الحارة . ماذا أيحارب الحكومة ؟!

ظن الضابط أن عوض هو الذى أرسل عماله ليحطموا دكان الرجل القبطى . فصفعه ثانية وثالثة .. ووصف أمه بأوصاف لا يليق أن توصف بها امرأة حرة

وشريفة . ثم أخذه معه فى البوكس فورد إلى قسم الشرطة .

بعد أن عاد عوض أحس بأن كل عيون أهل الحارة تتابعه فى اهتمام وفى شفقة . وتسأله أن ينسى المسألة . فالحكومة ليس يقدر عليها أحد .

فى شقته أحس بأن الشقة تدور به . فصرخ . وطلب الزينة وتوحيدة وعجبة أمه . فأخذوه فى عربة حنطور إلى طبيب مشهور فى شارع ايزيس . معظم سيدات الحى يتعاملن معه . قال الطبيب إنه مريض بالسكر .. وارتفاع ضغط الدم .. وكانت تلك هى البداية .

بكى سعد من أجله . عوض فى الفترة الأخيرة لم يكن يقابله . ووصلت العلاقة بينهما إلى القطيعة . لكن سعد مازال يحبه .

زار سعد الزينة فى شقتها مساء ، بعد إلحاح منها لكنه لم يحبها قط . ولولا ملله ما ذهب إليها وعندما سخرت من دمامة زوجها أمامه نهرها وسبها .

ذهب سعد إلى بيت عجبة ليواسيها . وقفت المرأة من بين النسوة الكثيرات وصاحت:

- صديقك مات يا سعد .

وارتمت فوق صدره باكية .

توحيدة عندما رأته . كفت عن صراخها وتابعته فى كره . والزينة نظرت إليه وشردت للحظات . ثم عادت ثانية إلى صراخها وبكائها على عوض .

يقولون إن الزينة قد تغيرت بعد موت زوجها . وإنها أكثرت من الصلاة . والذهاب إلى مسجد الحارة وصادقت بعض النسوة ممن يحرصن على الصلاة فى المسجد ، وسماع الوعظ فيه . وكانت تقف فى الحارة معهن تسمع ما يقلنه لها . وتجيبهن متحمسة بأنها ستجاهد فى سبيل الله إلى أن تموت .

لكنها بعد ذلك ابتعدت عن المسجد تدريجيا . وظلت تردد فى كل مكان بأنها ظلمت عوض بن عجبة .. وأنها لم تكن تعرف أنهاتحبه إلا بعد أن فقدته . لذا

ذهبت إلى عزيزة الخياطة ومعها نقودا كثيرة وطلبت منها أن تحيك لها فستانا ليس له مثيل . وأن تكلفه كما تشاء ، فالنقود كثيرة . وكله من خير عوض ومن نقوده التى تركها لها . وأن تكتب عزيزة بالتطريز على ظهر الفستان اسم عوض حلمى بالخط الكبير . وأن تعطى عزيزة « للرسيم » ما يشاء . المهم أن يكون الخط واضحا للناس جميعا . فذلك حق عوض عليها . وكفاية أنها ظلمته فى حياته .

وفعلت عزيزة ما طلبته الزينة .

وسارت الزينة بالفستان فى الحارة وسط دهشة النسوة وسخرية البعض .

لكن بعد سنوات قليلة . نسيت الزينة كل شئ . فلم تعد حزينة . ونسيت إحساسها بالندم وبظلم عوض وبأنها كانت السبب فى موته المبكر .

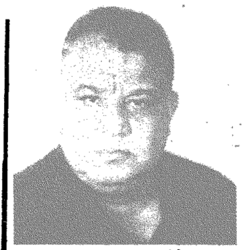
رقم الإيداع : ١٤٨٩٤ / ٢٠٠١

I. S. B. N

977- 07- 0802-x

أحـــــدث إصـــــدارات روايات الهــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٢٣	زنـــــوبـــــة	قوت القلوب الدمرداشية	نوفمبر ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦٢٤	أشجار قليلة عند المنحنى	نعمات البحيرى	ديسمبر ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦٢٥	نقطة النور	بهاء طاهر	يناير ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٢٦	البعيدون	بهاء الطود	فبراير ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٧	فيرونيكا تقرر أن تموت	باولو كويلهو	مارس ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٨	جبال الكحل	يحيى مختار	ابريل ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٩	امرأة ما	هالة البدرى	مايو ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٠	شرف كاتارينا بلوم الضائع	هاينريش بُل	يونيه ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٣١	العايقة بنت الزين	محمد ناجى	يوليه ٢٠٠١	٦,٠٠
٦٣٢	متواليات باب ستة	سعيد بكر	أغسطس ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٣٣	جبل الروح	جاوزينج جيان	سبتمبر ٢٠٠١	٨,٠٠
٦٣٤	منعطف النهر	ف. س نايبول	اكتوبر ٢٠٠١	٧,٠٠



مصطفي نصر

مصطفى نصر .. روائى ذو أصول صعيدية ، مولود فى الإسكندرية عام ١٩٤٧ .

- عمل مديرا للحسابات فى إحدى الشركات وحاليا متفرغ للكتابة

- يكتب الرواية والقصة القصيرة والدراما الإذاعية

- له اهتمام خاص بالحى الشعبى بالإسكندرية وبشخوصه وبمفردات حياتهم

- له العديد من الأعمال الأدبية من أبرزها «الصعود فوق جدار أملس» ١٩٧٧، «جبل ناعسة » ١٩٨١، «الجهينى» ١٩٨٣ ، «الهماميل» ١٩٨٨، «النجعاوى» ١٩٩٦ ، «ليالى الإسكندرية» ٢٠٠٠ و«ظمأ الليالى» ٢٠٠٠

ترجمت رواية «الهماميل» المنشورة بسلسلة روايات الهلال إلى اللغة الروسية ، كما نالت روايته «الجهينى» الجائزة الأولى فى نادى القصة .

هذه الرواية

أخيرا ابتسمت الأقدار لعزيزة .. فقد عاشت مع زوجها السابق عدة سنوات دون إنجاب، ومع زوجها الحالى عدة سنوات أخرى ولم تنجب أيضا .. ولكنها أخيراً حامل !!

جاءت طفلتها الأولى، وأقام زوجها حسين حفلا فى الحارة لم تشهد غربال مثيلا له من قبل ،فأنجبت له عزيزة ولدا آخر بعد تسعة أشهر أخرى ..

وتأتى الرياح بما لايشتهى السفن .. مات حسين بعد أن أنجبت عزيزة الطفلين ، فقالت عنها زوجته الأولى: إن عزيرة قتلته، إنها لاتشبع من الرجال وكان حسين يشرب المخدرات ليرضيها .. استهلكته فمات .

ماهى حكاية عزيزة ، وكيف كانت علاقتها بحسين وبزوجته السابقة ؟

هذا ما ستروية «ليالى غربال» على صفحاتها بين يديك .

روايات الهلال تقدم

جنرال الجيش الميت

تأليف

إسماعيل قدرى

ترجمة

عبد الحميد فهمى الجمال

تصدر : ١٥ ديسمبر سنة ٢٠٠١


روايات
مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة
فى ربوع الوطن العربى
من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
Bibliotheca Alexandrina
0706269
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢